سلسلة شهادات سورية 8

غرفة تطل على الحرب

إيديت بوفييه

بيت المواطن
للنشر و التوزيع

غرفة تطل على الحرب

إيديت بوفييه

غرفة تطل على الحرب

سلسلة شهادات سورية -8- غرفة تطل على الحرب
إيديت بوفييه

الإخراج الفني: فايز علام
صورة الغلاف: للمصوّر الصحفي (ويليام دانييلز) من بابا عمرو 2102
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2014

ISBN: 978-9953-583-48-8

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

«Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires étrangères et du Développement international et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban».

الإهداء:

إلى ويليام!

إلى السوريين الذين حملوني على ظهورهم وبين أذرعهم..

إلى أولئك الذين، براحاتهم الموضوعة على جبيني، أعادوا إليّ قوة الثقة والكفاح!

إلى والديّ!

إلى جوليان!

وللحرية الحمراء بابٌ بكلّ يدٍ مضرّجةٍ يُدقّ

أحمد شوقي

انظر كيف تمشي المدينة على الأطفال،

انظر كيف تطير بهجةً أمام العصفور السجين!

ماذا فعلت المدينة «المدكوكة» بالسكان كي تبيت بلا شمس؟

اصعد إلى مقعدك أيها السائس، لتحملك خيولك إلى جحيمي!

أُنسي الحاج

استهلال

لم يضع أحدٌ بندقيةً على صدغي ليرغمني على الرحيل إلى سورية. لم يقدّم لي أحدٌ حقائب نقود. إنه خيارٌ عقلاني، نضج طويلاً. لا جنون في ذلك، ولا حماقة. حين رحلتُ إلى تركيا في كانون الأول/ ديسمبر الماضي، كنت مرعوبة. بعد بضع دقائق، في المركبة التي كانت تقرّبني من الحدود السورية، شدّ المهرّب ذراعي وهو يحدّق في عينيّ، وقال: «تستطيعين أن تتراجعي إن شئت. ليس هنالك مجالٌ للشعور بالخزي»! ابتسمتُ وبقيتُ، على الرغم من انقباض معدتي، لأنّ ذلك كان مكاني، ولم أكن أرغب في أن أكون في أيّ مكانٍ آخر.

كتابة هذا الكتاب محنة. لكنني أعلم أنها معبرٌ ضروري، مثلما أعلم أنني سأرحل ثانيةً. لأنّ هذه هي مهنتي، الشيء الوحيد الذي أعرف أن أفعله: أن أحكي، أن أتكلّم، أن أشهد، كي لا أسمع أحداً يقول: لم نكن نعلم. كي لا تُنسى أولئك النسوة، أولئك الأطفال وأولئك الرجال، الشباب والشيوخ، المتمرّدين، الشجعان، تلك الإنسانية المهانة والمذبوحة، أولئك المجهولين الذين مدّوا لنا أيديهم وآوونا مخاطرين بحياتهم، وابتسموا، وشرحوا تاريخهم، من أين أتوا ولماذا يناضلون. أولئك الرجال والنساء، الفقراء غالباً، الذين لا يقاتلون من أجل المال والجاه، بل من أجل الحرّية، هذا الأمل الذي لا يمكن تدميره، وسط الفوضى، في مستقبلٍ أفضل. هذا

اليقين الذي لا يتزعزع بعدالة كفاحهم، اليقين بأنه ما من شيءٍ يمكن أن يوقفهم، بأن غيرهم سينهضون بدلاً منهم حيث يسقطون.

كتابة هذا الكتاب حاجة. وفي حين أستقرّ أمام حاسوبي وأركّز كي أتذكّر كل تفاصيل تلك المغامرة، تهرب مني بعض الوجوه وبعض الألوان. تنمحي ذاكرتي شيئاً فشيئاً. تمتزج بعض الأحداث وتختلط. أرى ويليام إلى جانبي، لكن يتشكّل حوله ظلٌّ أسود، وتتبدّد حوافّ الأشخاص. تختفي لطيفة[1]. خصلات شعرها البنّية وأثوابها الطويلة وعيناها الجميلتان الحزينتان. لذلك، أحتاج إلى أن أحكي عنهم كي لا أفقدهم، أن أضع على الورق حقاً وفعلاً تلك الأيام العشرة وأتقدّم. منذ العودة إلى فرنسا، لم تنتبني كوابيس ولم أشعر بقلقٍ خاص، لكن عليّ الآن أن أنتقل إلى أمرٍ آخر، أن أترك تلك الحكاية خلفي كي أتمكّن من الرحيل مجدّداً. وبعد أن أشفى، عليّ أن أحضّر حقيبتي وأستقل طائرة. أن أكتب تحقيقاتٍ جديدة، أن ألتقي بأشخاصٍ جدد، أن أتعلّم بتواصلي معهم، أن أستأنف حياتي.

كتابة هذا الكتاب ألم. إنها تعني أن أرى مرّةً أخرى على مدى الصفحات ابتسامة ريمي.

ريمي لم يكن يتظاهر بعدم معرفة الخطر، بل على العكس تماماً. فقد ذهب قبل ذلك إلى مناطق حربٍ كثيرة، كان يعرف مخاطرها. لكنّه لم يتردّد ولو ثانية، لأنه كان يعلم في أعماقه بأن جوهر عمله ومعناه كمراسلٍ مصوِّر، هو هناك، وسط حيٍّ محاصَر، تحت القنابل السورية. لقد جاء ليحكي تاريخ السوريين، من رجالٍ ونساءٍ وأطفال، كانوا يقاومون مخاطرين بحياتهم. كان يعلم أنّ مكانه هو هنا، وليس في أيّ مكانٍ آخر.

لن يعود ريمي من هناك.

ومن أجله، من أجل أولئك الذين ذهب ليقابلهم، سوف نواصل. سوف أواصل!

1- لأسبابٍ أمنية، تمّ تغيير بعض الأسماء.

ـ 1 ـ

الأربعاء 22 شباط/ فبراير 2012، الساعة الثامنة وعشرون دقيقة صباحاً.

البيت يرتجف. الثريّا المعلّقة في السقف، فوقنا، تهتزّ اهتزازاً خطيراً. بعض قطع الطلاء والدهان تتساقط علينا. نوافذ المطبخ تتخلّع مع موجة الانفجار. الجيش السوري يطلق على رؤوسنا صواريخ من عيار 122 ميليمتر، الكاتيوشا الشهيرة.

من حسن حظّنا، أن المركز الإعلامي الذي وضعونا فيه قبل يومٍ هو في الطابق الأرضي من بنايةٍ صغيرةٍ بثلاثة طوابق، يُفترض فيها أن تحمينا بتخفيف صدمة القنابل.

بضع ثوانٍ من الراحة، ثمّ تسقط قنبلةٌ أخرى، أقرب من سابقتها. الناشطون السوريون الموجودون معنا يقيسون مدى الخطر فوراً. الجميع في المنزل يتحفّزون.

تنفجر القذيفة الثالثة. العسكري الموالي لبشار في الجانب الآخر من جهاز التسديد يضبط رمايته. أصوات الانفجارات تتقارب. ينبغي الرحيل، وبسرعة.

فور رمي جميع أغراضنا في حقائبنا، نسارع نحو الباب. ماري كولفن

وريمي أوشليك هما أول من خرجا ووصلا إلى الزقاق المقابل للبيت. أضيّع بضع ثوانٍ في المماطلة. هل عليّ أن آخذ حقيبتي أم أتركها؟ الرغبة في أن أبقي كل شيءٍ معي، في حال دُمّر المنزل، كي أتمكّن من العمل في أسرع وقتٍ ممكن. لكن ربما ينبغي أن أبقى خفيفةً كي أتمكّن من التنقّل بسرعةٍ تفوق سرعة القنابل. بضع ثوانٍ فقط من التفكير.

ويليام دانييلز، رفيقي في السفر، وخافيير إسبينوزا على بُعد بضعة أمتار، قرب الحائط. خافيير إسباني، وهو المراسل الإقليمي لصحيفة «إلموندو» اليومية. وصل مساء اليوم السابق. بضع ساعاتٍ فقط ليعرّفنا بنفسه، وهي تكفي للشعور بتجربته الميدانية.

في الجانب الآخر من الحجرة، يقف بول كونروي، خلف الثلاجة. طويلٌ جداً ونحيل، شعره رمادي، وهو مصوّر صحيفة «سانداي تايمز»، مع ماري كولفان. لم يتسنّ لنا الوقت حقاً للتعرف بماري، لكنّ سمعتها كمراسلةٍ صحفيةٍ حربيةٍ كبيرةٍ سبقتها. إنها في كل مكانٍ وزمان. في الأماكن التي لا يتمكّن أحدٌ من دخولها، تجد ماري وسيلةً للتغلغل. إنها شغّيلة، شغّيلةٌ حقيقية. وإصابتها الشهيرة في عينها لا علاقة لها بالأسطورة التي تسبقها. ظننتُ نفسي أحلم حين رأيتها في الليلة الفائتة تصل مسرعةً وهي تلفّ حول كتفيها معطفها الأسود الكبير من ماركة برادا، بعيداً عن الصورة النمطية للمراسلة الحربية بالرداء العسكري. بلمح البصر، تعرّفت إلى قوامها ذي الأناقة الفائقة وسط تلك الصالة التي كانت تعبق برائحة لفافات التبغ الباردة والتعرّق. التفتُّ إلى ريمي. لا حاجة إلى الحديث، لقد كانت حقاً هي، ماري كولفان، من دخلت لتوّها إلى الحجرة. كانت قد وصلت إلى هنا مع بول قبل عدّة أيام. حين عاد إلى لبنان المراسل الصحفي الكبير في صحيفة «ليبراسيون» جان بول بيران، كان من المفترض أن ترافقه، لكنّ الإعلان عن وصول صحافيين جددٍ استثار اعتدادها بنفسها. ستكون آخر من يغادر المكان، أياً كان الثمن.

يدوّي انفجارٌ آخر. صوته يصمّ الآذان. تتناثر آخر قطع الزجاج في شبّاك المطبخ. أذناي تطنّان. هذه المرّة، سقطت القنبلة في مكانٍ قريبٍ جداً. يتسمّر الجميع في أماكنهم، وتهتزّ الجدران مجدداً. أنطوي على نفسي غريزياً.

يصيح بنا الناشطان السوريان علي عثمان وصالح س. كي نعود إلى الصالة، كي نختبئ. وبينما كنّا نتجه نحو الباب للخروج من هذا الجحيم، عدنا أدراجنا والرعب يجتاحنا.

لكن أين يمكن الاختباء في هذه الصالة الخاوية خواءً مخيفاً؟ كيف السبيل للاحتماء من دون أن نعلم من أين سيأتي إلينا الخطر؟ بول يستند إلى حائط، قرب كومةٍ صغيرةٍ من المرتبات. ويليام موجودٌ في إحدى الزوايا، على مسافة بضعة أمتارٍ مني. البقاء في الصالة مع الآخرين أم التسلل إلى الحمّام المجاور للصالة، وهي حجرةٌ ضئيلة الحجم، لا شبّاك فيها، وتبدو لي ملاذاً حسناً؟ الخروج، الدخول، الاضطجاع؟ لا أدري أبداً.

أتردّد ولا أتحرّك. وأبقى وسط الحجرة، مواجه باب الدخول. وفي لحظة صعود ماري وريمي السلالم لدخول الشقة، تنفجر قنبلةٌ جديدة.

أجزاء من الألف من الثانية. كل شيءٍ يهتزّ. هذه المرّة، أصيب البيت.

أفتح عينيّ بصعوبة. يخز أنفي دخانٌ لاذعٌ انتشر في كل الشقة. لا أرى شيئاً. أنا مستلقيةٌ على ظهري، فوق ما يبدو لي طاولةٌ منخفضة. ألمٌ رهيبٌ يقصّ ساقي اليسرى. أحاول النهوض، الألم يشتدّ. أتلمّس فخذي، فيلوّث سائلٌ لزجٌ يدي. أتمكّن من رفع رأسي، ثمّ من الجلوس على كفليّ ببطء. فخذي يتورّم بلمح البصر، يبلغ ثلاثة أضعاف حجمه. الدم يسيل من بنطالي، ولا أرى من أين يسيل كل هذا الدم. في خضمّ رعبي، يتمثّل أوّل ردّ فعلٍ لي بتحريك القدمين. أن أتأكّد من أنّ طرفيّ لا يزالان موجودين، على الرغم من الألم.

مع كل هذا الدخان، لا أرى أحداً. وحدها بعض الأصوات المتناثرة تجعلني أخمّن بأنني لستُ بمفردي. أحاول النهوض. ساقي اليسرى تؤلمني كثيراً، واستنادي عليها مستحيل. أين ويليام؟ أناديه، بكلّ ما أوتيتُ من قوة. أناديه بحثاً عن الأخبار، وكذلك طلباً للنجدة. أين هو؟ كيف حاله؟ هل يستطيع المجيء لمساعدتي؟

قبل لحظةٍ واحدة، لم يكن يبعد عني سوى بضعة أمتار، لكنني لم أعد أراه. تسلّل حين سمع صوتي ليوافيني. لا يبدو مصاباً. ها هو ذا يتحدّث إليّ، يطمئنني، يقيّم وضعي.

شيئاً فشيئاً، تتبدّد سحابة الغبار. الصالة مملوءةٌ بالبقايا المتناثرة، الثريا تحطّمت إلى ألف قطعةٍ زجاجية. انبعجت المرتبات الحمراء وتمزّقت. الآن، أصبحت قطعٌ من الإسفنج الداخلي مكشوفةً في الأماكن التي انتُزع فيها القماش. تبدو الغرفة كلها كأنها مغطّاةٌ بشبكةٍ هائلةٍ من الرمادي، من تدرّجات الرمادي القاتم. لم نعد نميز شيئاً تقريباً. كل شيءٍ ليس سوى أسى، ليس سوى حقلٍ من الركام.

يضع ويليام ذراعه حول خصري ويشدّني إلى الأعلى محاولاً إنهاضي. بفضله، أتمكّن من الوصول إلى باب الدخول. أمامنا، على السلالم، ماري وريمي مستلقيان. أستند إلى الحائط، وقد انعقد لساني. ينكبّ ويليام عليهما.

لا أرى من وجه ريمي الممدّد على بطنه سوى صورته الجانبية الجميلة. عيناه مغمضتان، وكأنه مغمى عليه فقط. يجلس ويليام قربه، يتحدّث إليه ويربّت على خدّه كي يستثير منه ردّ فعل، كي يوقظه. من ماري، لا نرى سوى شعرها الأشقر. يبدو جسداهما وكأنهما تحوّلا إلى تمثالين. جفونهما لا تتحرّك. عيونهما مطبقةٌ بإحكام. لا يبدو أنّ أيّ نفَسٍ يخرج من فم أيٍّ

منهما. إنهما ساكنان، متصلّبان. يستحيل تصديق ذلك. سوف يستيقظان بالتأكيد. إنها فقط مسألة ثوانٍ، دقائق.

أنا أعلم أنني صارعت من دون نتيجة، ففي أعماقي، أشعر بأنهما لم يعودا هنا. أريد مواصلة التصديق ولو أنني أستطيع، لساعدت ويليام. لكنني أعلم منذ اللحظة الأولى. لقد ماتا. صديقنا مات. وهذه المراسلة الأسطورية التي كان الناس يعتقدون أنها لا تُهزم ماتت. هنا، على بُعد بضعة أمتارٍ فقط.

يأتي سوريٌّ بحثاً عنا. يقول لنا إنه ينبغي عدم البقاء هنا، إننا لا نستطيع فعل شيءٍ لهما، إنّ الأوان قد فات. سوف تصل سيارةٌ تابعةٌ للجيش السوري الحر. وبانتظار وصولها، ينبغي أن نعود إلى الداخل، أن نحتمي في الحمّام. يغادر ويليام رغماً عنه جسديّ ريمي وماري اللذين فارقا الحياة. يوافيني. لا نقول شيئاً، فنظراتنا تكفي. أسانا هنا، مخبّأٌ في باطن شبكيّات الأعين، لم يتحرّر بعد.

يمسك بي من خصري ويقودني إلى الحجرة الصغيرة، ملجئنا المرتجل. خمسة أمتارٍ مربّعة خالية من النوافذ، مغطّاةٌ من الأرض إلى السقف بالسيراميك الأزرق السماوي. هنا، لا وجود للغبار تقريباً، الأرض نظيفة، السيراميك الأزرق يلمع في الظلمة الخفيفة. في المدخل، هنالك حطام مصباحٍ كهربائيٍ على الأرضية. لقد امتلأت الحجرة الصغيرة عن آخرها. الجميع التجؤوا إليها. نحن جميعاً وقوف، مرتصّون بعضنا على بعض، ملتصقون بالجدار، في أبعد مسافةٍ ممكنةٍ عن المدخل، ننتظر. ننتظر ماذا؟ النجدة؟ انفجاراً آخر؟

توقّفت الانفجارات. كما لو أنهم نالوا مرادهم. حتى متى؟ لا أحد يعلم. السوريون يهمسون. تتوالى الدقائق وتذكّرني ساقي بنفسها. ميزة الألم أنه

يخفي جزئياً ريمي وماري وجسديهما الأشبه بالمومياء. بول هنا. خافيير ليس هنا. لم أره منذ الانفجار. لا أجرؤ على طرح السؤال على ويليام. لا يمكن أن نكون قد خسرنا شخصاً آخر منّا.

تبدو لي هذه الدقائق وكأنها ساعات. أشعر بالألم. الآن، غطّى الدم جوربي بالكامل. في اليوم السابق، كنا قد خلعنا أحذيتنا عندما وصلنا وتركناها أمام الباب، أول حذاءٍ رياضيٍّ حقيقيٍّ لي بوصفي مراسلةً، أسود بخطوطٍ صفراء، صبغتها بنفسي بالأسود من أجل مزيدٍ من التحفّظ. كنت أعشقه، حتى إذا كان ويليام قد اضطرّ لقطع جزءٍ من النعل لأنني اشتريته صغيراً على قدميّ الكبيرتين.

علاوةً على الألم، أنا مرعوبةٌ تماماً. أمسك بويليام لأقف ولأبقى على قيد الحياة. لا أجرؤ على تخفيف قبضتي خشية أن أنهار، جسدياً ومعنوياً. من شدّة الخوف، من هذا الرعب الذي يلوي أمعاءك، يثير غثيانك، يسحق دماغك. ما السبيل للنجاة من هذا الجحيم، ممّا عشته لتوّي، ممّا رأيته لتوّي؟ وما السبيل للهروب من هذا الحمّام؟

من المفترض أن يأتي الجيش الحر لأخذنا، لإخراجنا من هنا. لكن إلى أين؟ ولنفعل ماذا؟ لا أجرؤ على طرح أيّ سؤالٍ خشية أن أسمع الإجابات، أو خشية ألّا يكون لدى أحدٍ إجابات.

أركّز على الشيء الوحيد المتبقّي لديّ، ويليام ونسمة حياته. تنفّسه، وجيب قلبه. أضبط تنفسي على تنفّسه، أزفر في الوقت الذي يزفر فيه. وأعاود الكرّة. مرّةً، مرّتين، عشر مرّات، حتى لا أعود أفكّر إلّا في ذلك. الشهيق، الزفير. التنفّس.

بعد بضع دقائق، وإذ لم يعد بوسعي المقاومة، أقرر الجلوس أرضاً على الرغم من خوفي من ألّا أتمكن من النهوض بسرعةٍ كافيةٍ إن وجب علينا مغادرة المكان. لكنّ هذه الحركة الاعتيادية أصبحت شديدة التعقيد. أزلق

ساقي المدمّاة ببطءٍ أمامي، على البلاط الأزرق. شيئاً فشيئاً، أثني الساق الأخرى، مستندةً إلى ويليام لأحافظ على توازني حتى أجد نفسي جالسةً، في بركة دمي.

ما إن أستقرّ وأتنفّس الصعداء قليلاً، حتى أسمع ضجيج زمّورٍ خارج المنزل. إنها إشارة الرحيل. يقبض ويليام على ذراعي ويساعدني على النهوض ثانيةً. لا أقول شيئاً. أصرّ على أسناني، لكنّ ويليام يشعر على الأرجح به، بهذا الخليط من القلق الشديد والألم الذي ينبثق من مسامي كلّها. لا بدّ أنه يشعر بأنني مرتاحةٌ هنا، محميّة، بأنني لا أريد الخروج من هذه العذوبة المبلّطة بالأزرق، من هذا الملاذ البعيد عن العالم، عن الحياة، عن الحرب، عن الموت.

يهمس في أذني وكأنني أنا من أتحدّث إلى نفسي: «اصمدي! سوف ننجو! اصمدي! كوني قوية! أعدك بأنني سأخرجك من هنا!».

أصل إلى الصالة فيحلّ صالح محلّ ويليام. هو يتحدّث الإنجليزية بشكلٍ معقول. يحمل باليد الأخرى حقيبةً صغيرةً جلديةً سوداء، بحجم حاسبٍ محمول. يمسك بكتفي ويساعدني على التقدّم نحو الباب كيفما اتّفق وأنا أعرج.

أجد نفسي مجدّداً في المكان عينه، واقفةً مقابل جسدي ريمي وماري. للخروج، لا بدّ لي من أن أمرّ فوقهما. لكنني عاجزةٌ عن القيام بخطوةٍ كبيرةٍ بما يكفي كي أتجنّبهما. أفهم أنني سأضطرّ للمشي فوقهما، وأرفض ذلك. يرافقني صالح بحزمٍ إلى الخارج. وفي سجالٍ داخليٍّ ممسوس، أتساءل عن الجزء الأفضل من جسميهما لأدوس عليه. استحالة اتخاذ القرار، استحالة التقدّم.

صالح يدفعني، ليس لدينا وقت. أركّز على هذا الضوء الشاحب الذي

يشدّنا ويصدّنا في الوقت عينه. التباين شديدٌ مع عتمة هذه الصالة. اعتادت عيناي على تلك العتمة منذ الانفجار. لا أميّز شيئاً بعد الباب. الضوء يبهرني ويجعلني أضيع كلّ نقاط علّامي. لا صوت من الشارع، لا نسمة حياة. بصعوبة أسمع بعض أصوات السيارات.

يجب أن أخرج، لكنني لا أريد ذلك. أريد أن أخرج، لكنني لا أستطيع. كل شيءٍ في الخارج يبدو لي خطيراً، الهواء المفعم بالغبار، السماء المهدِّدة، الأرض التي تنخمص في كل خطوة. مع ذلك، ومن دون أن أدرك الأمر، أصبح في الشارع.

في الخارج، يبهر الضوء عينيّ لبضع ثوانٍ، وكنت اعتقدت بأنني لن أرى الشمس بعد الآن. أثبّت عينيّ على الرصيف، فأستعرضه بنظري حتى يصل إلى حفرةٍ هائلة، نجمت عن القذيفة التي قتلت ماري وريمي. هذا الجرح في الإسفلت يتجاوز جسديهما الخاليين من الحياة ليصبح من وجهة نظري برهاناً على أنّ ما لا يمكن توقّعه قد حدث.

هذه هي إذاً الحفرة الحقيرة التي تشغلنا منذ دقائق طويلة. إنها كل هذا الدم، كل تلك الصرخات.

بعد بضع لحظات، أنتبه إلى أنّ صالحاً يتحدّث إليّ. السيارة على بُعد بضعة أمتارٍ، وأسمع الآن السائق وهو يُزمّر. يتحمّس الجميع. أخرج من ضبابي. لا يفهم صالح لماذا لا أتقدّم، وعيناي مثبّتتان على تأثير القذيفة. سائقنا، خلف مقود السيارة، يُبدي توتّره بسبب وجوب بقائه مكشوفاً.

خلفه، يقبع بول في المقعد الخلفي من دون حراك، على شفتيه ابتسامةٌ غير واقعية، بهدوءٍ مطلق. يدور بي صالح حول تلك السيارة الطويلة التي يكاد لونها لا يظهر تحت الغبار. يفتح باب المقعد المجاور للسائق ويدفعني

إلى الداخل. يتراجع في حركته إذ يدرك أنني لا أستطيع الارتماء على ذلك المقعد كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. ساقي مدمّاةٌ، منتفخة، وزنٌ ميتٌ مؤلمٌ بشكلٍ مرعب.

في مواجهة وجهي الحائر، يعتقد بأنه سيكون أكثر حصافةً أن يتركني أتدبّر أمري بمفردي حتى لو استغرق ذلك وقتاً لا نملكه. أصرّ على أسناني وأبدأ الالتواء. قدمي، جزءٌ من كفليّ، أمسك بالباب كي لا أفكّر بالساق. كل حركةٍ تنتزع مني صرخةً أبتلعها من فوري.

بول هنا فعلاً، خلفي، لا أستطيع الاستدارة لكنني أشعر بيده على كتفي. لكن لا أثر لأيٍّ من السوريين الذين كانوا معنا، ولا لخافيير ووليام. لا بدّ أنّ وليام على وشك اللحاق بنا، لكنّي لم ألمح خافيير منذ الانفجار. هل هو ممدّدٌ أيضاً تحت كومةٍ من الركام؟

صبر السائق ينفد. يتحدّث إلى صالح، يبدو أنه يريد الإقلاع. لكننا لا نستطيع الذهاب من دون الآخرين، من دون وليام. يبدو أنّ السائق لا يشاركنا الرأي، فيعشّق علبة السرعة. أعرف أنّ السوريين لم يكونوا ليتركونا على الأرضية، لكنهم يعرفون أنّ جيش بشار كثيراً ما ينتظر وصول النجدة ليقصف من جديدٍ ويقتل مسعفي الجرحى، مدنيين أو مقاتلين، من دون تمييز. كل ثانيةٍ لها قيمة، لكنني لا أستطيع الرحيل من دونه. أصرخ باسمه. صرخةٌ عديمة الفائدة تماماً في هذه الفوضى المحيطة بنا. أحدّق بمدخل بنائنا. يشير صالح إلى السائق. علينا الرحيل. فوراً. وفي حين يدقّ صالح على سطح السيارة إشارةً إلى وجوب الرحيل، أرى أخيراً وليام يخرج من البيت، وحقيبته على ظهره. في بضع ثوانٍ، تمكّن من استعادة بعض أغراض ريمي، آخر الآثار التي لدينا منه. يدسّ نفسه في السيارة.

يقلع السائق بسرعة.

ـ 2 ـ

قبل خمسة أيام، الجمعة 17 شباط/ فبراير 2012

وصلنا أنا وويليام قبل قليل إلى بيروت. الوقت عصرٌ والطرقات محمّلةٌ بالغبار. عبر نافذة سيارة الأجرة، بين شتيمتين من سائقنا الذي يستمتع بنعت جميع السائقين الآخرين بأنهم حمير، أترك تلك المدينة المميزة تسكِرني. الشمس منخفضة، والألوان تنفجر. قبل بضعة أيام، كنت أسير تحت ثلج اسطنبول. واليوم، أستعيد بسرورٍ تلك المدينة، هذا الضجيج وتلك الحمية التي تعلّمت، بمرور السنوات، أن أحبّها.

بيروت هي المعبر الإلزامي لمراسلي الحرب في المنطقة. يأتون إليها لإغراق مخاوفهم في أحد بارات المدينة العديدة، ليسمعوا أم كلثوم، لينسوا أنفسهم وسط المصفّحات وبقايا آخر النزاعات. منذ عام 1975، مرّ لبنان بحروبٍ عديدة، واستُحدثت حدودٌ خفيةٌ في المدينة. بين حيٍّ وآخر، يتبدّل الجوّ تبدّلاً جذرياً، وكذا الألوان، بل وحتى اللغة. الحياة في كل مكان، صاخبة، جائعةٌ كما لو أنّ كل لحظةٍ هي اللحظة الأخيرة. أحياناً، تختلط الطوائف وتذوب حتى لا يبقى سوى بلد واحد. مع الزمن، تعلّم السكّان أن يرتابوا بالمباني الحكومية والجسور، الأهداف المفضّلة في عمليات القصف. لكنهم تعلّموا أيضاً أن يحتفلوا. احتفالٌ لا حدود له،

احتفالٌ من أجل النسيان. في الصباح الباكر، سنذهب للانضمام إلى جمهرة الساهرين الآتين لشراء «المنقوشة»، وهي شكلٌ من أشكال البيتزا بالبهارات، تؤكل على طول الكورنيش، مقابل البحر.

أثناء إحدى زياراتي الأولى، سألني والد أحد الأصدقاء عمّا إن كنت فهمت السياسة في لبنان. هززت رأسي أفقياً، بسحنةٍ آسفة. فقهقه، ثمّ نظر إليّ بجدّيةٍ وقال: «لأنهم قد شرحوا لك جيداً»!

نعبر المدينة، التي لا تزال آثار الحروب ندوباً عليها. شرفاتٌ مقصوفة، جدرانٌ تحمل آثار الطلقات، كما لو أنّ المدافع والقنّاصين في استراحةٍ وحسب. كما لو أنّ كل شيءٍ يمكن أن يبدأ ثانيةً غداً. في غضون ثلاث دقائق وخمسة زمامير سيارة، ننزل شارع الأشرفية لنصل إلى مواجه مبنى شركة «فيرجن ميغاستور» الجديد تماماً. حيٌّ حديث، «ديزني لاند» السائحين الأجانب والمستثمرين السعوديين.

تنزلنا سيارة الأجرة أمام بارٍ حديث، في حي الحمرا، معقل البرجوازية التي تتبع الموضة. الشوارع صاخبة، صفيقة. في غضون وقتٍ قصير، أصبح الحيّ كوسموبوليتانياً، مانهاتن صغيرة، استثناءً في لبنان. يتجاور فيه الطلاب والصحافيون والفنانون والمثقفون، أياً كانت طائفتهم. يكفي أن تكون على الموضة، فالحمرا تُجمل الميول كلّها.

تحت دفء شمس الشتاء، التوتّر كامن. لا أحد يذكر ما يجري في البلد المجاور، آخر أعمال العنف في دمشق. علامةٌ وحيدةٌ على الاضطراب: هذا الصباح، رمت مجموعةٌ من المجهولين ملوّناً أحمر في النهر الذي يعبر بيروت. ولا نستطيع أن نرى في ذلك سوى شجباً للجرائم المرتكبة ضدّ المدنيين في سورية. لكن على الرغم من الدم السوري الذي يسيل في الجوار، يمثّل شارع الحمرا دور الصفاقة.

لا أعرف هذا البار الذي ضرب لنا ريمي فيه موعداً. إنه ممتلئٌ عن آخره ومفعمٌ بالدخان. لم تبلغ الساعة السابعة مساءً بعدُ والصالة الأولى ممتلئة. وصلنا مبكّرين، ولم يصل ريمي بعد. يجد ويليام طاولةً صغيرةً منزويةً نوعاً ما. أُخرِج علبة تبغي. متعة فرنسية في أن تتمكّن من حرق بعض اللفافات وسط بارٍ ممتلئٍ عن آخره. روّاد البار شبابٌ فرحون ولامبالون. يشربون الجعة أو الكوكتيلات في أكوابٍ أنيقة، يضحكون بصوتٍ مرتفع. الخفّة ظاهريةٌ فقط، مذهب المتعة معلن، لكنّ الجميع يدركون أن كل يومٍ يمكن أن يكون آخر يوم. مفارقة مدينةٍ تُقصف باستمرارٍ وتتخصّص في وضع باراتها على أسطحها، وكأنها تمدّ اللسان لطائرات العدو.

بانتظار ريمي، أتوقّف عند هؤلاء الروّاد البيروتيين العجيبين. خلفنا، يمنح خمسة رجالٍ في الثلاثينيات من أعمارهم، ببزّاتٍ رسميةٍ، أنفسهم استراحةً حول بيرةٍ لدى خروجهم من المكتب. وعلى يميننا، طاولةٌ عليها أزواجٌ شابة، أكبرهم في العشرينيات، يلعبون الشدّة. تتلذّذ الشابات اللواتي يتبعن أحدث الأزياء الأوروبية بأكوابٍ هائلةٍ من المثلجات، لم تعد أيّ فرنسيةٍ تجرؤ على تناولها علناً. الشبّان بأصواتهم الجشّة والمرتفعة يتمازحون وهم يفقّشون الفستق الحلبي.

بعد بضع دقائق من وصولنا، وفي الموعد المحدّد تماماً، يدخل ريمي. شعرٌ مقصوصٌ قصيراً وعينان رائعتان زرقاوان، أزرق سماوي... عيناه، لم يكن أحدٌ يرى غيرهما. عذبٌ، هادئ، صموت، ليس ريمي من النوع الذي يسهل الاقتراب منه. المغامر في كامل روعته. مضت عدّة أيامٍ وهو ينتظر العودة إلى سورية. «وكيل السفر» الذي ينظّم عمليات العبور غير النظامية إلى سورية يمكن أن يعلن الرحيل في أي لحظة. هكذا تتمّ الأمور في معظم الأحيان. على كل حال، المرء ينتظر. وخلافاً لما يمكن اعتقاده، فإنّ مهنة المراسل ليست دائماً مهنة نشاط. معرفة الانتظار هي أساس المهنة.

تعلّمتُ الصبر في العراق. كنت قد ذهبتُ إلى هناك لأبدأ مسيرتي المهنيّة، بمفردي، في الميدان، ووجدت نفسي أنتظر.

أواخر آب/ أغسطس 2009. كان من المفترض أن ينسحب الجيش الأمريكي من المدن الكبيرة في البلد. ذهبتُ لأجري تحقيقاً حول تأهيل الجنود العراقيين، وأراقب هذا الانتقال للسلطة. بعد أن وصل الجيش الأمريكي في عام 2003 للإطاحة بصدّام حسين، تورّط في نزاعٍ مذهبيٍّ بين الشيعة، أصحاب الأغلبية، والسنّة، معسكر الرئيس المخلوع. كانت المجموعات المسلحة الهدفَ المنتظم للاعتداءات الانتحارية.

كان المطعم المواجه لمدخل المنطقة الخضراء، قاعدة الأمريكيين، مطفأ الأنوار. وبالفعل، لم تكن الدولة تقدّم الكهرباء أكثر من ثماني ساعاتٍ يومياً، وليس في كل الأيام. فكانت المتاجر التي ليس لديها مولّداتٌ خاصّةٌ بها تبقى مظلمة، وكان كل شيءٍ يبدو مغلقاً كما كانت الشوارع خاوية. لم يكن العراقيون يخرجون من خمولهم إلّا في آخر النهار، وقت تسوّق النساء، وقت نزهات العشّاق على ضفاف دجلة، ونقاشات الرجال حول كؤوس الشاي في الأماكن الكبيرة في المدينة. الهدوء الذي يسبق العاصفة.

في ذلك الصيف، كان التوتّر قد تصاعد بعد مقتل عدّة مئاتٍ من طلاب الشرطة والجنود. لا مجال للمقارنة مع سنوات الرعب في العامين 2006 و2007، حين كانت الاعتداءات يوميةً، وكانت كتائب القاعدة تسود شوارع بغداد، لكنّ موجة العنف الجديدة تلك كانت تحْيي ذكرياتٍ سيئة، لم تختفِ تماماً. كان السكّان المحلّيون قلقين، كما عبّر بعض السياسيين عن شكوكٍ بصدد قدرة قوات الأمن العراقية على العمل بمفردها ضدّ الاعتداءات.

كانت الحرارة تتجاوز الأربعين درجة، وكانت العباءة السوداء الطويلة التي أرتديها باستمرارٍ تلتصق بجلدي. لكنّ ذلك لم يكن الأمر الوحيد الذي يستثير أعصابي. كان التحقيق معقّداً لأنّ الاقتراب من العسكريين الأمريكيين والعراقيين لم يكن سهلاً. لم أكن أتوصّل إلى فهم لماذا يستغرق

كل شيءٍ كل ذلك الوقت لتنظيمه. في حين أنّ الإجابة كانت في واقع الحال حولي، في هذا الهدوء وتلك الحرارة: لم أكن قدّرت جيداً تبعات رمضان، حين يصوم المسلمون، الذي بدأ قبل بضعة أيامٍ فقط، وكانت الحياة شبه متوقّفة. خطأ مبتدئة. بذا، كان بحثي عن الشهادات التي لا يمكن العثور عليها أكثر تعقيداً.

إذاً، كنت أمضي ساعاتٍ طويلةً قبالة رجالٍ بشوارب، وبزيٍّ رسميٍّ أخضر اللون، يحيلونني من مكتبٍ إلى آخر. كنت أشرح طلبي، وألحّ. وأعاود الهجوم، وأعيد الشرح. ثمّ أبدأ مجدّداً أمام الموظّف المائة الذي يحيلونني إليه للتخلّص منّي.

لدى كل موعدٍ جديد مع مسؤول، كنت أقول في نفسي إنّ الأمر سيتحقّق هذه المرّة. إنني إن شاء الله[2] سأذهب لإجراء التحقيق.

كان هذا الانتظار الذي لا ينتهي يجعلني غبية. ففي البداية، كنت أجلس مستقيمةً على مقعدي، واثقةً بموقعي، بهذه الرغبة في القتال، في الذهاب إلى الميدان، في صنع موضوعي. ومع الساعات، وبعد أن يتقاذفوني من مكتبٍ إلى آخر، كان ظهري يتحدّب وجسدي يتراخى. كنت أبدّد وقتي.

حلمتُ أن أكون في قلب الحدث، وها أنا ذا منسيّةٌ في قاع وزارةٍ مغبرّة. لم تكن تلك تماماً الفكرة التي وضعتها لتحقيقي، أنا التي كنت متشوّقةً جداً للذهاب لملاقاة كل هؤلاء الناس الذين سأحكي حياتهم، كل تلك القصص التي سيكتشفها الناس عبري، كل تلك النزاعات التي ينبغي شرحها. ها أنا ذا مضطرّةٌ للتربيت على هاتفي المحمول، أمرّر أعصابي على لعبة السودوكو السوداء والبيضاء التي اكتشفتها في ركنٍ من أركان الجهاز.

مع السنوات والتحقيقات، فهمت أخيراً وقبلتُ واقع أنني سوف أمضي معظم وقتي، ليس في التسلّل بين الخطوط التي تفصل بين الأعداء، بل

2- بالعربية في النص الأصلي.

في الانتظار، دائماً وأبداً. انتظار المهرّب الجيد، ذاك الذي سيوصلك إلى برّ الأمان. انتظار الشاهد الجيد، ذاك الذي لن يضلّلك. انتظار المنسّق الجيد، ذاك الذي لديه أفضل الصلات ويستطيع أن يفتح لك الحدّ الأقصى من الأبواب في التحقيق، ويخرجك من مأزقٍ ما. انتظار أحوالٍ جوّيةٍ جيدة، منع التجوّل أو بالأحرى انتهائه. انتظار التمكّن من التحقّق من المعلومات، من مقاطعة المصادر. انتظار إتقان الموضوع قبل الانخراط المحموم في المقابلات.

محبوسةً كنت طيلة النهار في غرفة فندق، أشاهد أفلاماً تلو أخرى، أتصل بالمنسّق، أنظر أيضاً وأيضاً إلى خرائط المناطق التي ينبغي الذهاب إليها، العودة إلى النافذة، معاودة الاتصال بالمنسّق، مشاهدة فيلمٍ رأيته مئة مرة.

تحقيقاً بعد تحقيق، أتعلّم. أتعلّم الانتظار، لكن أيضاً الرحيل بسرعة، ما إن تنفتح ثغرة. توضيب الحقيبة في بضع دقائق، قائمة الأشياء التي لا يُستغنى عنها معلّقة على الدوام فوق مكتبي. باستماعي لزملائي، أتعلّم أيضاً أن أثق بنفسي، أن ألتقط موضوعاً جيداً. القصص التي تبدو اعتيادية، ليس بالضرورة تلك التي تبيع أكثر من غيرها، بل تلك التي تجد لها صدىً في نفسي، التي تمسّني وتجعلني أرى رؤيةً أخرى، جانباً آخر مجهولاً في قصة، في نزاع، في منطقة.

هذا هو الانتظار المؤلم الذي كان ريمي يعانيه منذ عدّة أيام. لذا، وبالضرورة، كان وصولنا عيداً. يحكي ويليام وريمي عن آخر مغامراتهما. أنا أراقبهما مبتسمةً. كلاهما لديهما تلك العذوبة. حتى ذلك الحين، كنت فقط صادفتُ ريمي، في تحقيقٍ أو عند أصدقاء مشتركين. في تلك الأمسية، ومع احتسائنا زجاجات الجعة، نحكي بعضنا لبعض عن حياتنا، عن رغباتنا، عن أحلامنا، عن آمالنا. يتشكّل لديّ انطباعٌ بأنّ عينيه،

بزرقتهما العميقة والفاتحة جداً، تغطسان في داخلي لاستخراج أفضل ما فيه. هدوؤه يؤثر بي. وكذلك ابتسامته. إنه يبثّ قوّةً لا تصدَّق، سخاءً محموماً. وهذه اللمحة الساخرة، هذه القدرة على الضحك من نفسه، من تلك التنغيمات من لهجة منطقة لورين التي يتركها تفلت منه كي يُضحكني. يتحدّث لنا أيضاً عن حبّه العارم لرفيقته، إيميلي، عن رغبته في أن يقوم دائماً بالأفضل، في مهنته وفي حياته.

حتى وقتٍ متأخرٍ ليلاً، كأساً بعد كأس، نتحدّث عن التحقيقات، عن الصور التي سنتمكّن من التقاطها. تصميمه يهدّئ روعي، يوقف روعي، المخاوف الحتمية التي نتظاهر جميعاً بأنها لا تنتابنا.

في اليوم التالي، نلتقي قرب الظهيرة للقيام بآخر المشتريات. ريمي يحتاج إلى جوارب، إلى غلافٍ لهاتفه المحمول وإلى بعض الأشياء الصغيرة الأخرى. صديقنا اللبناني نصري يقوم بدور الدليل. يذهب ريمي لسحب المال من الموزّع الآلي ليدفع أجرة المهرّب. يعود غاضباً: «هم لا يعطون دولارات. أيّ بلدٍ هذا؟» فيقهقه نصري، ويرفع يده مشيراً إلى اسم المصرف: البنك الإسلامي. بالضرورة ليس لديهم دولارات. رحيل ريمي محدّدٌ فجر اليوم التالي. يحتضننا ويعود إلى الفندق لتحضير نفسه.

رحل صباح الأحد، وغادرنا المدينة في اليوم التالي. الوجهة عينها: حمص، حي بابا عمرو. حمص معقل التمرّد، يقصفها الجيش النظامي من دون توقّف. لقد حاصر الجيش الموالي لبشار الأسد هذه المدينة. أقام أحد عشر حاجزاً لمراقبة عمليات الدخول والخروج. حي بابا عمرو محاصرٌ بالدبابات وهو يتعرّض باستمرارٍ لنيران المدفعية. معظم الناس هربوا من بيوتهم. ويختبئ الباقون في الأقبية. الشروط الصحية والإنسانية كارثية.

تدفع حمص غالياً ثمن ارتباطها المحموم بالثورة السورية، وقد أصبح

القمع فيها أكثر شراسةً منذ الرابع من شباط/ فبراير. المدينة التي نذهب إليها ثالث أكبر مدينةٍ في البلاد من حيث حجمها، وهي من أوائل المدن التي انضمت إلى الحركة الاحتجاجية في آذار/ مارس 2011. وهي اليوم أحد معاقل الجيش السوري الحر.

حمص وضواحيها تزوّد تقليدياً الجيش السوري بالجنود. وتقدّم كبرى عائلات المنطقة أبناءها لقوات النظام. لكن على مدى الثورة، تغلّب انتماء الجنود العشائري على الولاء للسلطة المركزية، وانتقل بعضهم إلى جانب المتظاهرين. وانضمّ مدنيون كثرٌ إلى صفوف الجيش الحر.

فاقمت التوترات الطائفية الموجودة في حمص، والتي غذّتها السلطة وتلاعبت بها، شعور السكّان بالإحباط تجاه السلطة. فمنذ الانقلاب الذي قام به حافظ الأسد في عام 1970، انتقلت أعدادٌ كبيرةٌ من أفراد الطائفة العلوية، التي تنتمي إليها عائلته، إلى حمص، وهي مدينةٌ كانت أصلاً ذات أغلبيةٍ سنّية.

لطالما حابى النظام العلويين، في الحصول على عملٍ في الوظائف الحكومية مثلاً. القطاع العام، الدفاع، المخابرات: هم موعودون بكلّ المراكز الرئيسية في جهاز الدولة عبر العصبية الجديدة، عشيرة السلطة. ولأن السكان رأوا في ذلك الفارق في المعاملة ظلماً، فقد عزّز ذلك عزم المتظاهرين.

في حال انقسمت البلاد، تستطيع الطائفة العلوية أن تنطوي على نفسها في منطقة اللاذقية. حين قسمت فرنسا البلاد في عام 1920، أسّست في تلك الفترة دولة العلويين في تلك المنطقة الساحلية.

نحن نعلم أين نضع أقدامنا. لكننا نتصرّف وكأنه لا يوجد شيء، كما لو أننا لا نسمع القنابل وهي تدوّي. نمزح، نلعب لنتحايل على الموت. لأنّ

الذهاب إلى هناك ضرورة. لأنّ الصحافة لا تغطّي النزاع كما يجب. لأنه ينبغي نقل ما يجري هناك. لأنّ تلك هي مهنتنا.

طبعاً، نخاف، ندرك الأخطار، لكنّ الرغبة في الفهم، في رؤيةٍ أقرب للحرب، بأشنع ما فيها، أقوى.

ـ 3 ـ

22 شباط/ فبراير 2012

تسرع السيارة في بابا عمرو. كل ما في تلك الأزقة أسى وغبارٌ وحطام. تختلط بقايا المنازل المهدمة بالسيارات المحترقة. أعمدة الكهرباء تملأ الأرض، تختلط الأسلاك الكهربائية بأجسام الحيوانات الميتة. يجاهد السائق للمرور بين أكوام الكتل الإسمنتية التي سقطت من الأبنية، والتي تملأ الأرصفة. السماء والأبنية تختلط، كل شيءٍ رمادي، مغطّى بتلك الطبقة السميكة من الغبار أو الإسمنت نفسها. يتراءى لي أنني أعبر شبح مدينةٍ هجرها سكّانها وتخلّوا عنها. لا أثر لأيّ كائنٍ بشري. ما من روحٍ حيّة.

لدى وصولنا في اليوم السابق، كان الليل يخفي كل جروح الحرب والقصف.

ثلاثة كيلومتراتٍ في نفقٍ لصرف المياه لا يتجاوز ارتفاعه 1.6 متراً وعرضه متر واحد. ساعتان لا تُحتملان، الظهر مقوّس، القدمان في الماء والوحل، وحرارةٌ خانقة. الجدران الحجرية خشنة الملمس، والماء يتسرّب من الجدران، وشيءٌ من الطحالب في بعض الأماكن. أتكبّد عناء كل خطوة، ودائماً على حدود الانفجار، وأنا أضبط رُهاب الأماكن المغلقة المتزايد مع

توغّلنا في تلك الأنابيب المعتمة واللزجة. كان الشباب يسيرون في المقدّمة وهم محمّلون بمعدّاتنا كالبغال. وكنت ألحق بهم، رافضةً التحدّث، مركّزةً على حذائي الرياضي الجديد وتنفّسي. لم يكن بوسعي أن أستسلم وأعود أدراجي. أبداً وبالمطلق. كان شرفي كفتاةٍ في الميزان.

لذلك، وكي أضع مخاوفي جانباً، أخذت أفكّر في كل تلك الأنفاق التي كان السكان المحاصرون يستخدمونها للبقاء على قيد الحياة، كالسجناء. تبنى المدينة المحاصرة مثل «سجنٍ مديني»، يُسجَن المعارضون فيها في بيتهم، في شارعهم، في حيّهم. ينظّمون أنفسهم لكسر ذلك الحصار المفروض عليهم. وغالباً ما تتشكّل هذه المقاومة تحت الأرض.

كما هي الحال في غزّة، حيث حُوّلت مئات الأنفاق الأرض إلى ما يشبه الجبن المليء بالثقوب، أو في سراييفو أثناء حصار المدينة، تتنفّس المنطقة المتمرّدة المحاصَرة في حمص عبر هذا الوريد. إنها تسحب بعض دفقات الهواء النظيف بين قصفين اثنين، تملأ رئتيها لتتمكّن من الصمود بضعة أيامٍ أخرى. حتى ماذا؟ حتى لا يعود الجيش الحرّ قادراً على صدّ قوّات النظام. الحصار يدوم منذ وقتٍ طويل، والأمل يتضاءل مع تضاؤل احتياطيات المضادات الحيوية والطحين. أو حتى فتح معبرٍ جديد. نفق الفرصة الأخيرة، لا تعرفه قوّات بشار الأسد، يسمح للمدينة بألّا تختنق.

داخل النفق، كنت أعدّ الثواني وأركّز بخاصةٍ كي لا أركّز على شيء. فقط على قدمي اليمنى ثمّ على قدمي اليسرى ومجدّداً على قدمي اليمنى. كل توقّفٍ تحت أنبوب تنفّسٍ كان يسمح لنا بالانتصاب قبل أن نضطر لمزيدٍ من الانحناء، إذ كان النفق يضيق. بعض التمارين الرياضية لاستعادة قدرة الجسد على الحركة. الرغبة في حرق لفافة تبغ، كان ذلك سيهدّئني. لكن لم يكن هنالك أيّ تهوية، وكان الدخان سيركد ويزيد في تعقيد مسيرة من سيأتون بعدنا. علاوةً على ذلك، لم يكن لدينا وقت، كان ينبغي التقدّم، المضيّ إلى النهاية.

المخرج أخيراً، أنبوبٌ جديد، سلّمٌ رفيعٌ من الحديد الصدئ، مثبّتٌ تثبيتاً قوياً إلى الحائط. عشرون قضيباً قبل استعادة السماء المليئة بالنجوم، وبردٌ شديد، ينخر العظام. في صمتٍ مطبق، مشينا إلى سيارةٍ رباعية الدفع كانت تنتظرنا على بعد بضعة أمتار، قرب دغلٍ صغيرٍ من الأشجار ومنزلٍ متداعٍ، وسط الحقول. أصبح بوسعنا إعادة الأضواء الرأسية التي كنا قد وضعناها على رؤوسنا إلى مكانها. أول رؤيةٍ لبابا عمرو تحت ضوءٍ مائلٍ إلى الزرقة كان يخفي ما تسببت به الحرب من أضرار. وفي البعيد، كنا نسمع دويّ إطلاق القذائف.

في حمص، لا تنتصب جدرانٌ بل مراكز تفتيشٍ تابعةٌ للجيش، لا تقل فعاليةً عن الأسلاك الشائكة. بعد أن أصبح السكان محاصرين، جائعين، مجرّدين من الموارد الداخلية ـ كل ما كان يحتويه الحيّ دُمّر أو استنفد، لم يعودوا يستطيعون الاعتماد إلّا على تضامن من هم في الجانب الآخر من النقطة العسكرية. كل يوم، يسلك رجالٌ نفق الماء القديم هذا، ليحملوا، غالباً على ظهورهم أو بمساعدة دراجاتٍ ناريةٍ صغيرة، الأغذية والأدوية. كل يوم، يخاطرون بحياتهم، وفي يدهم سلاح، كي لا تموت عائلاتٌ جوعاً. عبر النفق يمرّ أيضاً تموين الوقود والسلاح والسجائر. وخلافاً لمناطق الحرب الأخرى، ليس في حمص سوقٌ سوداء، ليس فيها أسعارٌ باهظة ولا مضاربة على السلع النادرة. أصبح كل شيءٍ نادراً. كما أنّ الأسعار قد اختفت تقريباً، ومعها مفهوم المال. كلٌّ يقدّم ما يستطيع تقديمه، ما لديه، ويتمّ التأكد من أنّ الجميع لديهم ما يأكلونه، ومكان ينامون فيه...

كل الرحلة مؤطّرةٌ بجنودٍ من الجيش الحر. لقد تكفّلوا بنا فور عبورنا الحدود اللبنانية، فمرّرونا من يدٍ إلى يد، مع المواد الغذائية والأسلحة والأدوية التي كانوا ينقلونها إلى الحيّ المحاصر. قبل بضع ساعات، ولدى اقترابنا من الحدود السورية، قمنا بأول الحركات التي تشير إلى أننا حقاً

في منطقةٍ معادية. أخرجنا هواتفنا المحمولة وأطفأناها واستخرجنا منها البطاقات والبطاريات. ومن أجل مزيدٍ من الأمن، فصلنا القطع: البطارية في جيب، البطاقة في جيبٍ آخر، والهاتف أسفل الحقيبة. إجراءات الأمن هذه ضروريةٌ للمرور من دون لفت النظر. كي لا يتمّ التقاطنا وتوقيفنا على يد النظام السوري.

الحدود السورية نفوذة. في رحلتي الأولى، دخلت إلى سورية عن طريق تركيا. يستقبل ذلك البلد مئات الآلاف من اللاجئين في مخيّماتٍ أقيمت على الحدود بين البلدين. صفوفٌ من الخيام البيضاء التي وضع عليها شعار الهلال الأحمر التركي حيث تتكدّس عائلاتٌ حائرة، يلعب أطفالها في الأزقة الترابية. شروط الحياة صعبة، لا مدارس، قليل من الأطباء والماء والغذاء. تعدّهم تركيا ضيوفاً ولا تمنحهم صفة اللاجئين. هم محتجزون هناك، مجرّدين من إمكانية الاستقرار وإعادة بناء حياتهم. ينتظرون السلام والعودة إلى وطنهم، إلى منطقتهم، إلى قريتهم، إلى أسرتهم، إلى بيتهم أو ما تبقى منه.

تعَدّ مقاطعة هاتاي التركية (إسكندرون) المجاورة للحدود قاعدةً خلفيةً للجيش السوري الحر. إلى الشرق قليلاً، الحدود مع العراق إحدى الوجهات الأولى للمنتجات السورية في العالم العربي. تعبر عشرات الشاحنات من هناك، محمّلةً بالخضار والفواكه والأجهزة المنزلية. ومن هناك تمرّ الآن معظم الأسلحة.

جنوباً، الحدود اللبنانية أساسيةٌ لسكان حمص ومنطقتها. هم يهربون إليها جماعياً منذ تصاعد القصف على المدنيين. يستقبل مشفى طرابلس عدداً كبيراً من الجرحى السوريين، لكنه متخمٌ والوضع في المدينة متوترٌ بين الموالين لبشار الأسد والمعارضين له. وقد قضى عدّة أشخاصٍ نحبهم في مواجهات.

الآن، يوضح نور الصباح الشاحب الحقيقةَ، ويكشف مشهد الموت. عبر زجاج السيارة المتسخ، حيث أسلّط نظري، الفوضى تعمّ المكان.

يشوّه الخوف والألم نظرتي. يتراءى لي أنّ السماء منخفضة، رمادية، فارغة. الطقس باردٌ بيد أني لا أشعر بشيء. أنا التي أبرد بسرعةٍ عادةً، أشعر وكأنني مخدّرة. أنظر، من دون أن أفلح في تحويل أنظاري، إلى ساقي الهائلة، المنتفخة بسبب الكسر. مع هذا السؤال الغريب والمضحك: لو أنّ بنطال الجينز الذي أرتديه كان أكثر ضيقاً، هل كان سيمنع ساقي من الانتفاخ؟ فكرةٌ سيطرت عليّ، ربما لتمنعني من التفكير في شيءٍ آخر، في النزيف، الموت، ريمي، ماري. لا أفلح في تحويل أنظاري عن الدم الذي يسيل، بخيوطٍ رفيعة، على بنطالي وينتشر على مقعد السيارة الرمادي المخملي.

السيارة تطلق زمورها، تنحرف بعنفٍ إلى اليمين. أتمسّك قدر المستطاع. ندخل زقاقاً أضيق من الأزقة السابقة. يتوقف نظري على حبل غسيلٍ معلّقٍ على نافذة. مجرّد حبلٍ مربوطٍ بين نافذتين، عُلّق عليه بنطالٌ أسود وقميصٌ أخضر. هل تعيش هنا عائلةٌ حتى الآن؟ يبدو ذلك مستحيلاً. في الشوارع، ليس هنالك أيّ وجود، أيّ أحد، أيّ ظل.

في هذه الأثناء، واصل السائق سباقه ـ ملاحقته لعدوٍّ خفيّ. من برج الساعة في مركز المدينة، يراقب قنّاصةٌ المدينةَ ولا ينتظرون إلّا علامةً على الحياة ليطلقوا النار. ينبغي اختيار المسار بدقّةٍ لتجنّبهم، للعودة بسلامة.

تتوقف السيارة فجأةً وسط شارع، أمام مبنى حديثٍ ونصف مهدّم. طابقان مهدمان من الإسمنت، بتدرّجات الرمادي. يطلق السائق الزمور مجدداً ثلاث مرّات.

بعد بضع ثوانٍ فقط، يخرج ثلاثة رجالٍ بقمصانٍ بيضاء راكضين. ينتزعني رجلان قصيران لهما شاربٌ من مقعدي. قرب الباب، تنتظرني

نقّالةٌ متعبة. ما إن أتمدد حتى يدفعوني أمامهم. في الداخل، علم الهلال الأحمر العربي السوري. نحن إذاً في مشفى، سريّ بالتأكيد، لكنه مشفى على كل حال.

وضعوني في غرفةٍ داخليةٍ صغيرة لا شبابيك فيها وجدرانها بيضاء. مقابلي، كان هنالك ثلاثة أطفالٍ ممدّدين. تبدو أسرّتهم كبيرةً عليهم كثيراً. متقوقعين على أنفسهم، مرعوبين. لا يصدرون أيّ صوتٍ ولا يتحرّكون تقريباً. هم إخوة، ضحايا القصف الذي طال منزلهم في الوقت عينه الذي طالنا. توفي أبواهم. نظراتهم ضائعةٌ في الخواء.

إنها ليست المرّة الأولى التي أصادف فيها أطفالاً من ضحايا الحرب. وفي كل مرّة، كنت ألاحظ أنهم يحتفظون في داخلهم، حتى بعد عشرين سنة، بالقلق عينه والمخاوف عينها والحقد عينه تجاه عدوّهم القديم. لقد بنوا من دون أن يدركوا ذلك جدراناً داخل أنفسهم ليحتموا.

وبينما لا أتمكن من الانفصال عنهم، ينزع عني الأطباء ملابسي. أحدهم يمزّق بنطالي من الأعلى إلى الأسفل ثمّ يمزّق الجورب الدافئ الذي كنت ألبسه تحته. بعد ذلك، يلتفت إلى قميصي الذي لا يزال غبار القذيفة يغطيه. أجفل. «قميصي لا!» إنها أول مرّةٍ أدفع مالاً لشراء قميصٍ يحتفظ بالحرارة ويخرج التعرّق وفيه جيوبٌ عديدة. سترة صحافيٌّ حقيقية. لكن مقاومتي لا وزن لها مقابل تصميم الأطباء. أتخلى عن قميصي لمقصّاتهم.

حولي، تنشط ممرّضاتٌ يمزّقن ملابس تُظهر جروح رجال ونساء على نقّالات.

يقترب رجلٌ طويلٌ بعينين زرقاوين، يغطّي قناعٌ وجهه. ينقل حسّان جهازاً للتصوير الشعاعي، يأخذ صورتين شعاعيتين لساقي من دون أن ينبس ببنت شفة. يعود بعد بضع دقائق والضيق بادٍ عليه، مقطّب الحاجبين،

ويعطي الصور للطبيب الذي يناديه باسم أحمد. هنا لا شاشة مضيئة لتعليق الصور الشعاعية، فيبتعد الدكتور أحمد قليلاً ويرفع ذراعه أمام مصباح نيون طويل. يبدو كسران عميقان على الورق الشفاف.

أصرخ رعباً وألماً. لا يتوقف ويليام، الذي بقي معي، عن التحدّث إليّ، يحاول أن يهدّئني. أهمّ شيءٍ ألّا أستسلم لليأس، ألّا أتخلّى. يكرّر لي أنه سيخرجني من هناك، أنّ عليّ ألّا أقلق. أختار تصديقه. لكن يصعب عليّ كبت دموعي.

الدم يسيل، وكذا الوقت، نحن نبقى هنا، طيلة دقائق طويلة. وكما يجري في اللحظة الخاطفة لحدوث حادث سيارة، تنساب حياتي بهدوءٍ أمام عيني. أفكر في كل الناس الذين صادفتهم، أولئك الذين أحببتهم، أولئك الذين لم تصلني أخبارٌ منهم منذ وقتٍ طويل، أولئك الذين لم أقل لهم بما يكفي إنني أحبهم. أشعر بألمٍ شديدٍ وبأنني بعيدةٌ جداً.

يأتي رجالٌ آخرون يرتدون قمصاناً بيضاء ليساعدوا أحمد. تروح نظراته وتجيء بيني وبين زملائه، في حركةٍ لا تنتهي. يصدر الحكم: «إجراء الجراحة مستحيلٌ هنا. ليست لدينا المعدّات اللازمة. إصابتك شديدة، ينبغي إخلاؤك بأسرع وقتٍ ممكن إلى لبنان».

تهدّئ إبرة مورفين دماغي الذي يغلي، في حين يقوم أحد الأطباء بخياطة جروحي. ثلاثة ثقوبٍ كبيرة على الجانب الأيسر من ساقي المكسورة. الساق الأخرى سليمة، باستثناء بعض الجروح الكبيرة والكدمات.

يصل جرحى آخرون، ينبغي الاهتمام بهم. لا يستطيعون فعل شيءٍ إضافيٍّ لي. ينقل الأطباء نقّالتي إلى حجرة الدخول. بول هنا. يجلس على أحد الأسرّة، بنطاله الممزّق على طوله يُظهر تحته ضماداً هائلاً على الفخذ. جروحٌ سطحية، يقول لي الأطباء. بول يبدو هادئاً، رائقاً. ها نحن

الثلاثة نلتقي في هذه الحجرة الغريبة ذات الستائر الثقيلة البنفسجية. تحتل وسطَ الحجرة ثريّا زجاجية غير ملائمة، شرقيةٌ جداً.

الثواني الأولى من الهدوء منذ الانفجار، قبل ساعةٍ فقط. وحتى الآن لم يصل خبرٌ عن خافيير. يبدو وكأنه قد تبخّر. لا أحد يستطيع أن يقول إن كان قد رآه، حيّاً أو... ميتاً.

يدخل الحجرة رجلٌ قصيرٌ أسمر، يرتدي سترةً جلديةً سوداء كبيرةً عليه، وفي يده كاميرا. يبدأ في تصويرنا. يستدير بول نحو الحائط. أنا أخفي وجهي. يتوتر ويليام ويطرده خارجاً. نحن نعلم أهمية الفيديو بالنسبة إلى المتمرّدين السوريين، الذين حلّوا محل وسائل الإعلام الغائبة عن منطقة الحرب هذه. الفيديوهات تشهد من أجل العالم، لكنها أيضاً تفيد في حفظ ذاكرة جميع من سقطوا شهداء. لكنّ الاقتحام عنيفٌ جداً، مبكرٌ جداً.

أين خافيير؟ يكرر ويليام ذهابه وإيابه بيني وبين بول. وفي حين لم نعد نأمل، يدخل خافيير مسرعاً إلى الحجرة، لاهثاً. وصوله أكثر من ارتياح. إنه دفقةٌ من الأمل.

بعد بضع لحظات، يدوّي انفجارٌ ضخم قرب المبنى. تنفجر القذيفة في مدخل المشفى. يحاول العاملون أن يحموا المرضى قدر المستطاع من سحابة الغبار التي أثارها الانفجار، محيطين النوافذ بوسائد لتجنّب أن تطير قطع الزجاج في كل أرجاء الحجرة.

لبضع ثوانٍ، يتجمّد كل شيءٍ في صمتٍ مطبق. ثمّ ينهض الأطباء والممرضات، ويستأنفون عملهم من حيث توقفوا.

بعد أن انتهى الأطباء من تقديم الإسعافات الأولية، وبسبب اقتناعهم بأنّ قصف المركز الصحفي ليس مصادفةً وبأنّ حياتنا مستهدفة، يقرّرون

إخفاءنا في بيتٍ قريب، أكثر بيوت الحيّ أماناً. ويجعل العاملون الطبيون مكان مخبئنا سراً.

أثناء خروجنا ممّا يطلق عليه السوريون تسمية المشفى الميداني، تصل سيارةٌ تطلق زمورها. يهرع الجميع ليخرجوا منها طفلين مدمّيين. تهدّم جزءٌ من منزلهما بسبب قنبلة. هم يحتاجون إلى رعاية عاجلة. ينهمك الأطباء لكن يسقط في أيديهم أمام الجروح البالغة. «ينبغي أن ينقلا بأسرع وقتٍ إلى مشفى حمص»، يصيح رجل. فيتساءل آخر بألم: «وكيف يمكن عبور حواجز قوات الأمن»؟ يقرر أن ينقلهما بسيارته الخاصة. «هم مجرّد أطفالٍ وينبغي أن نحاول العبور بهم. على كل حال، سوف يموتون إن لم نتمكن من العبور». تبتعد السيارة بأقصى سرعة.

مع ازدياد القصف، يزداد عدد القتلى في الحي. توفي عشرات الناس، وكثيرون غيرهم جُرحوا.

تواصل القذائف والصواريخ التساقط.

يومٌ مثل غيره في بابا عمرو.

ـ 4 ـ

22 شباط/ فبراير 2012، الساعة العاشرة صباحاً

في غضون بضع دقائق فقط، نصل إلى ملجئنا الجديد. بيتٌ صغيرٌ يقبع بين بنايتين. من المفترض أن يحمينا حائطٌ صغيرٌ من القذائف التي تُمطر. مظلّةٌ ضعيفةٌ في قلب العاصفة.

يُستخدَم البيت استراحةً لأطباء المشفى، فينامون فيه ويأكلون. أربعة جدرانٍ عارية وأرضيةٌ مكسوّةٌ بالسجاد بعيداً عن الصراخ والجرحى والدم والموت. ميناء سلامٍ ضئيل الحجم على بُعد بضعة أمتارٍ من أهوال الحرب. ليس بعيداً بما يكفي كي لا يُسمع زمور السيارات التي تُحضر جرحى جدداً. لدى هذه الإشارة التي يعرفها الجميع، يسارع الأطباء إلى الخارج، على أمل أن ينقذوا حياةً، مرّةً واحدةً فقط.

نافذةٌ كبيرةٌ مغلقةٌ بإحكام، بضع مرتبات، أريكةٌ، موقد نفطٍ صغير وسط الحجرة. بيتنا الجديد مريحٌ ومعتم. الكهرباء مقطوعةٌ منذ عدّة أيام. كل مداخل النور مغطّاةٌ بعنايةٍ بالقماش.

في اليوم الأول، تمضي الساعات بسرعة. تتوالى المشاعر من دون ملل، فكلّ دقيقةٍ مختلفة. مصعد المشاعر. أولاً، الألم، الجسدي، الذي يغزو

ساقي ورأسي، ويمضي من رأسي إلى قدميّ. حين كنت طفلةً، كانت عجوزٌ عدوانيةٌ تقول لي دائماً حين أؤلم نفسي إنه ينبغي عليّ أن أقرص نفسي في مكانٍ آخر، كي لا أشعر بالألم. بحجّة أنّ المرء لا يستطيع أن يشعر بالألم في عدّة أماكن معاً. وفي حين أنّ كل جزءٍ صغيرٍ من جسدي يحرقني، وأنّ الألم يخترقني من جزءٍ إلى آخر، أتذكّرها. أعرف اليوم أنها كانت مخطئة.

بعد الألم، يأتي الخوف، المتزايد قوّةً. القلق الشديد وأنا أسمع الانفجارات التي تزداد قرباً، وأنا أرى الدم يخترق ضماداتي.

ثمّ يهدأ الخوف، ينسلّ بعيداً ليحلّ محلّه الفرح، حظّي في أنني ما زلتُ على قيد الحياة، سعادة التنفّس، التدخين، رؤية أصدقائي إلى جانبي.

وأنا أنظر إليهم، أشعر بهم قريبين مني، أفكّر في الآخرين، في ريمي، وهو الذي لن يعود، في جسده الذي تركناه هناك. الحزن الذي لا ينتهي. حصاةٌ في قاع البطن، وأنا أفكّر في أولئك الذي ينتظرونهم. هل عرفوا؟ هل بدؤوا يبكونهم؟

لم يكن النهار قد انتصف بعدُ حين دخل شابٌّ بنيّ الشعر إلى الحجرة. يداه محمّلتان بصينيةٍ كبيرةٍ من التنك، وضعت عليها كؤوسٌ صغيرةٌ طويلةٌ وشفافةٌ وإبريق شايٍ معدني.

لم يتجاوز جليل 21 سنة من العمر، لكنه لا يزال يبدو طفلاً. بابتسامةٍ لا تفارق شفتيه، يشدّ كنزته ويمرّر يده بشعره البنيّ الكثيف. صارت تلك عرّةً لديه، مثل عرّة إعادة وضع النظارات التي تقع من أنفه في مكانها. ما إن تطرح عليه سؤالاً أو ما إن يأخذ في التفكير حتى تكون الحركة آليةً، بدايةً الشعر ثمّ النظارات. فور وصولنا، خصّصه الأطباء لنا. نهاراً وليلاً، سيعتني بنا. قبل الحرب، كان جليل يدرس الصيدلة. كان في السنة الثالثة في كلية الطب الشهيرة في حمص.

حمص شعارٌ للتمرّد السوري. فهي مدينةٌ عماليةٌ وشعبية، كما أنها

مركزٌ صناعيٌ واقتصادي. ويفسّر موقعها الجغرافي القريب من الحدود اللبنانية تفسيراً جزئياً أن تصبح مركزاً رئيسياً للتمرّد السوري. حمص هي أيضاً مقر جامعة البعث، التي تضم عدّة كليات، لذا نجد فيها كثيراً من الشباب المثقفين، المستعدّين للتمرّد ضد النظام القائم.

هذه ليست الثورة الأولى. ففي شباط/ فبراير 1982، كان الأب، حافظ الأسد، قد قمع دون أن يرفّ له جفنٌ محاولة الانتفاضة التي قام بها الإخوان المسلمون في حماة، شمال شرق البلاد[3]. بعد أربعة أسابيع من حصار المدينة، يقال إنّ عشرين ألف شخصٍ تقريباً قد قُتلوا. وتمّ اجتثاث فكرة معارضة النظام.

آنذاك، كان بشار الأسد في الثامنة عشرة من عمره، وكان يحضّر لنيل الشهادة الثانوية. كان لا يزال يبدو بعيداً عن دوائر السلطة. باستغراقه في دراسة كتبه، لم يكن يتمتع بالملامح المؤهّلة للمهمّة. كان من المفترض أن يرث العرشَ شقيقه الأكبر باسل. في 21 كانون الثاني 1994، توفي باسل بحادث سيارة، ووجب على بشار الأسد العودة بأسرع وقتٍ ممكن من لندن، وإيقاف دراسته في طب العيون ومتابعة تأهيلٍ عسكري مكثّف.

وحين توفي والده في عام 2000، كان أصغر من أن يستلم السلطة. لا يهمّ، ففي لمح البصر، تمّ تعديل الدستور وخُفّض الحد الأدنى لعمر الرئيس إلى 34 سنة، ما يعادل عمره بالضبط. أراد أن يكون قريباً من الناس وأن يغيّر القواعد. فالمنظومة كانت منهكةً، وكان هو يدرك ذلك جيداً.

انفتح بلده على الربيع، لكنه رفض. كل تنازلٍ ضعفٌ وكل إصلاحٍ تنازل.

لم يرَ بشار الأسد التمرّد يصعد. في آذار/ مارس 2011، وعد برفع حالة الطوارئ المفروضة منذ عام 1963، والسماح بالتعددية الحزبية، وإطلاق حرية الصحافة. وهي وعودٌ لم يفِ بها في عام 2000، فبقي الناس متشكّكين.

3- الصحيح وسط البلاد (م).

في مواجهة المظاهرات المتعاظمة، التجأ إلى آثار خطى أبيه وانساق إلى عبادة الشخصية. وحين سأله صحافيٌّ أجنبيٌّ عن معارضته للغرب، أجاب باستعارةٍ غريبة، عن الفارق بين جهاز كمبيوتر PC وجهاز ماكنتوش، بأنظمتهما غير المتوافقة. وقال إنه ينبغي استخدام نظامٍ لفكّ التشفير بين سورية، التي يمثّلها الماكنتوش، والغرب الذي يمثّله الـ PC.

إنها غمزةٌ لستيف جوبز، صاحب ماركة التفاحة، الذي وُلد في الولايات المتحدة لأبٍ سوري، أصله من حمص، تخلّى عنه حين كان طفلاً.

لم يكن هنالك ما يمكن أن يوحي بأنّ جليلاً سيصبح معارضاً للنظام. لم يكن أحدٌ في عائلته معارضاً وليس لديه هو ما يوحي بالتمرّد. لكنه شارك في المظاهرات ضد بشار، وهي مظاهراتٌ تلقائيةٌ يتمّ تنظيمها عبر الشبكات الاجتماعية. أُطلقت الرسالة على فيسبوك، الموعد يوم الجمعة في الساعة الواحدة بعد الظهر، بعد صلاة الظهر.

يتذكّر جليل المظاهرة الأولى في البلد. ففي 13 آذار/ مارس 2011 في درعا، المدينة التي يزيد عدد سكانها على 150 ألف نسمة والواقعة جنوبي البلاد، كتب تلاميذٌ على جدران مدرستهم شعاراتٍ مناهضة للنظام، استوحوها من شعارات ثورة 25 كانون الثاني/ يناير في مصر. قامت المخابرات بتوقيفهم وتعذيبهم. انتقل غضب أهاليهم ليصبح غضب المدينة، فتشكّلت مواكب امتدّت بعد ذلك إلى المناطق المجاورة. وألهب البلادَ عنفُ القمع البوليسي الذي قابل تلك المظاهرات، وعمليات الاعتقال، وأعمال التعذيب، وإطلاق الرصاص الحي على الجماهير. في يوم الجمعة 18 آذار/ مارس، تمّ في العاصمة دمشق وحلب وحمص وحماة إحياء «جمعة الكرامة». يوماً بعد يوم، جمعةً بعد جمعة، انتشرت المظاهرات في البلاد.

كان جليل يتظاهر مع رفاقه. كانوا جميعاً في العشرينيات من

أعمارهم، واعتقدوا أنّ مستقبلاً آخر ممكن. نظر بعضهم إلى بعض وهم غير مصدّقين حقاً بأنهم يستطيعون تحدّي النظام. وعلى الرغم من ذلك، فقد مضوا لدقائق طويلةٍ من حيٍّ إلى حيٍّ، وهم يغنّون ويرقصون على وقع «الشعب يريد إسقاط النظام».

كانوا جميعاً من الذكور، إذ كانت النساء يتظاهرن بمفردهن، من أجل مزيدٍ من الأمن خصوصاً.

في البداية، يحكي لي جليل، كان بمقدورهم أن يذرعوا المدينة كلها تقريباً، مباغتين الجيش. ثمّ، بسرعةٍ شديدة، تدهورت أحوال المظاهرات. أُغلقت الأحياء وحوصرت ساحة الساعة وأُغلقت الجامعة. أطلق الجيش النار على الحشد المجرّد من السلاح. رأى جليل زملاءه في الجامعة، شباباً بعمره، يسقطون برصاصةٍ في الرأس.

في كانون الثاني/ يناير، اختُزلت المظاهرات إلى تعبيرها الأبسط، بضعة رجالٍ يخرجون ويهتفون بشعاراتهم قبل أن يعودوا للاختباء فوراً. وفي حين غادر معظم السكان المدينة إلى الأرياف المجاورة، الأكثر أماناً، قرر جليل مع بعض أصدقائه البقاء ومواصلة النضال. كان صعباً عليه، بعد القمع الدامي، أن يتخيّل بقاء النظام في السلطة. ولأنه ليس إلّا طالباً يدرس الصيدلة، فقد التحق بالمشفى الميداني في الحي، لعلمه بأنّ الجرحى كثرٌ والوسائل معدومةٌ، وبأنّ كل الإرادات الطيبة مرحّبٌ بها.

منذ وصولنا وجليل لا يتركنا. في بضع ساعات، تمّ تنظيم الحياة. وضعني الأطباء على أريكةٍ صفراء كبيرة، تحت النافذة المسدودة مباشرةً. تقوم وساداتٌ كبيرةٌ بنّية اللون مقام المسند، وساقي مشدودةٌ بمنظومة ثقلٍ وشدٍّ محلّية الصنع نسبياً لتجنّب أن يؤذي عظم الظنبوب المكسور العصب الظنبوبي فأُصاب بالشلل. في آخر الأريكة، وعلى سبيل الثِّقل، هنالك ستة أكياس مصلٍ فيزيولوجي، يربطها خيطٌ قديمٌ بقطعة خشب.

فوق رأسي، قرب النافذة، ثبّت الأطباء ورقةً كُتبت عليها الأدوية

والجرعات. أحاول عبثاً فكّ رموزها، فهمَ ما يحقنونه لي عدّة مرّاتٍ في اليوم. في كل زيارةٍ لجليل، يرفع نظارته ويطالع الورقة المثبتة على الحائط. يقرأ الورقة ويعيد قراءتها، كما لو أنه يتأكد من أنه لا يخطئ، من أنه يقدّم العيار الصحيح، من أنه يعالجني كما ينبغي.

مقابلي، يستقرّ بول وخافيير وويليام على مرتبات. حالياً، نحن ممنوعون من مغادرة المبنى. لذلك، يكظم ويليام غيظه. هو يريد الذهاب بحثاً عن الأخبار، يريد الخروج، الاستعلام، إبلاغ المقرّبين منا.

يحتلّنا هاجسٌ واحد ـ علاوةً على الخروج من هنا ـ أن نفهم ما حدث لنا. نحاول أن نجمع معاً ذكرياتنا الضبابية عن لحظة الانفجار لتكوين رؤيةٍ أكثر شموليةً. يبدو أنّ صوت الانفجار قد أتى على ذاكرتنا. تتشكّل اللوحة شيئاً فشيئاً، بصعوبةٍ بالغة.

أثناء النهار، نحن السكان الوحيدون في البيت. حين يستمر الهدوء أكثر من بضع دقائق، يعبر الأطباء الشارع ركضاً للتأكد من وضعنا الصحي. وليستريحوا، لينـاموا قليلاً، ليغلقوا أعينهم لبضع دقائق على الأقل، ليبعدوا أفكارهم أيضاً عمّا هم فيه.

طيلة النهار، ومنذ أكثر من سنة، يشتغلون ويحاولون إنقاذ رجالٍ ونساءٍ وأطفال. جميعهم ضحايا الجيش السوري. منذ 3 شباط/ فبراير المنصرم، أصبح قمع النظام أشدّ. وُضعت مصفّحاتٌ على مداخل الحيّ الذي يتعرّض باستمرارٍ لإطلاق القذائف. السكان الفقراء، الذين لم يتمكّنوا من مغادرة الحي، أصبحوا حبيسي قنابل ماهر الأسد، الأخ الأصغر للرئيس السوري. ماهر ابن الرئيس الأسبق حافظ الأسد، وهو يترأس الحرس الجمهوري في سورية ويحمل سمعة مختلٍّ دموي.

في عائلة الأسد، ليس هنالك نقصٌ في السمعة السيئة. أو بالعكس،

في السمعة الخائبة. زوجته أسماء على سبيل المثال، تلك التي لقّبتها مجلة الأزياء فوغ «وردة الصحراء»، لجمالها ورونقها، كانت تعد العالم بفتح سورية على العالم. لكن أثناء الثورة والمجازر، تبدّى أنّ المرأة «التي لها مُعامِل ذكاء قاتلة» لا تتحسّس لمصير الشعب السوري. بل إنها خرجت في آذار/ مارس المنصرم وهي ترتدي قميصاً كُتب عليه «أحب بلدي». في الوقت عينه الذي كان حي بابا عمرو يسقط في يد النظام وآلاف السكان يهربون من بيوتهم.

لكن ليس هنالك ما هو بسيطٌ في عائلات الدكتاتوريين. كان العميد آصف شوكت، في الستينات من عمره، زوجاً لبشرى، أخت بشار الأسد التي تكبره سناً. قُتل في اعتداءٍ استهدف مكاتب الأمن في دمشق في 18 تموز/ يوليو 2012. في واقع الأمر، لم تتقبّل عشيرة الأسد هذا الرجل يوماً. ففي عام 1999، وفي خضمّ الصراعات على خلافة الأب، اندلع شجارٌ عنيفٌ مع ماهر الأسد. أصيب آصف شوكت بطلقةٍ في بطنه، وعولج سراً في فالدوغرا في باريس.

لدى عودته، أعاد صلته مع بشار الأسد الذي كان قد أصبح رئيساً وتسلّم قيادة جهاز المخابرات. بل إنّ اسمه مذكورٌ في اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري. غير أنّ صلاته مع البلدان الغربية أبعدته عن السلطة منذ أيلول/ سبتمبر، وخُفضت منزلته إلى منصب نائب وزير الدفاع. تلومه العشيرة بخاصّةٍ على صلاته مع فرنسا. ويقال إنه باع لوقتٍ طويلٍ معلوماتٍ لأجهزة الاستخبارات عن الجهاديين الموجودين على الأراضي السورية والمتوجّهين إلى العراق.

تبقى والدة بشار، أنيسة مخلوف التي لا تلفت النظر. لكن ينبغي عدم بخس سلطتها، بل إنّ عدداً من أعضاء عائلتها قد استفادوا منها. أشهرهم رامي مخلوف. هو ابن خال بشار، ويقال إنه يتحكّم بأكثر من 60 بالمئة من اقتصاد البلد، ما جعله يستحق لقب: «ملك سورية». هو يمتلك بخاصّةٍ

«سيرياتيل»، المشغّل الرئيسي للاتصالات الجوّالة في سورية، ما يسهّل مراقبة النظام للاتصالات.

إنّ الصلات مع طبقة رجال الأعمال القريبين من النظام هي تحديداً ما يشكّل اللمسة الشخصية لبشار الأسد مقارنةً بوالده. كما أنها هي ما يميّز فقدان اهتمامه التدريجي بمبادئ حزب البعث، أي الهدف الاشتراكي والوحدة العربية. وحده يبقى تصوّرٌ سلطويٌّ لدور الدولة في الاقتصاد.

حين وصل إلى السلطة، ورث سيطرةً كاملةً على البلد. ففي غضون ثلاثة عقود، أقام حافظ الأسد جهاز دولةٍ مغلقاً إلى أقصى حد. كان القمع السياسي لأيّ محاولةٍ للمعارضة كاملاً، إذ ينبغي ألّا يُسمع أيّ صوتٍ مخالف. عاش السكان في ظل كراهية المخابرات، وعناصر أجهزة الاستخبارات، الذين يتجسّسون على كل الأحاديث ويعتقلون ويخفون السجناء ويعذبونهم على نحوٍ روتيني.

كل السلطة في سورية مركّزةٌ في يد عشيرة الأسد، وعلى نحوٍ أوسع، تشارك فيها الطائفة العلوية التي يستند إليها النظام بقوّة. لكنّ البلد مشكالٌ حقيقيٌّ للمذاهب. اليوم، تتجاوز نسبة المسلمين 80 بالمئة من السكان، ثلاثة أرباعهم من السنّة. والباقون شيعةٌ وبالأخص علويون. لا يذهب العلويون إلى المسجد للصلاة، كما أنهم أصلاً غير مرغمين على الصلاة، وهم لا يحرمون أنفسهم من الكحول ولا ترتدي نساؤهم الحجاب. في الواقع، يعدّ العلويون فرعاً من الشيعة، وتعني كلمة «علوي» حرفياً مناصر علي.

منذ بداية الثورة، لعب بشار الأسد على طيف حرب الأديان، ونشر جواً من الرعب والتهديد. نسب لنفسه دور الضامن لبقاء المسيحيين والعلويين ـ الطائفة التي ينتمي إليها. العلويون رهائن. فعلى الرغم من أنهم لا يساندون جميعاً بشار الأسد، إلّا أنّ معارضيهم يلومونهم على نحوٍ صريحٍ أكثر فأكثر على الفظائع المرتكبة باسمهم. ومع تزايد عنف القمع ودمويته،

تتزايد المخاوف من أن تنتقم الأغلبية السنية حين تستلم السلطة. تلاعبٌ خطيرٌ، ويمكن حقاً أن يستثير حريقاً في المنطقة كلها.

في السنة الماضية، كان العالم العربي قد شهد تزايداً للتوترات المذهبية، حين خنقت العائلة الحاكمة السنّية في البحرين، بدعمٍ من القوات السعودية والإماراتية، حركة الاحتجاج التي قادتها الأغلبية الشيعية. واليوم، خطر الاحتراق كبير. في الحرب الأهلية السورية أيادٍ كثيرة. إيران أولاً، وهي شيعية، التي تقدّم كل دعمها للنظام. وفي الجهة المقابلة، المملكة العربية السعودية وقطر، أكثر نظامين وراثيين تصميماً على مواجهة النفوذ الإيراني، تدعمان المعارضين السوريين من دون مواربة. لا سيما أنّ السعوديين يتهمون بشار الأسد بالمسؤولية عن الاغتيال الذي طال في عام 2005 رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، الذي كان مقرّباً جداً منهم. وتقيم قطر علاقاتٍ حميمة مع الإخوان المسلمين السوريين، وهم مكوّنٌ مهمّ في معارضة النظام، هرب معظمهم من البلد بعد مجزرة حماة في عام 1982. تقيم قيادة هذا الحراك الإسلاموي في اسطنبول، عاصمة تركيا المجاورة. ومنها يحاولون إعادة تنشيط شبكة مناصريهم وأعضائهم. وهذا هو أصلاً السبب في أنّ المجلس الوطني السوري، أحد أعضاء المعارضة السياسية، يُتهم على نحوٍ متواترٍ بأنه الذراع المسلّح للإخوان المسلمين، ويخضع للنفوذ التركي. تخشاهم المعارضة العلمانية، وكذلك يخشاهم جزءٌ كبيرٌ من المجتمع الدولي، وهم يقدّمون أنفسهم بوصفهم حركةً سياسيةً معتدلةً تدافع عن الديمقراطية وترفض أيّ شكلٍ من أشكال المذهبية. وللبرهنة على حسن نيّتهم، اختاروا مرشّحاً مسيحياً لتمثيلهم في المجلس الوطني السوري. في سورية ما قبل الأسد، في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، كانوا بالفعل قد لعبوا لعبة الانتخابات التشريعية، وحازوا على مقاعد، بالتشارك مع تحالفاتٍ سياسيةٍ أخرى.

حين تسمح فترات الهدوء، يستقرّ الأطباء على وساداتٍ في عتمة غرفتنا. بعضهم لا يتكلمون، بل يبدو أنه ليس لديهم القوّة ليتكلّموا. بقمصانهم المبقّعة بالدم وأيديهم المتعبة، يبدون أكبر ممّا هم عليه حقيقةً. يلتصق التعب والرعب اليومي بوجوههم. في نظرهم، يعادل كل شهرٍ في هذا المشفى سنوات، وهم يرون توالي الجرحى غير القابلين للعلاج، بسبب فقدان الحدّ الحيوي الأدنى.

بعد بضعة أسئلةٍ روتينية عن وضعي، يحكون لي بالصوت نفسه، العذب والهادئ، عن حياتهم السابقة، عن بيتهم، أسرتهم، مهنتهم.

علي، المخدّر، يأتي كثيراً ليجلس إلى جانبي. يسرّح شعره بانتظام، كما لو أنه يريد تنظيفه من كل الأهوال التي رآها. يريني في خلفية هاتفه وجه رضيعٍ بين ذراعي شابة، أصغر أولاده وزوجته. لم يرهم منذ عدّة أشهر. هم في الريف، بعيداً عن هنا، بعيداً عن القصف والقتلى.

بعد بضع لحظاتٍ من الراحة، أو ما إن يدوّي صوت زمّور سيارة، حتى يذهب علي مسرعاً لاستقبال جرحى جدد، لن يتمكن بالتأكيد من إنقاذهم. لكنه سيبذل جهده، كما في كل ساعةٍ وكل يوم، مرّةً إثر أخرى.

يتقدّم النهار على إيقاع الانفجارات ولفائف التبغ المتتالية والشاي الساخن والمحلّى الذي يأتينا به جليل. هذا المشروب، الذي يكون عادةً شديد التحلية، يصبح أقل حلاوةً شيئاً فشيئاً. فالسكّر قليل، مثل كل ما تبقّى.

يبدو النهار في أواخره حين يحضر لنا جليل خبزاً ساخناً مع بديلٍ لجبن «لافاش كيري»، يرغمني ويليام على أكله. منذ الانفجار، أنفر أمام فكرة ابتلاع أيّ شيء. أحضر لنا جليل، كهديةٍ ثمينة، بعض قطع البسكويت،

وتمراً مغلفاً. مجرّد رؤية هذه العجينة السوداء تعيدني إلى السودان الجنوبي.

كان ذلك في حزيران/ يونيو 2011، وكان البلد يستعدّ للاحتفال باستقلاله، لكنّ التوتر مع الجار الشمالي كان ملموساً. مع المصوّر كورانتان فوهلن ومصوّر الفيديو جيروم كليمان ـ ويلتز، وصلت لإجراء تحقيقاتٍ عن تقسيم البلد. لم يكن هنالك شيءٌ بسيطٌ على الأرض. فالشمال، الذي يحكمه عمر البشير، كان قد أوقف أي تموينٍ بالنفط والغذاء. وكان البلد، وهو عبارةٌ عن أرضٍ خاليةٍ شاسعة لم تعرف إلّا الحرب والبؤس، يغرق في الفوضى. اتُّخذ قرار التقسيم، لكنّ أحداً لم يكن يعلم أين ستكون العاصمة، إذ إنّ الحدود كانت لا تزال غير واضحة. كان الجميع يبدون وكأنهم ينتظرون حرباً حتمية.

في الشوارع، كانت الحمير التي تجرّ عرباتٍ فارغةً تتجاور مع سيارات الدفع الرباعي الجديدة الخاصة بالمنظمات غير الحكومية. كان موسم الأمطار، والأرض كانت مغطاةً بوحلٍ أحمر لزج. كانت بعض البقاليات النادرة تتنافس على زبائن قلائل أتوا للتزوّد بالضروري الحيوي، الرز والبسكويت الصغير حين يتمكن التموين من المرور. لم يكن هنالك أيّ منتجٍ طازج، ولا لحوم، ولا مشتقات الحليب. في معظم الأحيان، لم تكن الدكاكين التي تقوم مقام المطاعم تستطيع تقديم الطعام بسبب نقص الغذاء. كانت الأسواق خاوية. يستحيل العثور على أيّ قطعة فاكهةٍ أو خضار.

في العاصمة، اشترينا كميةً كبيرةً من عجينة تمرٍ يسهل حملها. على كل حال، كان ذلك مصدرَنا الوحيد للطاقة، ذلك الكيس الذي يحتوي كميةً كبيرةً من السكّر والمثير للغثيان، لكنه «مليءٌ بالفيتامينات ومفيدٌ للصحة»، هكذا كنا نعزّي أنفسنا ونحن نحاول الإمساك بواحدةٍ من تلك الكرات السوداء، وأصابعنا دبقةٌ تماماً.

أنظر إلى الرزمة التي يمدّ بها بول لي وأبتسم. سآخذ قليلاً بدافعٍ من

الحنين، كأنها كعكة مادلين قدِمت من كتب «بروست». واحدةٌ من أسوأ ذكرياتي في التحقيقات. لكن، كما في كل مرّة، بعد بضعة أشهر، تصبح أوقات الجحيم تلك أخفّ وطأةً، فتنمحي وتحلّ محلّها الأوقات الطيبة، اللقاءات التي لا يمكن تصديقها، تلك اللحظات السحرية التي ينسى أثناءها المرء التحقيق ليعيش اللحظة. على الرغم من ذلك، ستبقى تلك التجربة في حوليات مسيرتي المهنية القصيرة كصحافية إحدى أكثر تجاربي فشلاً. عدتُ منها منهكةً وفاقدةً لبعض الوزن. بين شبه استحالة التنقّل ونقص التغذية والآثار الجانبية للأدوية المضادة للملاريا، كدنا أنا وكورنتان نتخلى عن المهمة عدّة مرّات. كنا نستسلم كلٌّ بدوره. ولا سيّما أنّ البلد لا يستثير الحماسة لدى رؤساء التحرير. كنا في ذروة قضية «دومينيك ستروس كان»، لذلك فإنّ السفالات الحربية الخاصّة ببلدٍ جديدٍ أنغلوفوني في أفريقيا...

وسط التحقيقات النادرة التي تمكّنا، بعد جهودٍ تفوق إمكانيات البشر، من إنجازها، التقينا لوكاس ويليام أتييل، وهو صحافيٌّ من راديو ميرايا، الإذاعة الخاصة في جنوب السودان بالشراكة مع الأمم المتحدة. الأمم المتحدة التي كانت قد أسّست برعاية مؤسسة هيروندیل قبل بضع سنواتٍ راديو أوكابي في الكونغو، بهدف محاولة تقديم المعلومات، بعيداً عن التجاذبات والتوترات الجماعاتية، مستخرجةً دروساً من الدور الحاسم الذي تلعبه الإذاعات، ولا سيما إذاعة ميل كولين التي أطلقت الإبادة الجماعية لجماعةٍ كاملةٍ في رواندا في عام 1994 عبر هجائها للهوتو.

في هذا البلد قيد التأسيس، كل شيءٍ ينبغي اكتسابه، ومن بين تلك التحديات، استقلال الصحافة. عدم نقل سموم السلطة، التحقّق من المعلومات، بناء موضوع، عدم التحيّز لقبيلةٍ على حساب أخرى... هذه إحدى اشتراطات راديو ميرايا، تقديم معلوماتٍ صحيحةٍ وموضوعية للناس الذين يعيشون في منطقة حرب.

كان صحافيون من جوبا، العاصمة، قد نصحوني بمقابلة لوكاس. قالوا إنه طويل، طويلٌ جداً. صحيحٌ أنّ لوكاس طويل. طويلٌ ونحيل. فهو ينتمي إلى إثنيةٍ من الصيادين، إلى قبيلةٍ لا تزال من الرحّل، قرب مالاكال. التقينا في أحد مقاهي المدينة، تحت مروحةٍ ضخمةٍ كانت تحاول أن تدفعنا لنسيان الحرارة الخانقة. أعجبني ذلك الرجل على الفور. لطيفٌ ونزيهٌ وخفيف الظل. لديه شغفٌ حقيقيٌّ بمهنته، الصحافة، وبوسيلته الإعلامية، الإذاعة.

مساءً، أمام بيته، حكى لنا، ونحن جالسون على مقاعد بلاستيكية، عن إغضابه أهمّ الوجهاء المحليين. كان يتعامل يومياً مع المشكلات الصغيرة التي كنا نشتكي منها منذ وصولنا. لا كهرباء اليوم للحاسوب، يذهب إلى مكانٍ آخر أو ينتظر بصبر. سوف تتعب مولّدة الكهرباء قبله. يذكّرني لوكاس بمروري بإذاعةٍ محلية. تطلّب الدقّة والصرامة المرتبطتين بقرب المستمع، صعوبة تجديد النفس من دون توقف...

يأتي جليل بانتظام ليحقنني بإبرةٍ ضد الألم أو ضد الالتهاب أو ضد ما لا أعرف ماذا... من دون هاتفٍ أو ساعة، هذه اللحظات المؤلمة هي التي ستنظم إيقاع أيامي.

أنا أكره الحقن في الحياة الطبيعية. حين كانت أمي، وهي ممرضة، تحاول أن تعطيني لقاحاً، كان ذلك يستغرق ساعاتٍ من المفاوضات والنقاشات. حين كنت صغيرة السنّ، كنت أصرخ بملء صوتي لدى رؤية أصغر محقنة. اليوم، ليس وارداً إصدار أي صرخة، أي تنهيدة. أصرّ على أسناني، أتظاهر بالقوّة حين يقترب جليل بمحقنته الطويلة. أدير رأسي وأثبّت نظري بلا مبالاةٍ بالشعلة المتأرجحة في مصباح النفط، وهو عبارةٌ عن أسطوانةٍ زجاجيةٍ طويلةٍ وقبضةٍ من الحديد. تضيع نظرتي في الدراسة الدقيقة لهذا المصباح اللعين. أحاول تجاهل تلك المحقنة الطويلة الباردة

التي سوف تنغرز بعد قليلٍ في ذراعي المليء بالبقع الزرقاء الصغيرة. أتظاهر باللامبالاة وأصرّ فكّيّ بقوّةٍ أكبر.

الحجرة تغرق في ظلامٍ دامس. لا بدّ أنّ الساعة قاربت منتصف الليل. توقفت الأصوات التي تصلنا من الخارج. وأصوات الرصاص أصبحت أكثر تباعداً.

منذ بضع ساعات، أتى إلى غرفتنا سوريون من الجيش الحرّ وبعض الناشطين من المركز الإعلامي. ذهبوا جميعاً الآن. ليتركونا ننام، نرتاح.

غير أنّ أياً منا لا يستطيع أن يغلق عينيه. نتظاهر جميعاً بأنّ كل شيءٍ على ما يرام، كما لو أنّ هذا الوضع مسألة ساعاتٍ فقط. طلب مني الأطباء أن أبقى مستريحةً ثماني وأربعين ساعة. وبعد ذلك، نستطيع الرحيل. مغادرة هذا البيت، هذا الحيّ المحاصَر، هذه المدينة التي تتعرّض للقصف، هذا البلد الذي لم يعد يعيش. طبعاً سنتمكن من الخروج والرحيل مثلما أتينا. وكيف يكون الأمر غير ذلك؟

ـ 5 ـ

الخميس 23 شباط/ فبراير 2012، الساعة الثامنة صباحاً

لم يغمض لي جفن طيلة الليل. لقد دخّنا حتى غطّت الغرفة هالةٌ من النيكوتين. في الخارج، ما إن بدأ نور الفجر ينبلج حتى عاد صوت القذائف الأصم والخفيض، المتساقطة على المدينة. أول سقوط. أشعر الأرض تتحرك، بهدوء، اهتزازٌ خفيف. هذه القذيفة سقطت بعيداً.

تنسلّ الدقائق بانشغالٍ واحد، الاستماع اليقظ للحرب القريبة جداً. التوقف المؤقت للقصف له وجهان. الارتياح والقلق. ثم القلق من استئناف هذا الصوت الأصمّ والمجتاح، والخوف من رؤية رفاقي يغادرون الغرفة.

ما إن يتوقف إطلاق المدافع حتى يهرع ويليام وخافيير إلى ما نطلق عليه بشيءٍ من السخرية تسمية «المركز الإعلامي»، لنواصل تقديم الانطباع لأنفسنا بأننا نمارس مهنتنا. إنهم يريدون إبلاغ منظمة «مراسلون بلا حدود»، التحدّث مع ممثّلي سفارات بلداننا، إعطاءهم موقعنا.

أبقى أنا وبول على مرتبتينا، مستاءين.

أجفل مع كل قصف. كلّما كان الانفجار قوياً، ارتجفت الأرض، بدت لي نهايتنا قريبة، اختبأت تحت غطائي. لا يبدي بول، على الطرف الآخر

من الحجرة، أيّ قلق، أيّ توترٍ في مواجهة الضربات المدفعية. لكن كيف يستطيع؟ كل انفجارٍ يجعل بطني يتلوّى وهو لا يتحرّك، يبقى ساكناً ومبتسماً على فراشه المتهالك.

أتى بول من ليفربول، ومن يسمعه لا يستطيع أن يخطئ تلك اللكنة المتميزة، الجشّاء، السخرية العمّالية. هذا الغُصين ذو الخطوط الحادة كان ضابطاً في الجيش الإنجليزي قبل أن يصبح مصوّراً. حياةٌ أخرى، لا تختلف كثيراً عن حياة مصوّر حرب. الحقل عينه، لكن على الجانب الآخر من الحاجز. لقد حارب قبل أن يغطي الحرب.

يعلّمني بول أن أنصت إلى القذائف كي أترقب وأفكّ الرموز، كي لا أعاني من المفاجأة. يتضاءل خوفنا ممّا نعرفه، ونحاربه على نحوٍ أفضل. يشرح لي، وفق الصوت وكثافة ارتجاج الجدران والأرض، من أين يتمّ الإطلاق، أين توجد الدبابة، إن كانت تقترب أو تبتعد، إن كانت تصوّب على هدفٍ معيّنٍ أم أنها تمطِر بقذائفها حياً معيناً.

أكتشف لغة الحرب، التي لم أكن أتكلّمها، وأتعلّم أن أستمع وأفهم وأترجم. تتطلّب هذه الفعالية تركيزاً كبيراً ينسيني الألم والخوف. هي أشبه بلعبةٍ، تنحّي لبضع دقائق قلقي من ألّا أرى خافيير وويليام يعودان.

يعودان بعد ساعتين تقريباً. الاتصال بالإنترنت سيئ، والسكايب، وهو برنامجٌ يسمح بالاتصالات الهاتفية عبر الإنترنت، يكاد يكون غير قابلٍ للاستعمال. لكن بعد محاولاتٍ عديدة، تمكّن ويليام من التواصل مع صديقةٍ من «مراسلون بلا حدود». هي صلة وصلنا في فرنسا، وهي التي تطلق الإنذار. كل يوم، تتابع أخبار الصحافيين على الأرض. وعليها يقع العبء الثقيل، أن تخبر العائلات حين يحدث حدثٌ مأساوي في الميدان. لا بدّ من المرور بمكتبها قبل الرحيل. نصائح أخيرة، توصياتٌ متعلّقةٌ بالأمان، ويمضي المرء تبعاً لوجهته وبحوزته خوذةٌ وسترةٌ واقيةٌ من الرصاص. كثيراً

ما تكون هذه المعدّات ضروريةً للبقاء على قيد الحياة، لكنّها بالمطلق تفوق إمكانات صحافي مستقل. وعند العودة، في مكتبها أيضاً يأتي المرء لتفريغ مخاوفه ولتهدئة قلقه، قبل أن يعود إلى البيت، قبل أن يتمكّن من استئناف حياةٍ طبيعية. إنها الشخص الوحيد الذي أفكّر فيه، الشخص الوحيد الذي سيعرف كيف يتصرّف. الآن، سيكون عليها أن تخبر أهلنا، أن تقول لهم بأننا أحياء، في حين أنّ ريمي وماري توفيا.

في هذه الأثناء، يشتغل دماغي بأقصى قدرته، بهاجسٍ أساسي: أن أجد رقم تأميني الصحي الذي دوّنته في مكانٍ ما قبل أن أرحل. لكن أين؟ أين يمكن أن أكون قد سجّلت هذا الرقم اللعين الذي كنت أعتقد أنني لن أحتاجه يوماً؟ إذا تمكّنا يوماً ما من العودة إلى لبنان، سيكون عليّ أن أتواصل معهم من أجل أن يتكفّلوا بي وربما من أجل إخلائي. كنت أعتقد أنني دوّنته في الدفتر الصغير الأحمر الذي اصطحبته معي. أفتح حقيبتي وأبدأ البحث فيه، صفحةً بعد صفحة. لكن لا شيء. أجد رقم طبيب أسناني وطبيب عيوني. لكن لا فائدة لهما هنا، والأهم أنهما عديما القيمة في وضعنا. ينبغي أن أتمكّن من التواصل مع عائلتي كي تبحث في الكرّاس الصغير السابق على مكتبي. وفي حين أنّ فكري مشغولٌ فقط بهذا الرقم اللعين، يركّز ويليام وخافيير على تنظيم هروبنا.

تمّ التواصل مع فرنسا. نقلنا معلوماتنا. وبانتظار أن يجدوا درباً لنا، علينا أن نجد وسيلةً للخروج من هنا. وبما أنّ أفضل وسيلةٍ هي النفق، لا يبقى أمامنا إلّا إيجاد طريقةٍ للوصول إليه. انتظار تحسّن وضعي واختيار اللحظة المناسبة. مسألة ساعات.

خافيير جالسٌ على فراشه، يخربش ملاحظاتٍ في كرّاسه. ما إن تتوافر له لحظةٌ حتى يكتب ويدوّن ملاحظاتٍ ويذهب إلى المشفى لالتقاط صور.

وعلى الرغم من أنه لا يتجاوز الأربعين من عمره، فسيرته المهنية مذهلة، إذ غطّى النزاعات في أركان الأرض الأربعة ولا يبدو أبداً مأخوذاً بالوضع.

خافيير إيبيريٌّ متحفّظ. هو يخلق فقاعته ويعزل نفسه حتى وسط الفوضى الأشمل. سبق له أن سافر مع ريمي، والتقينا نحن الأربعة في مدخل النفق الذي أوصلنا إلى حمص. كنا قد تصادفنا قبل بضعة أسابيع، في كانون الأول/ ديسمبر، أثناء رحلتي الأولى إلى سورية.

كان ذلك قبل شهرين فقط. حينذاك، كانت التغطية الإعلامية للنزاع ضئيلةً. كان الجيش الحرّ قد تأسّس قبل بضعة أشهرٍ شمال البلاد وكنت أريد أن أفهم تلك الثورة الناشئة، أن أحكي عن هذا التحوّل، عن هذا الانتقال من ثورةٍ سلميةٍ إلى حركةٍ مسلّحة، هذا الانقلاب في التمرّد المنظّم.

وجهتي: جبل الزاوية، تلك المنطقة المتمرّدة شمال البلاد. هناك، كان الجيش الحرّ يحكم سيطرته على المنطقة. كان جيب المقاومة موجوداً منذ عدّة أسابيع، وكان ذلك يبدو لي المكان الأمثل لفهم كيفية عمل التمرّد.

وجب عليّ تحضير كل شيءٍ في باريس، التواصل مع سوريين منخرطين في المقاومة، إظهار حسن نيّتي كي يقبلوا أن ينظّموا الرحلة لي. من حيث التنظيم، كان ممتازاً. انتظرني رجلٌ في مطار اسطنبول. التقيت بعدّة معارضين سوريين لاجئين في تركيا. رجالٌ نافذون، مرشّحون مستقبليّون للرئاسة، في شققٍ كبيرةٍ تطلّ على البوسفور، على مرتفعات المدينة. حجز لي أحد أعضاء الشبكة، وكان يعمل مع وكالة سفريات، بطاقة الطائرة إلى منطقة هاتاي، جنوب البلد، والفندق لدى وصولي. هناك، كان رجلٌ آخر ينتظرني وهو يحمل لوحة.

بعد بضعة أيامٍ من الانتظار والنزهات في المدينة، جاء المهرّب لاصطحابي.

ـ 6 ـ

كانون الأول/ ديسمبر 2011، الرحلة الأولى إلى سورية

الكيلومترات الأولى مريحة. أتعرّف على رفاق رحلتي الجدد وأنا أجلس في مقعد حافلةٍ صغيرة. يقدّمون أنفسهم بوصفهم تونسيين، أعضاء في منظمةٍ محلّيةٍ غير حكومية. لكنّ لغتهم الإنجليزية الممتازة وبخاصّةٍ لهجتهم بالعربية، البعيدة عن لهجة التونسيين، تجعلني أفهم بسرعةٍ أنّ هويّتهم مجرّد غطاء. في الحقيقة، رفاقي في السفر متمرّدون ليبيّون. بل إنّ واحداً منهم هو أحد قادة كتائب طرابلس، اشتُهر بدوره في معركة السيطرة على العاصمة الليبية.

تخفي حقائب ظهورهم الكبيرة، التي زعموا بأنها ممتلئةٌ بأجهزة التصوير وبالملابس، معدّات تواصلٍ ومناظير وهواتف تتصل عبر الأقمار الصناعية وأجهزة لاسلكية. وبالفعل، يمارس النظام تلك العادة السيئة، قطع كل خطوط البلد حين يحلو له ذلك، حارماً السكان والمعارضين من أيّ وسيلة تواصل.

في السيارة التي تنقلنا إلى سورية، جميعهم يخفضون عيونهم ويرتّلون آياتٍ قرآنيةً قبل أن تضيع أنظارهم في التلال الموجودة أمامنا. يشير إليها السائق بإصبعه: «في الجانب الآخر سورية، هناك، خلف أبراج المراقبة».

يسود الصمت الثقيل في الشاحنة. الخطر على الصحافيين الأجانب كبير، وحين يكونون بصحبة متمرّدين ليبيين... منذ بضعة أشهر، تقدّم فرنسا دعمها للثوريين، حتى إن كان ذلك لا يكفي لإيقاف عنف النظام. على الرغم من كل شيء، مصيري لا يقارن بما يمكن أن يتعرّض له هؤلاء الليبيون. إنهم خبزٌ مباركٌ بالنسبة إلى النظام، لأنّ ذلك سيسمح له بتأكيد أطروحة أنّ التمرّد يدعمه إرهابيون وعصاباتٌ مسلّحة، مكذّباً نضال المعارضين السوريين.

في الجانب الآخر من الحدود، استقبال رجال الجيش الحرّ حارّ. يهرعون جميعاً لمصافحة المقاتلين الليبيين. يتمّ ارتجال اجتماعٍ في مضافة أحد أعضاء الجيش السوري الحر.

أمّا أنا، فيصطحبونني إلى حجرة النساء، في بيتٍ موجودٍ بعد بضعة شوارع. داخل غرفةٍ لا تتجاوز مساحتها 15 متراً مربعاً، يركض نحو عشرة أطفالٍ في كل الاتجاهات ويصيحون ويتقاتلون. النساء ساكناتٌ وكأنهنّ لا يسمعن الصياح. ينظرن إليّ ويبتسمن لي، لكنّ التبادل بيننا يتوقف هنا، إذ لا تتحدّث أيٌّ منهنّ اللغة الإنجليزية.

الشتاء يقترب والمطر يهطل بغزارة. تضرب قطراته سطح الغرفة الصفيحي، والسماء مظلمةٌ إلى حدّ أننا لا نرى شيئاً في آخر الحديقة. طيلة النهار، أتساءل من دون كللٍ متى سيصل المترجم، هل سأتمكن من بدء العمل. تحضِر النساء لي، وقد أُسقط في أيديهن، أباريق كبيرةً من الشاي المفرط في حلاوته. كلّما مرّ رجل، ألحّ عليه. لكنّ الجواب هو عينه لدى الجميع: إنها تمطر وعليّ البقاء في الداخل كي لا أبتلّ. كيف أفهمهم أنني لست مصنوعةً من السكّر، وأنني أرتدي ملابس كتيمةً، وأنني أستطيع الخروج مثلهم لأمشي تحت المطر، وأتبع مجموعات الرجال التي تقاتل ضد الجيش السوري؟

طيلة النهار، يأتي الرجال ليحكوا لي آخر أفعال الجيش الحر، معتقدين بأنهم يشيعون السرور في نفسي. في القرية المجاورة، هاجموا عربةً للجيش السوري وسرقوا أسلحة الجنود. غنيمة حربٍ ضئيلة، لكنّها بخاصّةٍ عمليةٌ لتحطيم معنويات القوات الموالية للرئيس الأسد. أتتهم أخبارٌ من عدّة جنودٍ يرغبون في الانشقاق عن قوات النظام ويطلبون حماية المتمرّدين.

يصعب عليّ أن أجعلهم يفهمون بأنني لا أستطيع أن أكتب تحقيقي مكتفيةً بأقوالهم، وبأنّ ذلك غير سليم، وبأنّ عليّ أن أكون في المكان، أن أرى كي أتمكن من أن أحكي. الصحافيون الذين مرّوا من هنا ليسوا كثراً، والمتمرّدون يرغبون في أن يقدّموا شيئاً، لكنهم لا يدركون حقيقة عملنا. ثمّ إنّ كثيراً منهم يريدون حمايتي. ليسوا معتادين على رؤية نساءٍ بمفردهنّ على أرض حرب. وحتى إذا كان النزاع قد زعزع العادات والتقاليد، يبقى جذرٌ سنّيٌ تقليديٌّ يفرض عدم الاختلاط بين الرجال والنساء. هم متحفّظون، ولكنهم أيضاً أبويّون. كثيرون منهم لم يروا الزوجة أو الأم أو الابن منذ شهورٍ عديدة، ويعكسون عليّ نوعاً ما الاهتمام الذي كانوا يودّون تقديمه لنساء عائلاتهم.

بعد ساعاتٍ طويلة، يحضر سوريٌّ إلى الحجرة، مصحوباً برجلٍ مسلّحٍ وآخر مدني. يجريان معي استجواباً سريعاً. من أنا؟ لصالح من أعمل؟ ما الذي أتيت أبحث عنه هنا؟ يبدو أنّ إجاباتي ترضيه. لكنّني غير مقتنعةٍ بمترجمه، فلا يبدو أنه يفهم حقاً كل ما أشرحه. أتساءل ما الذي يخترعه.

إلى جانبه، يهزّ الرجل الذي يرتدي قميصاً من الجلد وبنطالاً عسكرياً ترابي اللون برأسه، وكأنه يحلّل كل أقوالي. لن أعرف إلّا لاحقاً بأنّ هذا الرجل هو يوسف يحيى، القائد المحلي للجيش الحر. أصله من حمص، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. غادر مركزه في أجهزة المخابرات بدمشق وانضمّ إلى المعارضة في شهر آب/ أغسطس الماضي. وقد نال

ترقيةً بعد ذلك. الثورة السورية سخيةٌ تجاه كوادرها. أصبح نقيباً وهو ينسّق أعمال مختلف مجموعات الجيش الحر في جبل الزاوية.

إنه مركزٌ استراتيجيٌّ كاد حقاً أن يكلفه حياة عائلته. منذ ذلك الحين، تختبئ زوجته وأبناؤه الخمسة. تمكّنوا من الوصول إلى المنطقة المحرّرة في مطلع كانون الأول/ ديسمبر، ولكنهم لا يزالون مختبئين ويجفلون لدى سماع أي صوتٍ مشبوه. يستحيل عليهم الخروج للّعب في الشارع، مع أطفالٍ آخرين. تستقرّ ابنته الصغيرة التي تبلغ السادسة من عمرها على ركبتي أمها، شعرها كستنائيٌّ طويلٌ وهي تدسّ إبهامها في فمها وتمسك بقبّتها لتهدّئ نفسها. كلاهما تبتسمان، بابتسامةٍ صريحةٍ ورقيقة، لكنها مفعمةٌ بالتعب والحزن.

تصعب معرفة العدد الدقيق للمقاتلين الذين فقدوا حياتهم في هذا الصراع. كل يومٍ تقريباً، تحاول القوات السورية التسلّل إلى المنطقة. كل يومٍ تقريباً تبكي عائلاتٌ جديدةٌ موتاها. في المقابل، لا تعترف السلطة إلّا بموت عددٍ قليلٍ جداً من جنود النظام، عدد يشكّك فيه المقاتلون الأحرار.

غداة اللقاء مع النقيب يحيى، يطرق رجلٌ بابي في الصبيحة. رجلٌ في الثلاثين من عمره، يرتدي سترةً جلديةً كبيرةً عليه وسروال جري، أسود اللون ولمّاعاً. عبد الرحمن مكلّفٌ بأن يكون مترجمي وسائقي ودليلي في مدن جبل الزاوية.

على مدى الأيام، أصبح صديقاً بحق. حتى وقتٍ قريب، كان مهندساً في مطار حلب ويرتدي بزّاتٍ أنيقة. وقد لاحظ طيلة سنواتٍ مؤامرات بطانة عشيرة الأسد وفسادهم. لذلك، عندما بدأ التمرد، قرّر حمل السلاح. سلاح المعلومات. قايض هندامه الأنيق بملابس رياضية مريحة وأصبح أحد ناشطي المنطقة المدنيين. ينشر أفلام الفيديو عن المجازر على

الإنترنت، ويصلح حواسب المدوّنين الآخرين، ويعلّم جنود الجيش الحرّ استخدام أجهزة اللاسلكي التي يحضرها المهرّبون من تركيا.

أنا أول صحافيةٍ يهتمّ بها. رغبته في حسن القيام بعمله مؤثّرةٌ، وهي تشير إلى إحباط السوريين بخصوص المساعدة الدولية التي لا تأتي. في اليوم الأول، أطلب منه أن يتيح لي اللقاء بأسر الشهداء. يحتفظ بهدوئه، لكنني أرى جيداً ألمه لرؤية جيرانه الأبرياء وقد تم قتلهم، كل تلك العائلات المكلومة، أولئك الزوجات المتسربلات بالسواد، وأولئك الأطفال الذين لن يروا آباءهم ثانيةً أبداً.

أشعر تماماً بأنه يعلّق أملاً كبيراً على تحقيقاتي. أمّا أنا، فأعرف حدودها. وإذا كنت أعلم أنّ عملي، كعمل جميع صحافيي التحقيقات والمصورين الموجودين على الأرض، سيسمح ربما بوضع بعض الناس في صورة وضعٍ مخجل، فأنا أعلم أيضاً بأنّ أغلبهم سوف يشيحون بأبصارهم. والاستنكار لا يصنع الفعل السياسي. لكن ربما يشارك فيه؟

لا أستطيع الامتناع عن الشعور بالانقباض حين أسمع كل حكاياتهم، عن أبنائهم الذين قُتلوا أثناء مرورهم قرب مظاهرةٍ وهم خارجون من مدرستهم. عن الرجال الذين صُرعوا أثناء حملهم جثمان ميتٍ إلى المقبرة. عن المصابين الذين يتمّ تقطيع أوصالهم وانتزاع أحشائهم في نهاية مظاهرةٍ لإخافة المعارضين. أنا أعلم أنّ قاعدة المهنة تقتضي من حيث المبدأ أن أسائل قوات الأمن السورية للتأكد من هذه الحكايات. لكنني لا أستطيع. ليس للصحافيين الأجانب مكانٌ في البلد. نحن مرغمون في معظمنا على الدخول إليه بطريقةٍ غير شرعية. وهو ما يفسّر نقص المعلومات، وأفلام الفيديو التي يصوّرها الهواة بهواتفهم المحمولة، بوصفها المصادر الوحيدة.

بعد بضعة أيام، أقرر الذهاب إلى إدلب، غرب حلب. فبعد أن تجوّلتُ في منطقةٍ محرّرة، أريد أن أرى منطقةً يسيطر عليها الجيش النظامي السوري.

المدينة لا تبعد سوى خمسين كيلومتراً تقريباً، لكنّ الطريق يستغرق عدّة ساعات. ينبغي التسلّل بين الطرق، تجنّب حواجز الجيش، التوقف، الاستعلام من السوريين الذين نقابلهم عن الوجود المعادي، الرحيل مجدداً، الانتظار مرّة أخرى. بلال، سائقي الجديد، يعرف المنطقة جيداً. لم يبلغ العشرين من عمره بعد، لكنّه يساعد بطريقته الجيش الحر، بنقل الأدوية والمواد الغذائية أو الصحافيين. ومع الاقتراب من إدلب، يصبح وجود مصفّحات الجيش المنحاز إلى النظام أكثر وضوحاً. في الأيام الأخيرة، أتت قواتٌ جديدةٌ لتعزيز العناصر الموجودة. يسيطر جيش بشار الأسد على إدلب بيدٍ حديديةٍ، وينوي حقاً أن يظهر ذلك. يستحيل الدخول من دون عبور نقاط تفتيشٍ عديدة. في اليوم السابق، أطلق الجيش النار على المتظاهرين، من دون تمييزٍ بين الرجال والنساء والأطفال.

طيلة ساعاتٍ عديدة، يقود سائقي في المدينة بحثاً عن أشخاصٍ ينبغي أن أقابلهم. منذ قُطعت الاتصالات الهاتفية، أصبح تنظيم كل شيءٍ أكثر تعقيداً بكثير. يستحيل التخطيط لأيّ موعد. ينبغي التجوّل في الشوارع لإيجاد من نبحث عنهم. ويمكن أن يستغرق ذلك الأمر وقتاً طويلاً.

يفتح رجالٌ باب السيارة ويتناقشون مع السائق لبضع دقائق. النقاش قصير، نحن نبحث عن أعضاء الجيش الحرّ المحلي. هؤلاء يختبئون، فالجيش يبحث عنهم بنشاط. لعبة القط والفأر التي يخشى المرء فيها الموت كل لحظة.

نحن متوقفان أمام بقاليةٍ صغيرةٍ حين يجمد بلال ووجهه منقبض ويداه مثبّتتان على المقود، تشدّان عليه. مقابلنا، تصل سيارةٌ ضخمةٌ رباعية

الدفع ذات لونٍ رماديٍّ معدني مسرعةً، تتبعها سحابة كثيفةٌ من الغبار. على كل شباك، رجالٌ ملتحون بنظاراتٍ غامقةٍ يمدّون بنادقهم. خلال ربع ثانية، اختفت كل أشكال الحياة من الشارع. تغلق امرأةٌ مصاريع نوافذها بسرعة. يتبخّر الأطفال الذين كانوا يلعبون بالكرة. تعبر المدينةَ ريح الموت.

وأنا أتجمد، لا أفهم ما يجري. أنظر إلى بلال لأسأله، فيعبس مشيراً لي بالصمت. غريزياً، أهبط بعينيّ وأثبّت نظري على علبة المناديل الموجودة عند قدميّ. أطالع تفاصيل الأزهار الصغيرة المتعددة الألوان على الورق المقوّى، الكتابة بالعربية على الجانب، الزاوية اليسرى التالفة نوعاً ما.

بعد مرور السيارة بوقتٍ طويل، يشرح لي بلال هامساً وعيناه مترقّبتان، كما لو أنهم لا يزالون يستطيعون سماعنا على الرغم من الشبابيك المغلقة والدقائق الطويلة التي انقضت. «إنهم شبّيحة. هؤلاء هم. تلك الحيوانات التي تقتل من دون تفكير. بل يقول بعض الناس إنهم يشربون دم ضحاياهم. أنا لا أصدّق ذلك، لكنّه جزءٌ من الأسطورة التي تحيط بميليشيات النظام تلك».

يشرح لي بلال بأنّ اسم الشبّيحة، وهم غالباً من الطائفة العلوية، يأتي من كلمة «الشبح»، وهو اللقب الذي أطلقه السوريون على سيارات المرسيدس الطويلة ذات الشبابيك العاتمة التي يقودها هؤلاء الرجال المكلّفون بالاستخبارات. بدأ الشبّيحة بالازدهار في تسعينيات القرن العشرين، بحمايةٍ من السلطات. نظّموا أنفسهم في مافيات على طول الساحل السوري، وكانوا يقومون بالتهريب بين سورية ولبنان. لكن من أجل إرضاء الشعب المستاء من ارتكابات أولئك الموتورين، قام بشار الأسد بحلّ تلك العصابات المسلّحة فور وصوله إلى السلطة في عام 2000.

ثمّ نُسب اللقب إلى المدنيين الذين جنّدهم النظام منذ بداية الثورة لتنظيم القمع. كانوا يتدخّلون باللباس المدنيّ ويهاجمون السكان، ولا سيما في دمشق وحمص. أمّا في حلب، فقد جُنّد معظم الشبّيحة بين صفوف

السنّة، ويمكن أن يتخلّوا عن النظام إذا نقصهم المال. في أواخر أيار/مايو، كشف موقع معلوماتٍ تابعٌ للمعارضة أنّ النظام يموّل هؤلاء الشبّيحة مباشرةً. أو بالأحرى تحت غطاء الجمعية الخيرية التي أسّسها ابن خال رئيس الدولة، رجل الأعمال رامي مخلوف. فبدل أن تبني جمعية البستان مستشفياتٍ أو مدارس، تقوم بتجنيد مرتزقةٍ في كل المنطقة الساحلية في البلد، مهد آل الأسد. مهمّتهم واضحة: التهديد والشتم والضرب بالعصي والاغتصاب والاغتيال والتعذيب والسرقة والحرق... باختصار، جعل أيّ احتمالٍ للمعارضة معدوماً.

مهمّةٌ مؤطّرةٌ جيداً لأنّ العقود محددةٌ بخمس سنواتٍ، ويتراوح الراتب بين 186 و310 يورو شهرياً، وفق كفاءات كل شخصٍ في مجال الجريمة. أمّا عن الاستعداد للعنف، فهو لا ينقصهم. إذ تُنسب إليهم مجازر ارتُكبت في الحولة والكُبير والتريمسة. لم يُسمح للأمم المتحدة بالذهاب إلى تلك المواقع. على الأرض، يذكر شهودٌ «أجسام مدنيين حُرقوا أو ذُبحوا بالسكاكين. أجسامٌ متفحّمةٌ لأطفالٍ ونساءٍ وشاباتٍ كانت ممددةً على الأرض». تبدو رواية النظام التي تتهم مجموعاتٍ إرهابية سنّية بتلك المجازر غير معقولة، لأنّ منطقة الحولة منطقةٌ سنّية، وهي قاعدةٌ للجيش الحر. ولو كان الجيش السوري بريئاً حقاً من المسؤولية عن تلك المآسي، لأسر بالتأكيد بعضاً من أولئك «المجرمين الإرهابيين».

هذه المناطق السورية هي تلك التي يقال إنّ خطر الانقسامات المذهبية فيها هو الأشد، بسبب اختلاط السنّة والعلويين فيها. وهذا الوضع يؤدي إلى نزوحٍ كبيرٍ للسكان الذين يهربون من أعمال العنف من قريةٍ إلى أخرى. تذكّر سياسة الرعب هذه بالأوضاع التي شهدتها بعض مناطق لبنان، أثناء الحرب الأهلية. في تلك الفترة، أفضت أعمال العنف الطائفية إلى ما يشبه «التطهير المذهبي».

نجد صعوبةً بالغةً في العثور على أعضاء الجيش الحرّ المحلي. يشتري لي بلال طعاماً كي يدفعني إلى الانتظار. يقدّم لي كميةً من البقلاوة، شديدة الحلاوة. أتت في وقتها، فأنا جائعة. التوتر يزيد الشهية. وغياب الفعل أيضاً. وفرة الطعام، في حين يبدأ نقصه في جبل الزاوية، تزيد نهمي عشرة أضعاف.

لا أستطيع الخروج من السيارة. صحيحٌ أنني حاولت «التنكّر» على شكل سوريةٍ وارتديت ثوباً أسود طويلاً وغطاء رأسٍ بماساتٍ صغيرة، لكنني لا أشبه السوريات، رغماً عني. أنا لا أعرف أن أمشي أو آكل كسورية. بضعة تفاصيل ويُكشف أمري. هنا، خلف كل فردٍ يمكن أن يختبئ مخبرٌ للنظام. وإذا ما عثروا عليّ، فلا أعرف ما سيجري لي، لكن خصوصاً لأولئك الرجال الذين يساعدونني ويرافقونني.

الخطر في كل مكان، طيلة الوقت. لا أستطيع أن أدخّن، فالمرأة السورية لا تدخّن علناً. مع أنّ ذلك كفيلٌ بتهدئتي. أمضي وقتي بشدّ غطاء رأسي، بمحاولة تصحيح وضعه، لكن ليس لديّ أساسٌ لذلك، كما أنني أتحرك أكثر مما ينبغي في كل الاتجاهات. أحاول أن أبقي يديّ موضوعتين على ركبتيّ، ألفّ ساقاً على الأخرى، حقيبتي عند قدميّ، معطفي مطويٌّ ككرةٍ على الأرضية. أراقب الناس السائرين في الشارع، يشترون حاجاتهم أو يذهبون إلى أعمالهم. علامات حياةٍ شبه طبيعية. لكنّ النار كامنةٌ وغضب السكان يخرج مع عتمة الليل. يتمّ تنظيم مظاهراتٍ طيّارة، بضع دقائق للهتاف بالرغبة في الانتهاء من النظام، ثمّ يختفي الجميع، يعودون إلى منازلهم. كما لو أنّ شيئاً لم يحدث.

يصعد رجلٌ إلى المقعد الخلفي من السيارة. طويل، جاف، ذو نظرةٍ قاسيةٍ وقوية. حسان شيخٌ رجلٌ يحترمه أهل المدينة. سيكون دليلنا في حارات إدلب، في منازل قديمة ومتداعية، للقاء هذا العالم الآخر الذي

يحاول بشار إخفاءه بالدم. لدى الاقتراب من كل حاجز، يرتفع همس. يرتّل كلا الرجلين، وعيناهما مثبّتتان على الأفق، الآيات القرآنية نفسها عدّة مرّات، لتحمينا. نتوقف أمام مسجدٍ قديم، وفي داخله، علم سورية الحرّة. يصل رجال الجيش الحر تباعاً. نظرةٌ أخيرةٌ وراءهم للتأكد من أنّ أحداً لم يتبعنا ويجلسون بعضهم قرب بعض.

يقال إنّ عددهم في منطقة إدلب يقارب ألف رجل، مئة ضابط تقريباً وتسعمئة جندي. لكنّ الأسلحة قليلة. وبالأخص يقظةٌ متناميةٌ من أجهزة الجيش. ترتفع النبرة بسرعةٍ ما إن يتطرّقوا لمسألة السلاح. خلف هذا الغضب يخفي الجميع مخاوفهم. وخيبة أملهم من أنّ المجتمع الدولي يتركهم يموتون على نارٍ بطيئة، من دون أيّ ردّ فعل. إذاً ما نفع أن يحكوا لي عن جذور نضالهم؟ على أيّ حال، لن يغيّر ذلك في الأمر شيئاً، فصوتهم ليس له حساب، وكذلك موتاهم. لا أحد يرى دماء الأبرياء التي تسيل غزيرةً على أرض سورية. لكن سرعان ما يبدو بصيص أمل. فهم لن يعودوا بأيّ حالٍ إلى الخلف، وهم مستعدّون لكل شيء. في مطلع السبعينيات، حين أتى والد بشار، الرئيس السابق حافظ الأسد، إلى إدلب، استُقبل برمي الأحذية. لكن هذه المرة، تبدو قوات النظام أقوى بكثيرٍ من كل إرادات أولئك الجنود الأحرار.

الليل يهبط والرجال يرحلون لمرافقة المظاهرة المسائية الطيّارة. على طريق العودة، أصادف مصفحتين تدخلان المدينة. وفي غضون دقائق، ستختفيان تحت غطاءٍ على أحد الحواجز.

لدى عودتي إلى جبل الزاوية، وجدت روبيرتو فرايله، رفيق رحلتي الجديد، الذي يعمل مصوراً حرّاً لصالح التلفزة الإسبانية. وصل قبل بضعة أيام، وكان قد غطّى عدداً كبيراً من مناطق الحرب. حين يضيع مني حافزي، حين أتعب، تعيدني إرادته إلى طبيعتي. في لحظات التوتر،

نتخفّف معاً. يحكي لي عن حياته، عن زوجته الصحافية، عن أبنائه، عن الأشياء اليومية العادية التي تشعّ راحةً كبيرةً في مثل هذه اللحظات، التي تعيد البديهيات إلى المقدّمة، التي تسمح بالمقارنة.

وحتى إن كنا لا نعمل لصالح وسائل الإعلام عينها، ولا للبلد عينه، فنحن نتكامل. بعد بضعة أيام، وأمام دفق المعلومات المتناقضة، أُضيع أحياناً خيط التحقيق. روبيرتو هنا ليعيدني إلى الطريق. وأحياناً تسمح تحليلاتنا المتباينة للوضع بفهمٍ أفضل، بالحصول على رؤيةٍ أوسع لهذه الحرب.

ذات مساء، يتم اصطحابنا إلى بيتٍ معزولٍ في القرية. القمر الذي يكاد يصير بدراً ينير خطواتنا في الزقاق. في المدخل، ترحّب بنا عدة عشراتٍ من أزواج الأحذية المليئة بالوحل والصنادل. في المضافة، يدخّن أربعة رجالٍ لفافات تبغٍ بصمت. نحن هنا للقاء أبي أحمد. للوهلة الأولى، لا يبدو الشاب خطيراً، بل يبدو عاقلاً وبريئاً. لكنه في الحقيقة الورقة الرابحة للجنود الأحرار في المنطقة، «لمستهم الشخصية» في هذه الحرب. قرر أبو أحمد، مهندس الفيزياء في دمشق، أن يضع مواهبه ككيميائيٍّ صغيرٍ في خدمة الثورة. إنه يصنع القنابل.

لمساعدة معارضةٍ لا تزال قليلة التسليح، يستخدم منتجاتٍ من الحياة اليومية، مواد يسهل الحصول عليها مثل الأسمدة الزراعية المعززة بالآزوت، أو بعض مساحيق الأسيتون التي تستخدمها النساء. مثال أبي أحمد: العراقيون وموادهم المتفجرة غير المعرّفة، المخبّأة على حواف الطرقات، والتي توجع الجيش الأمريكي كثيراً. هنالك صناديقُ معدنيةٌ كبيرةٌ مليئةٌ بالمتفجرات، مخبّأةٌ على كل المحاور المؤدية إلى جبل الزاوية. وفي حال حدوث هجومٍ معادٍ، لا يبقى سوى تشغيل المفجّر.

في الليلة عينها، ينطلق الإنذار. فقد رأى الرجال القابعون في مراكز

المراقبة في البارة جنوداً للنظام يقتربون، وخشوا من هجوم. جميع المقاتلين مستعدون. تقوم النسوة بإخراج الذخائر التي خبّأنها خلف خزائنهنّ. يصعد المقاتلون الأحرار إلى قمة أحد التلال، وقد أطفؤوا أضواء سياراتهم وانقطعت أنفاسهم. الفرصة أجمل من أن أفوّتها وأتوسّل كي يصطحبوني. بعد دقائق طويلة من المفاوضات، يستسلمون ويأخذونني معهم. القلوب تخفق بسرعةٍ حماسةً.

تستقر المجموعة خلف جدارٍ صغيرٍ، وتطلق بضع زخّاتٍ من الرصاص على الموقع العدو، على بُعد عدة مئاتٍ من الأمتار. مصطفى، ذو اللحية الكثيفة والكوفية السوداء على الرأس، هو الذي يقود القوات. مثل كثيرين غيره، حمل السلاح حين رأى نساءً وأطفالاً يُقتَلون على يد قوات النظام. العملية قصيرة. في الطرف المقابل، الجيش يردّ. تقترب الدبابات، ثم تطلق نيرانها. طيلة عدّة ساعات، يختبئ الرجال خلف جدارٍ من الحجارة، ولا تستطيع بنادقهم البسيطة أن تفعل شيئاً ضد القذائف.

الحدود التركية والعراقية غير كتيمة، ومنها تتمكن «كتيبة الشهداء» في جبل الزاوية من شراء الأسلحة. تبيعهم مجموعاتٌ سنّيةٌ منصّاتٍ مستعملةً لإطلاق الصواريخ وذخائر. المشكلة هي أنّ الأسلحة، وبسبب عدم التمكن من تجريبها قبل شرائها، كثيراً ما تكون معطوبة، وأحياناً غير قابلة للاستعمال. وقد ارتفعت الأسعار في الأشهر المنصرمة ارتفاعاً هائلاً. في معظم الأحيان، يقوم جنود بشار الأسد أنفسهم بتزويد المقاتلين بما يحتاجونه للقتال. فالرواتب في الجيش لم تعد تُدفع بالانتظام الذي كانت تُدفع به في الماضي، وأصبح سهلاً شراء أسلحةٍ من جنودٍ يدركون لاعقلانية عنف النظام، حتى من أولئك الذين لا يجرؤون على الانشقاق.

عند شروق الشمس، تُستأنف المعارك، في منطقةٍ أبعد قليلاً، في مدينة عبديتا. توقظني أصوات إطلاق النار في وقتٍ باكرٍ جداً. يصعب على أفراد

«كتيبة الشهداء» في جبل الزاوية أن ينظموا أنفسهم. فالهواتف المحمولة مقطوعةٌ منذ أكثر من أسبوع، وقليلون هم من لديهم أجهزة لاسلكي.

طيلة عدّة ساعات، يتمسّك المتمرّدون بمواقعهم ويستهدفون دبابات الجيش المتمركزة أمام مدرسة. المقاتلون المختبئون في بيتٍ مرتفعٍ يتمازحون. طيلة النهار، يسخرون من القنابل التي تمرّ فوق رؤوسنا. كما أنهم يسرّون بعضهم لبعض، ففي خضمّ المعركة، تصبح الانفعالات أكثر صراحةً. لطالما أثار أبو حكيم تساؤلاتٍ في داخلي. طويل، بحاجبين أسودين كثّين، وجهه لا يُظهر انفعالاته، وابتسامته لا مبالية، بعيدةٌ تقريباً. يتمتّع بكاريزما قائد، من أولئك الذين يقودون القوات إلى القتال. وحين يتكلّم، بصوته القويّ والرخيم، يستمع إليه الجميع بما يشبه الورَع. مستنداً إلى جذع شجرة، يمدّ يده لي بقطعة حلوى بالشوكولاه داخل كيسٍ صغيرٍ لمّاع. أمزح بصدد هذه الوجبة الصغيرة الطفولية في وسط ميدان معركة. لقد مرّت الكلمة، طفل. يثبّت أبو حكيم نظره في نظري حين يحكي لي حكاية طفليه. صبيٌّ وبنت، في الرابعة والتاسعة من العمر، رآهما وهما يُغتصبان ثمّ يقتلان أمام عينيه على يد الشبّيحة، ميليشيات النظام. لم يتمكن من فعل شيءٍ بسبب إمساك جنودٍ آخرين له، وشهد بعجزٍ ذلك المشهد. منذ ذلك الحين، يقول بعضهم بأنه شخصٌ قابلٌ للانتحار. أمّا هو، فيشرح ببساطةٍ أنه قد رأى أسوأ ما في الكائن البشري، وأنه مستعدٌّ للقيام بأيّ شيءٍ من أجل مستقبلٍ أفضل للأطفال السوريين الآخرين.

في نهاية النهار، أقرر أنا وروبيرتو العودة إلى تركيا. سئمنا الحرب، سئمنا قعقعة البنادق التي يتمّ تلقيمها، سئمنا انفجار القذائف التي لا تزال تدوّي في رأسي... سئمنا بخاصّةٍ سماع ذلك السؤال عينه، الذي يتكرر من دون هوادة: «متى سيأتي بلدكم لمساعدتنا؟» ومن عدم معرفة كيفية الإجابة عنه. نحن لا ننحاز، هذا ليس عملنا. لكن كيف يستطيع المرء البقاء من

دون أن يتحسّس أو يبالي؟ لا سيما حين يرغمني جميع من ألتقي بهم على تبنّي موقف، على اختيار طرف.

قبل الرحيل، يملأ أحمد حقيبتي بالهدايا. لقد فكّر في كل شيء. زيت الزيتون الممتاز الذي تنتجه المنطقة، نوعٌ من مربّى الكرز الذي حضّرته زوجته، الزعتر، ذلك الخليط من البهارات التقليدية في الشرق الأوسط الذي أحبّه جداً، وسجائر، علب سجائر مرنة، ملفوفة بكيسٍ بلاستيكي.

يسير السائق على طريق العودة، لكنّ الأمور تتعقد. لم يهاجم الجيش السوري محلّة عبديتا فقط، بل عزّز أيضاً قبضته على المنطقة. يستحيل الخروج سراً، إيجاد طريقٍ التفافي وتجنّب الحواجز العسكرية. إنهم في كل مكانٍ ويراقبون كل شيء. يتوقف السائق عدّة مرّاتٍ في منازل لطلب النصيحة. في النهاية، وحين لا يجد أيّ حفرة فأرةٍ للهرب، يقودنا إلى منزل أحد أصدقائه. استراحةٌ لتناول الشاي والسجائر من أجل التفكير. بعد بضع دقائق، يدخل نحو عشرة رجالٍ إلى المضافة التي نحن فيها. لا أعرفهم، ولا يقدّمون أنفسهم، لكني أخمّن من طريقتهم في حمل البندقية بأنهم مقاتلون من الجيش الحرّ. يحتدم النقاش، لكنهم يجمعون على الحل الوحيد الممكن: اقتحام الحواجز. وقبل أن يتسنى لنا الوقت للتفكير، يصعدون في سيارتين، ويقلعون بسرعةٍ تجعل عجلات السيارتين تصُرّ. نركض لركوب سيارتنا ونتبعهم. لقد وافق هؤلاء الرجال على مساعدتنا، على المخاطرة بحياتهم، من دون أن يعرفونا.

هبط الليل، والبرد يجمّد الدم في عروقي. توقّفٌ جديدٌ بعد بضعة كيلومترات. يضعوننا أمام نارٍ من الأغصان الصغيرة، مقابل المنزل المتداعي لعائلةٍ فقيرة، ويطلبون منا الانتظار بصمت. عدم التحرّك قبل عودة الجنود المتمردين.

في السنوات العشر المنصرمة، انهار اقتصاد البلد تماماً. ومعه انهارت وعود التقدّم والتطوّر المسجّلة في الفكر الأصلي لحزب البعث، حزب عشيرة الأسد. الفقر لا يتوقف عن التمدد في البلد، ولا سيما في شمالها الشرقي، لكن أيضاً في منطقة درعا، جنوباً.

على الرغم من الجهود في مجال التعليم، الذي يشمل مجمل الفئات العمرية، لا يزال عدد السوريين الذين يتمكنون من استكمال دراستهم قليلاً. وبعد أن يصبح الخريجون الجدد في سوق العمل، لا يتمكن جزءٌ كبيرٌ منهم من إيجاد وظيفة. وفق بعض التقديرات شبه الرسمية، تقارب نسبة البطالة 20 بالمئة من السكان النشيطين.

نحن إذاً بعيدون عن التزامات بشار الأسد في عام 2005 بعصرٍ جديدٍ من الازدهار الاقتصادي. صحيحٌ أنّ جهوداً بُذلت، لكنها لم تُفِد إلا جزءاً من المجتمع السوري. هكذا نشأت طبقةٌ وسطى جديدة، لديها قدرةٌ شرائيةٌ معتبرة.

في المقابل، يعاني أولئك الذين لم يتمكنوا من ركوب قطار العصرنة. إنها نهاية العقد الاجتماعي وإقامة نظامٍ مزدوجٍ في الاقتصاد والتعليم والصحة.

أصالب أصابعي لجلب الحظ وأنا التي لست مؤمنةً أبداً، أفاجئ نفسي وأنا أتمتم ببعض الابتهالات الدينية لاستدعاء آلهةٍ ما كي تهتم بمصير هؤلاء الرجال. البرد والخوف يجمّدان عظامي، النار صغيرةٌ جداً كي تدفئني. بعيداً، تدوّي أصوات إطلاق النار. يستحيل معرفة من أين تأتي، وبخاصةٍ يستحيل معرفة إن كانت تلك علامةً حسنة.

حين يعود المتمردون، يشرحون لنا أنّ الطريق آمن. من دون تقديم مزيدٍ من التفاصيل. يشدّون على يد روبيرتو، يحيّونني وينطلقون، كما لو أنّ

شيئاً لم يكن. في سيارة المهرّب، نسير بضعة كيلومتراتٍ في الجبل، لكنّ حواجز عسكريةً أخرى ترغمنا على الاختفاء في منازل هرباً من إطلاق النار. ندخل راكضين، من دون طرق الباب، من دون أن نسأل، ونجلس في العتمة، مصيخين بسمعنا. رجل البيت لا يسأل هو أيضاً، بدايةً يقدّم لنا الضيافة والقهوة، قبل أن يسألنا حتى عن أسباب وجودنا في مضافته. وحين يصبح الطريق سالكاً، حين تهدأ طلقات البنادق، نستأنف الطريق.

في أحد البيوت على أعلى هضبة، نعثر على أصدقائي الليبيين الذين يحاولون، هم أيضاً، الخروج من سورية. أنا سعيدةٌ بلقائهم. لن نبلغ الأراضي التركية إلا بعد عدّة ساعات، في نحو الثانية ليلاً.

لدى وصولنا إلى هاتاي، بتركيا، ألتقي بشابٍّ ساعدني في التحضير للرحلة. هو يعيش مع ثلاثة شبانٍ سوريين آخرين في إحدى شقق المدينة. أربعة رجال، في العشرينيات من أعمارهم فقط. جميعهم غادروا سورية تاركين وراءهم عائلاتهم وأصدقاءهم. كان ثلاثةٌ منهم نشيطين جداً على الإنترنت، وأصبحت أسماؤهم على لائحة الأشخاص المطلوبين لقوات الأمن، فاضطروا للهرب. حُمل محمد، ذو الشعر الكستنائي الفاتح والعينين الزرقاوين الجميلتين، من سورية، لإصابته في قدمه. لا يزال يعرج كثيراً، لكنه فضّل الخروج من المشفى، لأنه لم يعد يتحمّل الاحتجاز وعدم النشاط.

الشقة كبيرةٌ وفي حالٍ سيئة. الأحذية تملأ الأرض وأواني المطبخ المتسخة تفيض من حوض المطبخ، الملابس معلّقةٌ في جميع الاتجاهات في الحمّام. أول تجربةٍ للحياة خارج إطار العائلة.

نظّموا مع الأطباء شبكةً لتوزيع الأدوية للسوريين، على الجانب الآخر من الحدود. في الصالة، خلف الأريكة، عشرات الجُعب العسكرية الخضراء

تنتظر. إنها مملوءةٌ بالعلب الطبية الإسعافية، بالمحاقن، بالمسكنات، بالضمادات... ما يكفي لإجراء الإسعافات الأولية، للصمود لبضع ساعات، ما يكفي من الزمن للذهاب إلى مستوصفٍ أو إلى بلدٍ مجاور، تركيا أو لبنان.

في شقةٍ أخرى، في الطرف الآخر من المدينة، المخزون. يذهب الشبان الأربعة لتفريغ صناديق الأدوية التي يكدّسونها في حجرةٍ أخرى. لا يبدو عليهم كثيراً أنهم يعرفون تماماً ما ينقلونه، لكنهم يعلمون بأنّ ذلك يمكن أن ينقذ حياة أهلهم، بأنه يمكن أن يساعد التمرّد على الصمود ضد عنف النظام.

يأتي مهرّبٌ بانتظامٍ لينقل جُعب الأدوية إلى سورية. ثمّ سيتمّ توزيعها على مختلف فرق المقاتلين.

إنها طريقتهم في مساعدة التمرّد السوري. تهريب الأدوية، لكن أيضاً نشر الصور على الإنترنت. يمضون ليلتهم على السكايب، يتناقشون مع عائلاتهم أو مع أعضاء من الشبكة الموزعة في أرجاء الكرة الأرضية.

جميعهم يعدون بالعودة قريباً، حالما يستطيعون ذلك. العودة لمساعدة الأهل، للقتال في صفوف الجيش الحر. لا أستطيع أن أمنع نفسي من الأمل في أن يبقوا هنا، في مكانٍ آمن. لقد أصبح النزاع قاسياً جداً، هم لا يتوقعون ذلك. ونشاطهم ضروريٌ جداً للمقاتلين السوريين: تقديم الأدوية والأغذية.

نظرةٌ أخيرةٌ عليهم قبل الرحيل. أعد بالعودة حالما أستطيع. لكن هل سيكونون هنا بعد بضعة أسابيع؟ أو هل سيكونون قد حملوا السلاح؟ يبدون لي صغار السن، غير أن الحرب قد جعلت منهم رجالاً، قبل الأوان.

ـ 7 ـ

الخميس 23 شباط/ فبراير 2012، الساعة الثانية ظهراً

يصبح الصمت ثقيلاً.

نحن الأربعة متعبون. بعد قليل، تكون قد مضت ثمانٍ وأربعون ساعة على وجودنا هنا. لم ينم أحدٌ منا حقاً. وإذا كان ويليام وخافيير يستطيعان الوصول إلى الخارج، فأنا وبول محكومان بالبقاء مثبّتين على مرتبتينا.

بين زيارتين، تصبح الكلمات أكثر ندرةً. الخشية من إفلات تفكيرٍ سلبي، من إصابة الآخرين بالعدوى. لذلك نصمت.

وحده جليل يأتي بانتظام ليكسر الصمت. ردّاً على فضولي حول ما يجري خارج بيتنا الصغير، يُريني الصور العديدة التي التقطها بهاتفه المحمول. سيارة محترقة، دبابة، جثّة، بيت مدمّر. العالم الخارجي، عبر هاتف جليل المحمول، عالمٌ معادٍ يبدو أنّ الحياة فيه محظورة.

في بداية فترة ما بعد الظهر، يدخل رجلٌ قصيرٌ إلى غرفتنا وبيده كاميرا سوداء بشاشةٍ محنية. ليست كاميرا احترافية، لكنها تبدو من نوعٍ جيد. يرسل سوريّو الخارج بانتظامٍ كاميراتٍ وهواتف فضائية. على جانبيه

إلى الخلف شابان. ليسا طبيبين بل هما ناشطان. بلغةٍ إنجليزيةٍ ركيكة، يشرحون لنا أنهم بتواصلٍ مع قناة فرانس 24 الإخبارية التي تبثّ على نحوٍ متواصلٍ في الخارج، وأنّ علينا تصوير شريط فيديو. هم يحتاجون إلى إثبات أنّ المتمرّدين السوريين لم يخطفونا، مثلما تزعم الشائعات التي يطلقها النظام، إثبات أننا أحياءٌ وبحاجةٍ إلى المساعدة.

لا يستغرق اتخاذنا للقرار وقتاً طويلاً، على الرغم من أننا نبدي شكّاً كبيراً بصدد اتصالهم الفعلي مع القناة الفرنسية. شريط الفيديو هذا وسيلةٌ لإبلاغ عائلاتنا، لطمأنتها، لتوضيح حقيقة وضعنا والمساعدة التي يقدّمها لنا الجيش السوري الحر. نحن لا نعتقد بأنه سيكون لهذا الشريط تأثيرٌ كبيرٌ، لكن نظراً لقلّة الوسائل المتوافرة بحوزتنا، فهو أفضل من لا شيء وعلى أيّ حال، لا يمكن أن يؤذينا.

يبدأ بول، فيشرح أننا نتلقى معاملةً حسنة، أنّ المتمرّدين يساعدوننا كثيراً، وأننا نعاني مثلنا في ذلك مثل السكان المحليين من عنف النظام. حين يأتي دوري، أغطس أكثر في أريكتي. خطاب بول سلسٌ بما يكفي، لكنّ الشاب الذي يحمل الكاميرا يلتفت إليّ. ليس لدي الوقت ولا القوة لأستوي قليلاً ولا لأجد الكلمات لشرح وضعنا بأفضل ما يمكن. أتلعثم، ولا أفهم لماذا يعطيني ويليام هاتفه. أحتاج بضع ثوانٍ لأدرك أنّ ذلك يفيد في تأريخ الفيديو، لتجنّب أن يتم استخدام الفيديو ضدنا أو ضد مستضيفينا.

«نحن في يوم الخميس 23 شباط/ فبراير، الساعة الآن الثالثة بعد الظهر. اسمي إيديث بوفييه. أنا صحافيةٌ في لوفيغارو. لدي كسرٌ مزوجٌ في ساقي، أفقي وعمودي، بسبب قصف المركز الإعلامي الذي قُتلت فيه ماري كولفان وريمي أوشليك...».

يبدو وكأنني نسيتُ تماماً لغتي الفرنسية، والكلمات تخرج من فمي بفوضى مطلقة. لا أفكر إلّا بأمرٍ واحد: أن أبتسم لأمي، في حال وقعت على هذا التسجيل. مثل بول، أطلب إيقاف القصف وإقامة ممرٍّ إنسانيٍّ

لإخلائنا. لم نفكر لحظةً واحدةً أثناء تسجيل ذلك الشريط بأنّ طلباتنا يمكن أن تستجاب، لكن، وفي حين تطالب فرنسا بذلك منذ عدّة أشهر، ربما نستطيع أن نكون قطرة الماء التي ستسمح بإخلاء جميع الجرحى، وكل الأسر المكدّسة في مخابئ ارتجالية بانتظار القصف التالي.

منذ بداية الثورة، تحوّل سوريون كثرٌ إلى «صحافيين مواطنين». كل يوم، يسجّلون واقع الحياة في سورية، وينشرون تلك الفظاعات على الإنترنت. لولاهم، لكان ضحايا النظام الكثيرون ماتوا في ظل الجهل أو اللامبالاة.

ليلة وصولنا إلى المركز الإعلامي في بابا عمرو، كانوا ثلاثةً، يدسّون أنوفهم في الحواسب. ثلاثةٌ ينقلون الفيديوهات من كاميراتهم الصغيرة أو من هواتفهم المحمولة إلى حواسبهم. ثلاثةٌ يستعرضون طيلة النهار صوراً للمجازر، يحمّلونها على الإنترنت عبر شبكة فيسبوك الاجتماعية. ثلاثةٌ يخاطرون بحياتهم، يوماً بعد يوم، ليسردوا ما لا يمكن قوله. أتوا من فورهم ليناقشوا، ليعلموا ما هي التحقيقات التي ننوي القيام بها. شرحوا لنا ما فعلوه مع الصحافيين السابقين، كيفية العمل في هذا الحيّ المحاصَر.

كان أبو سليم بائعاً للعطور. لكنّ ذلك كان قبل الثورة، قبل أن يهوي كل هذا العنف على البلد. حتى 15 آذار، تاريخ اندلاع المظاهرات الأولى، كان يسافر بانتظام في أرجاء العالم العربي. كان يستخدم الإنترنت مثل كل الناس، للقيام بالبحث أو لإرسال رسالة. بين ليلةٍ وضحاها تقريباً، اضطرّ لتعلّم طرائق تشفير البيانات، وتأمين اتصال. هكذا، كان مخدّم الإنترنت الخاص بالمركز الإعلامي مخبّأً في بيتٍ آخر بطريقةٍ ماهرة.

إلى جانبه ناشطٌ آخر، علي عثمان. يحمل في إحدى يديه على الدوام هاتفه المحمول، وباليد الأخرى آلة تصويرٍ صغيرةً. طيلة النهار، يجوب الحيّ بحثاً عن آثار العنف. الجميع يعرفون هيئته. وما إن يصل حتى يريه

الجميع ندوب جروحهم، ويصطحبونه لتقديم التحية الأخيرة لأولئك الذين قتلهم النظام قبل فترةٍ وجيزة. علي عثمان أسمر، ذو نظرةٍ عذبة، ويلقّب بالجدّ. على خدّي الشاب لحيةٌ خفيفةٌ تجعله يبدو أكبر سناً. على كل حال، الجميع هنا يبدون أكبر من سنّهم. يرافق صوته الرخيم والجدّي معظم التحقيقات التي يتمّ بثّها في فرنسا والخارج: يشهد فيها على أعمال العنف التي يرتكبها النظام، عن المدنيين الذين قتلهم الجنود، وعن عمليات الدمار في حيّه.

مرّاتٍ عديدة، رافق علي عثمان المراسلين ليريهم حقيقة الحياة في بابا عمرو. وحين لا يقوم بدور الدليل، فهو يصوّر بآلة التصوير الفوتوغرافي والفيديو تجاوزات النظام، مخاطراً بحياته من أجل كل صورة. في سورية، ممنوعٌ تقديم المعلومات. شيئاً فشيئاً، يتعلّم الناشطون السوريون كيف يقاتلون. ضد دبابات النظام، وكذلك ضد نظُم المراقبة التي أقامتها السلطات، بدعمٍ من الغربيين. هنالك بخاصّةٍ شركةٌ أمريكيةٌ باعت معدّات تجسّسٍ على جزءٍ كبيرٍ من السكان وجعل إمكانات المعارضين خارج الخدمة وعديمة الفائدة. وعندما يعتَقَل المعارِض، يعذّب كي يكشف كلمة السرّ الخاصّة به للحصول على حسابه على الفيسبوك والجيميل، والإيقاع بأصدقائه والمقرّبين منه.

ولمعاكسة هذا الوضع، وضعت مجموعةٌ من قراصنة الكمبيوتر أطلقت على نفسها اسم «تيليكوميكس» قنوات اتصالات مؤمّنة، وسمحت لكثيرٍ من المواطنين المدوّنين بنشر أفلام الفيديو من دون تعريض أمنهم للخطر.

منذ شهر آب/ أغسطس، اهتم هؤلاء «الناشطون القراصنة» بالوضع في سورية، وبالمصاعب التي يعاني منها المعارضون في نشر معلوماتٍ عن أعمال العنف. لم تكن تلك سابقةً، فقبل بضعة أشهرٍ من ذلك، تدخّلوا في مصر لإرسال مخدّمات إنترنت للمصريين، الذين حرمهم النظام من الإنترنت.

إذاً، اخترقت «تيليكوميكس» الشبكة السورية واندهشت لاكتشاف نحو خمس عشرة آلةً مستخدمةً لمراقبة كل مستخدمي الإنترنت في البلد.

أوخن هو أحد أعضاء «تيليكوميكس» الذين أسّسوا هذا المشروع. أثناء عدّة ليالٍ، درسوا مطوّلاً وسائل المراقبة السورية. «إنه تقليد. في عام 1999، حين أدخل النظام الإنترنت إلى البلد، كان قد نظّم سلفاً مراقبة تلك الأداة الجديدة. في تلك الحقبة، كان حافظ الأسد يدير البلد، وكان بشار الأسد على رأس الجمعية المعلوماتية السورية، وهي جمعيةٌ خفيّةٌ، والسبب في ذلك أنها كانت مكلّفةً بإدارة الشبكة على المستوى الوطني». إنه إذاً تقليدٌ طويلٌ من التجسّس.

يمرر يده في شعره الطويل البني أثناء شرحه ذاك. تؤقّت حركته تقريباً كل جملةٍ من جمله. التواتر سريع، فالرجل متحمّس. يواصل قائلاً: «تحمل التقنيات المستخدمة اسم ديب باكت إنسبكشن، أي أنها مراقبةٌ عميقةٌ لمعطيات الشبكة. وللتبسيط، حين نرسل في الأوقات العادية بريداً إلكترونياً، تتوالى عشرات الآلات لتمريره مباشرةً من واحدةٍ إلى أخرى. في حين تسمح تقنيات ديب باكت إنسبكشن بقراءة محتوى المحادثات وتعديلها وإرسالها إلى شخصٍ آخر...».

في سورية، تتهم منظمتان غير حكوميتين للدفاع عن حقوق الإنسان شركة «كوسموس» الفرنسية بتزويد دمشق بمعدّات المراقبة الإلكترونية، من أجل تنظيم القمع. ردّت الشركة بتأكيد «عدم وجود ما تلوم نفسها عليه». وعلى موقع «كوسموس» على الإنترنت، تشرح بأنها تقدّم تقنية شبكة تجسّسٍ تعيّن وتحلّل في الزمن الحقيقي المعطيات التي تمرّ عبر الشبكات». تقول الشركة إنها انسحبت من السوق السورية في تشرين الثاني/ نوفمبر 2011. وفق موقع ويكيليكس الذي كشف وثائق إنترنت عديدة للشركات المعنية، فإنّ مراقبة شبكات الاتصال هي «صناعةٌ سرّيةٌ جديدةٌ تغطّي خمسةً وعشرين بلداً. أثناء السنوات العشر المنصرمة، انتشرت بكثافةٍ

نظُم المراقبة المكثّفة وغير التمييزية. نحن بعيدون عن التنصّت على المكالمات الهاتفية وساعات الملاحقة، إذ يسمح الإنترنت بمعرفة كل شيءٍ ورؤية كل شيءٍ، وبمراقبة كل شيءٍ وأنت خلف مكتبك». الدول البوليسية كثيرةٌ، وتتمّ مراقبة برامج المراقبة بالحجم الطبيعي وتحسينها بانتظام. تونس بن علي ومصر مبارك... وكذلك بورما حيث كُلّفت مجموعة «ألكاتِل» الفرنسية بمراقبة النظام المحلي.

في أوروبا، لا يمكن رسمياً بيع نظُم مراقبة الخطوط الهاتفية أو الإنترنت في الخارج إلّا إذا لم يكن ذلك مناقضاً لحقوق الإنسان وحرّية التعبير. كيف يمكن التوصّل إلى منع الإنترنت من دون المسّ بحرّية التواصل؟ تعلم الشركات التي تتخصّص في مثل هذا النوع من الصفقات كيف تستغل القانون كي لا تطالها العدالة.

وفي حين أنّ الحرب لم تعد تقتصر على الميدان بل أصبحت تدور من وراء الحواسب للتواصل وتوصيل المعلومات والحشد، فإنّ برامج من هذا النوع لا تُعدّ دائماً أسلحةً بالمعنى الحرفي للكلمة. وصانعو تلك البرامج يفركون أيديهم.

بعد أن عاين «الناشطون القراصنة» في «تيليكوميكس» الوضع، بقي عليهم أن ينبّهوا أكبر عددٍ ممكنٍ من السوريين إلى مخاطر اتصالاتهم. يستأنف أوخن: «كان ينبغي تعليمهم كيف يلتفّون على الرقابة، لكن من دون أن يمسك بهم أحد. أتى الخيار بسرعة، موقع فيسبوك ومعظم العناوين البريدية غير آمنة. الخطر هائلٌ بالنسبة إلى السوريين العديدين الذين يستخدمونها دائماً حين ينظّمون مظاهراتٍ أو ينشرون صوراً. من الواضح أنّ نشاط الثوريين على فيسبوك يخضع لمراقبة النظام».

تمّ بالتالي إرسال رسالةٍ إلى جميع مستخدمي الشبكة السورية، من مؤيّدين ومعارضين للأسد. قبل الثورة، كان عددهم قليلاً لا يتجاوز 15 بالمئة من السوريين. «في البداية، كان استقبال السوريين متشكّكاً. لكن

سرعان ما فهموا من نحن وماذا نريد. وحينذاك، شمّرنا عن سواعدنا معاً وبدأنا العمل»، يتذكّر أوخن. أمامه حاسبٌ أسود صغيرٌ جداً، تغطي لصاقاتٌ من كل الأصناف نوعه. أزراره بالية، والأصابع تتحرّك بسرعةٍ كبيرةٍ على لوحة المفاتيح. بعد أن أظهر السوريون لناشطي «تيليكوميكس» اهتماماً، أعطاهم أولئك الناشطون بعض الطرائق من أجل «الاختباء» على الشبكة عبر برامج مناسبة.

يحكي أوخن: «نحن نلعب مع الحكومة السورية لعبة القطّ والفأر. ما إن يحاولوا إيقاف الإنترنت حتى نسارع لإيجاد ردٍّ كي تواصل صور الناشطين المواطنين الانتشار». أي وضع برامج «تور» و«في إن بي» في حواسب المتمردين، وهما نظامان يسمحان بالدخول إلى الإنترنت على نحوٍ مغفلٍ ومخفي.

وإذا ما تجاوزنا المسائل التقنية، فإنّ العملية كانت تتضمّن جزءاً كاملاً من النصائح والمرافقة. «نقدّم أفكاراً بسيطةً لتجنّب مراقبة النظام: الإبحار بطريقة hpps، التأكّد من هوية رُخص الأمن... ببضع دقائق، يستطيع الجميع النجاح».

طيلة شهرٍ تقريباً، عمل «الناشطون القراصنة» بمساعدة بعض السوريين لتصميم موقعٍ سريعٍ ودقيق، يتضمّن كل تعليمات الأمن وروابط العديد من البرامج، وحتى بريداً فورياً مؤمّناً. قلعةٌ حقيقية، غير مرئية من حيث المبدأ، بالنسبة إلى النظام السوري. في مطلع أيلول/ سبتمبر 2011، كانت منصّة المناقشة قابلةً للاستعمال.

ببضع نقراتٍ من الفأرة، يجد مستخدمو الإنترنت السوريون أنفسهم ينتقلون إلى منتدى للدردشة، مؤمّنٍ بالكامل، حيث يستطيعون أن يتبادلوا الحديث، من مدينةٍ إلى أخرى، من دون المخاطرة بكشف معلوماتٍ عن هويتهم. ومنذ ذلك الحين، تواصل هذه الشبكة المؤمّنة انتشارها في

سورية. بل إنهم أقاموا منصّة نشرٍ لأفلام الفيديو، بهدف قطع الطريق أمام من يقومون بمنع موقع اليوتيوب للنشر.

لكن على الأرض، لم يحصل سوريون عديدون على هذه المعلومة. جميع ناشطي بابا عمرو كانوا يتواصلون عبر السكايب، ولم يكونوا يعرفون معظم مبادئ الحماية تلك على الإنترنت. لم يكونوا يعرفون إلّا الحدّ الأدنى، أي عدم كشف مكانهم عبر الاتصال بالإنترنت. كما كانت هنالك إجراءاتٌ عديدةٌ لتقديم الأمن للجميع. شرح لي صالح س. في بابا عمرو: «هذه ليست مهنتي، وأنا لا أعرف كيف تعمل شبكة الإنترنت. كل ما أعرف فعله هو إظهار ما نتعرّض له من أعمال عنفٍ يوماً بعد يوم».

في البداية، ضعتُ في المصطلحات الغامضة تماماً التي كان اختصاصيو الشبكة العنكبوتية أولئك يستخدمونها. فمعظم الكلمات كانت غامضةً وحتى الترجمة التي قاموا بها من أجلي بقيت غامضة. لكن سرعان ما ينساق المرء لحماستهم ولأهمية تلك المسائل بالنسبة إلى الثورة السورية.

لئن كان النظام السوري يكسب الحرب على الأرض، فإنّ المتمرّدين هم الذين يسيطرون على المعركة الافتراضية. فهم يعملون منذ بداية التمرّد على حماية أنفسهم والتغلب على الحواجز التي تفرضها الحكومة. عليهم الاختباء خلف عدّة جدران حماية، والتحكّم برموز تأمين المعلومات على الإنترنت للإفلات من الرقابة. شيئاً فشيئاً، يزداد عدد المبحرين على الإنترنت، والكل يتحرّكون لنشر صور إخوتهم أو أقاربهم أو أصدقائهم الذين قتلهم النظام. يكرّرون جميعاً، كما لو كانوا يفعلون ذلك لاستعادة الأمل: «كي لا يتمّ نسيانهم، كي يموتوا شهداء للثورة».

حالياً، أصبح الأمريكيون، وكذلك وبخاصّةٍ الفرنسيون، يدعمونهم

رسمياً، ويقدّمون لهم معدّات اتصال. اليوم، أصبحت الهواتف الفضائية وأجهزة اللاسلكي ومخدّمات الإنترنت حيويةً لنشر وقائع ما يجري على الأرض.

أحدهما كان بائع عطور، والثاني طالباً. لقد اختارا النضال بطريقتهما، بسلاحهما، الإعلام.

وفي حين أنّ دخول الصحافيين الأجانب لا يزال معقداً بالدرجة عينها، فإنّ دور الصحافيين المواطنين أساسيٌّ في نشر المعلومات. من دونهم، تسقط سورية في النسيان. وعلى الرغم من القصف، هم أعين السوريين وأفواههم. بفضلهم، لا نزال نسمع أصواتهم تصرخ.

ـ 8 ـ

الخميس 23 شباط/ فبراير، الساعة الثامنة مساءً

يدخل علي عثمان إلى الصالة، ونستنتج من سحنته المنهكة وجود مشكلة. علي عثمان ناشطٌ سوريٌّ يزورنا كثيراً. هو يعلم بأننا ننتظر أخباراً، بأننا أمضينا النهار ونحن نسأل كل فردٍ يجرؤ على دخول حجرتنا. نحن على حافّة مضايقتهم لالتقاط أدنى خيط معلومة. لكن لا شيء يتسرّب حتى الآن.

كل مرّةٍ يدخل رجلٌ إلى الحجرة، نستمع إليه بانتباه. أودّ حقاً فهم ما يجري خارج هذه الجدران. لا أتمكن من تصوّر أماكن المعارك، والجيش السوري، والمتمرّدين الذين ينظّمون المهمّات القادمة لتموين الحي بالأغذية. أحاول أن أضع الصور على ما يحكيه المتمرّدون. مهاجمة دبابة، كل قطعة رصيفٍ يكسبونها من العدو، أصغر غنيمة حرب، دفع حدود الحيّ. وقائمة القتلى التي لا تنتهي، القريب الفلاني، والجار الفلاني، والعائلة الفلانية، والمجموعة الفلانية من حيٍّ آخر وقد أبادها العدو.

في كانون الأول/ ديسمبر، أثناء التحقيق الذي أجريته في شمال البلد، كنت قد أمضيت كثيراً من الوقت وأنا أستمع إلى أعضاء الجيش الحر وهم ينظّمون عمليات التخريب التي ينوون القيام بها ضد الجيش

الموالي للنظام. لا وجود لهذا هنا. الأوان أوان دفاع، أوان حماية الحي من الاقتحامات المعادية.

كل يومٍ تقريباً، يحاول النظام اختراق دفاع مقاتلي الجيش السوري الحر. تصبح عمليات القصف أكثر ضغطاً، وكذلك أكثر دقةً. الدبابات تقترب، والمتمرّدون عزّلٌ تقريباً في مواجهتها. هم يختبئون في بيوتٍ للتحكّم بتقدّم العدو ويطلقون النار، ببنادقهم العتيقة، على كل ما يقترب. الحرب هنا، يوماً بعد يوم.

أودّ لو أنني أسجّل بعض الملاحظات، لكنّ الخطر كبيرٌ جداً. إذ يمكن أن تعرّض آثارٌ مكتوبةٌ أولئك الذين يحموننا للخطر. وفي حال اعتقلتنا سلطات دمشق أثناء هروبنا، ينبغي ألّا تعثر على أي معلومةٍ عن ملائكتنا الحارسة، مهما كانت صغيرة. يسيطر علينا هاجس عدم تعريضهم للخطر في حين أنهم يقدّمون لنا الحماية. سيتمّ بالتالي تسليم كل شيءٍ إلى حسن ذاكرتي. يجب عليّ أن أحتفظ بالحد الأقصى من التفاصيل في رأسي، على الرغم من التعب والخوف والألم.

حين دخل علي عثمان، ساد الصمت فوراً. لقد حدث شيءٌ ما. شيءٌ سيعقّد الأمور كلّها. لقد اكتشف الجيش النفق الذي كنا ننوي الهرب عبره، مثلما أتينا، وقصَفه. أصبح الطريق غير سالك. وحده المخرج أصيب، لكنّ ذلك يكفي لمنعنا من العبور، لإغلاق أي مخرجٍ ممكن. إنه الممرّ الوحيد للتزوّد بالأدوية والماء والغذاء. المكان الوحيد الذي تستطيع الأسر الهروب منه ويمكن عبره إخلاء الجرحى.

لا حاجة بنا لمعرفة المزيد كي نفهم أنّ الوضع أصبح حرجاً. ونحن الذين كنا نريد الاعتقاد بأننا لسنا محتجزين هنا، تحت القنابل، بأننا عابرون وحسب، نجد أنفسنا في الوضع الذي يعيشه السكان: محتجزين، تحت رحمة هجمات الجيش وشظايا القذائف.

الحجرة مظلمة. السوريون رحلوا. توقفنا عن التكلم. يتظاهر كلٌّ منا بالنوم مع هذا المعطى الجديد الذي يدور في حلقةٍ مفرغة: نحن محتجزون في هذه الحجرة الضئيلة والمخرج يبدو غائماً أكثر منه في أيّ وقتٍ مضى.

وحده مصباحٌ نفطيٌّ صغيرٌ قرب باب الدخول ينير زاويةً من غرفتنا. هو موضوعٌ على كومةٍ من الأوراق، وتنوس شعلته أحياناً. وحين يحدث ذلك، أتوقف عن التنفّس خشية أن يطفئها نفَسي. أنا عادةً لا أخاف من الظلام، لكن، هنا، يصبح كل شيءٍ مرعباً. فقدان هذا الضوء الأخير سيعادل فقدان آخر أملٍ لي. مرعب.

ـ 9 ـ

الجمعة 24 شباط/ فبراير، الساعة الواحدة ظهراً

كلّما عبرا عتبة الباب، يستولي عليّ القلق. يذهب ويليام وخافيير مجدداً إلى المركز الإعلامي، بحثاً عن بعض المعلومات، ولمحاولة العثور على شخصٍ ما متصل، على شخصٍ رسميٍّ فرنسي، عن صديقٍ حسن الإطلاع. لمحاولة تشكيل رؤيةٍ أوضح، في حين كل شيءٍ حولنا يصبح أكثر ظلاماً.

لا أستطيع منع نفسي من التساؤل عما إن كانا سيعودان، إن كانا لن يفقدا حياتهما، مسحوقيْن تحت كتلةٍ من الخرسانة. مُبادين. وأنا في سريري المرتجل، مسمّرةً هنا، سأعلم بالخبر. كيف أبقى حيّةً بعدهما؟ أحتفظ بهذا القلق الواخز لنفسي، في أعمق أعماقي، وأبتسم لهما. هما أيضاً يخفيان مخاوفهما ويبادلانني الابتسام، يخرجان من الحجرة من دون أن يودّعاني، كما لو أنهما ذاهبان لشراء سجائر من آخر الشارع، بيقين لقائنا بعد بضع دقائق. لكن لم يعد لدينا أي يقين.

وحدهما جليل وصديقه سلام يبقياننا على صلةٍ مع حياةٍ شبه طبيعية. لم يكن جليل يعرف التكلّم بالإنجليزية عندما وصلنا، وبالكاد كان يتمتم ببعض الكلمات. ومع استمرار تواصله معنا، وبسهولةٍ لا تصدّق، يتقدّم

كل يوم أكثر، أسرع بكثيرٍ من تقدمنا نحن بالعربية، على كل حال. تصبح المبادلات أكثر عمقاً بعد أن كانت في البداية أساسيةً نسبياً: تناول الطعام، التدخين، الرعاية الصحية. شيئاً فشيئاً، تتوسّع مواضيع نقاشنا، التي كانت في الساعات الأولى محدودةً أكثر.

لتسهيل الحياة عليّ، وضع جليل مقعداً صغيراً قرب أريكتي، أخذ يضع عليه بانتظامٍ سجائر. بين حينٍ وآخر، يأخذ واحدةً يدخّنها ببطءٍ وتلذّذ.

تشتبك أيامنا مع إيقاع خيوط الدخان. إشعال سيجارةٍ بعقب السيجارة السابقة. من دون ملل، بصبر، واحدةً بعد الأخرى. التموين لا ينقص. بل إنّ السجائر هي الشيء الوحيد الذي لا ينقطع.

قبل الثورة، كان السوريون يدخّنون أقل بكثير. الآن، أصبح التدخين انشغالاً دائماً. كثيرون يحتاجون إليه ليهدّئوا أنفسهم، ليفكّروا، لكن بخاصّةٍ ليتحمّلوا الجوع. يبدأ النهار وينتهي بسيجارةٍ في اليد. لقد أصبح ذلك الآن جزءاً من الحياة، حياة المابعد. كلّما سقطت القنابل، امتلأت منافض السجائر، كما لو أنّ التدخين هو الأمر الوحيد الذي يمكن التعلّق به، آخر اليقينيات، المتعة الصغيرة الوحيدة المنتزَعة من قسوة الحياة اليومية.

أثناء رحلتي الأولى إلى سورية، كان جنود الجيش الحر يتشاجرون لتقديم سيجارةٍ لي، كلٌّ بدوره. وما إن كنت أسحق عقب سيجارتي، حتى أجد سيجارةً أخرى تقدّم لي، وكان تجرّئي على رفضها سيعدّ إساءةً. أينما كنا نضع أقدامنا، كانت أعقاب السجائر موجودةً على الأرض. ما إن كنا ندخل بيتاً حتى كانت منفضة سجائر توضع أمام الضيوف، ترافق عبارات الترحيب الحارّة. وكانت المنافض تمتلئ فوراً بالرماد والفلاتر. الأخطار المحيطة بهم أشد من تلك التي يتسبّب فيها ذلك الدخان على رئاتهم، ومخاطره على الصحة لا تقلقهم أبداً.

حين لا يكون جليل موجوداً، يهتمّ بنا صديقه سلام. سلام أكثر فتوّةً من جليل. لكنني لا أدرك فتوّتهما إلّا حين يكونان معاً، فلا يتوقفان عن المناكفة، مثل شابّين صغيرين خرجا بالكاد من مرحلة المراهقة، مثلما ينبغي أن يكونا. مراهقان لم يتهذّبا جيداً، وكان من المفترض أن ينشغلا فقط بآخر هاتفٍ محمولٍ دارجٍ، أو بالمشوار القادم مع رفاقهما في الصفّ. بدلاً من ذلك، انطفأ بصيصُ اللامبالاة والغطرسة الخاصّ بالمراهقين. في نظراتهما يغيب الفرح ويظهر قليلٌ من الأمل، فقط إرادةٌ صلبةٌ وراضية. لقد فهما أنّ الحياة تستمرّ مهما جرى، وأياً كانت الفظائع اليومية، تستمرّ وتستمرّ على الرغم من كل شيء. وهما ينويان حقاً الاستفادة من نفَس الحياة هذا إلى النهاية، أياً كان الوقت الذي سيدومه، كل دقيقةٍ وكل ثانية.

سلام شابٌّ قصيرٌ سمينٌ وأصهب، ويرتدي يوماً بعد يومٍ الحذاء الرياضي الأحمر نفسه. يقسم وقته بين المشفى، على بعد بضعة أمتارٍ من هنا، وبيننا.

وفي الليل، يتمدد في إحدى زوايا غرفتنا وينام من فوره. شخيره في البداية منخفضٌ وجهير، ثمّ يقوى حتى يغطّي معظم الأصوات الليلية. يكاد يحجب صوت القصف. كيف يمكن لشاب صغير إلى هذا الحد أن يصدر كل هذا الضجيج؟ أن يغطّي لبضع دقائق صوت القذائف، نحن نحلم بذلك. وبصوت رجلٍ نائم فضلاً عن ذلك. براءة النائم وسكينته تحت القنابل.

عادةً، لا أتحمّل مثل هذا الصوت، لكنني في هذه الغرفة أجده دافئاً ومهدّئاً. يهدهدني شخير سلام ويذكّرني بوجود أماكن، بعيدة من هنا، ينام فيها الناس بطمأنينة، من دون الانشغال بمعرفة ما إن كانوا سيستيقظون أم لا، إن كان سقف بيتهم المتداعي سيقع على رؤوسهم أم لا، إن كانت ميليشيات النظام ستصل لذبحهم أم لا.

أثناء نوم سلام، يحلّ جليل محلّه. يجلس وسط الحجرة، أمام موقد

النفط، ويبقى ساعاتٍ من دون أن ينبس ببنت شفة. غالباً ما يتفرّج على فيديوهات المظاهرات أو المجازر. فيديوهات اليوم السابق أو الأيام السابقة نفسها. لا يكلّ ولا يملّ.

وليلاً، حين ينام الجميع، نتناقش وأبوح. يحكي عن سورياه، في خليطٍ من الإنجليزية والعربية. وحين أفقد أعصابي، يسألني جليل فقط عمّا يحدث. كما لو أنّ الوضع، الحرب، الفظائع، ليست أسباباً كافية.

منذ أشهر، منذ أن تركت الثورة مكانها لحربٍ أهليّةٍ حقيقيةٍ في الشوارع السورية، اعتاد السكان الموت. هو موجودٌ كل ساعةٍ من كل يوم، وفي كل مكان. كل صباح، تسقط القنابل. كل يوم، تبكي أمهاتٌ أطفالهن. كل ليلة، تدفن عائلاتٌ موتاها.

أكشف له عن أحلامي، عن مخاوفي. أمسك بيده، وأعلم أنّ هذه الحركة ليست مرغوبةً حقاً في بلدٍ إسلامي، لكنني أحتاج إلى الإحساس بتواصلٍ بشري، أحتاج إلى أن أشعر بأنني حيةٌ أرزق. أحياناً، لا يفهم أحدنا الآخر إطلاقاً، نتظاهر بالفهم، وفي النهاية، نبتسم ببلاهة. وحين لا يكون الكلام ممكناً، يخرِج جليل هاتفه المحمول ويريني صور حياته في ما قبل، ثمّ صور الحي اليوم. البيت الذي دُمّر قبل بضع ساعات، الأطفال الجرحى والأطباء الذين يحاولون الإنقاذ.

أحياناً، تنوس شعلة الضوء. أرجو ألّا ننقطع من الوقود! لن أصمد أبداً في الظلام. وجليل، الجالس قربي، يبدو وكأنه قد أحسّ بقلقي، فخرج من دون أن يتفوّه بكلمةٍ بحثاً عمّا يعيد إشعالها.

في كثيرٍ من الأحيان، يخيّم علينا الصمت. لا نسمع إلّا صوت زمور السيارات القادمة إلى المشفى مسرعةً، محمّلةً بالجرحى. وأيضاً القصف، دائماً.

ـ 10 ـ

الجمعة 24 شباط/ فبراير 2012، الساعة الحادية عشرة صباحاً

«حين يريد المرء شيئاً، يتآمر الكون كلّه ليسمح له بتحقيق حلمه». أتذكّر بأنني سمعت هذه الجملة سابقاً، أو بالأحرى قرأتها في رواية. لكن أيّ رواية؟

لبضع دقائق، أراقب بإلحاحٍ الرجل الذي تلفّظ بها توّاً، كما لو أنني أستطيع أن أقرأ الجواب فيه. قالها بإنجليزيةٍ ركيكةٍ لكن من دون أن يتردد، من دون أن يبحث عن كلماته، كما لو أنه يقرأ من ورقةٍ خفيّةٍ أمامه. يجلس متربّعاً أمام الموقد النفطي، وسط الغرفة. نظرته هادئة، لحيته كثيفة، ابتسامته واسعة.

وصل أبو أحمد من دون إنذار، من دون أن نتوقّع. إنه قريبٌ لوائل، أحد أصدقائنا السوريين. تخفي الكوفية الحمراء الكبيرة الملتفّة على رأسه شعره البني الأجعد. كل شيءٍ فيه يبدو من عصرٍ آخر. فهو يرتدي معطفاً مطرياً طويلاً عسكرياً خاكيّ اللون بالياً، فقدَ شكله الأصلي. وتحته يخفي بندقيةً قديمةً رديئة. بارودة أحد أجداده، عثر عليها والده في السقيفة. «هي لا تغادرني أبداً، حتى عندما أنام. لقد أصبحت صديقتي الأقرب منذ

أن أطلق بشار مدافعه على سكان بلده». ينزع عنه معطفه ليظهرها لنا. يجلس على الأرض، مداعباً الأخمص الخشبي بطرف أصابعه.

أبو أحمد ليس جندياً. لقد انضمّ إلى صفوف التمرّد بوصفه طالباً. هو في العشرين من عمره، أنهى لتوّه دراسة الأدب وكان يستعدّ للتدريس. أثناء دراسته، اكتشف باولو كويلو، وزعزعت قراءة تلك الروايات تصوّره للعالم. وجد إذاً في نثر الكاتب البرازيلي كل تلك المقولات الكثيرة التي يقدّمها لنا بحيوية. لم أكن أتوقع أبداً أن أسمع أحداً في سورية يستشهد بكويلو.

«لم تكن حياتي يوماً حياة الحرب والسلاح. وأنا ما زلت أفضّل الشعر، لكنّ أبياتي لن تُسقط الأسد ولن تمنع الدبابات من استهدافنا. كان لا بدّ من الفعل، وهو ما نقوم به كل يومٍ ونحن نحاول ردّ العدو»!

مجرّد وجوده هنا فعل تمرّدٍ والشابّ يعلم ذلك جيداً. فأبو أحمد لا يكتفي بالقتال، ببندقيته النحيلة، ضد دبابات الهجوم، بل يعيد الأمل لسكان بابا عمرو، مثلما يعيده لنا اليوم.

كل يوم، يُحضر قطع الشوكولاه والسكاكر للأطفال الملتجئين إلى أقبية الحي. يُخرج من جيبه بعض قطع العلكة ويوزّعها قطعةً قطعة. وإضافةً إلى الغذاء والحلوى، يجلب معه تلك الروح الإضافية التي تؤسّس البشرية: اللعب والضحك. تلك الصفات التي تميّزنا عن الحيوانات. حين يجلب الطعام للأطفال، يمرح معهم، يدغدغهم، يلعب معهم لعبة الغمّيضة، يعيد لهم، لبضع دقائق، ضحكاتهم اللامبالية. تضيء الوجوه، وترتسم الابتسامات، وتكون مهمّة أبي أحمد قد أُنجزت.

يتعرّف الناس من بعيدٍ على هيئته، على سترته الطويلة. يجلس بيننا ويتحدّث بهدوءٍ، مطوّلاً. كل زيارةٍ من زياراته تنتهي بالطقس عينه حيث تنتشر الطلبات. ليس هنالك ما هو مبالغٌ به، بل فقط بعض ما يؤكل، بعض ما يساعد في الصمود جسدياً ليوم إضافي. سجائر، شاي، سكّر، خبز

طازج... لا يسجّل أبو أحمد شيئاً، يبدو وكأنه يسجّل القائمة في أحد أركان دماغه.

وحين يعود بعد بضع ساعات، تكون جيوب معطفه المطري مليئة. يخرج منها طلب كل شخص، وحتى نوع السجائر يتوافق مع الطلبات. إنها مهارةٌ لا تصدّق حين نعلم بأنّ المرء لم يعد يجد شيئاً في حمص، حين تكون المخازن فارغةً وكل شيءٍ مفقوداً. أين إذاً يكتشف تلك الكنوز كلّها؟ يضع أبو أحمد إصبعاً أمام فمه ويمثّل الصمت. يداه رقيقتان، أظافره ملساء ونظيفة. يدان ممتلئتان دائماً بالمفاجآت. لن يعرف أحدٌ أيّة ألاعيب سيقوم بها. إنه بابا نويل الخاصّ بنا.

في كل مرة، التلاعب بالكلمات عينه: «هل تريدين سجائر وينستون؟ مثل وينستون مانديلا؟» ويمضي بضحكةٍ كبيرة، صاخبةٍ ومُعدية. يطرق بيده على ركبته. يندفع رأسه إلى الوراء، كوفيته ثابتةٌ لا تتحرّك، لا تتأثّر بارتجافات جسمه. النكتة ليست مضحكةً حقاً، ولكننا ننتظره كل يومٍ بفارغ الصبر، مثلما ينتظر المرء دفقةً من الهواء النقي. لو أنه لم يقلها، أعتقد أنني كنت سأطلبها منه.

كذلك، يسأل بانتظامٍ بول عن معنى كلمة ليفر. وفي مواجهة الدهشة البادية في أعيننا، يشرح لنا: «اسمه بول وهو يسكن في ليفربول، ماذا تعني إذاً كلمة ليفر؟» هنا، لكلّ اسمٍ معنى. أبو أحمد هو والد أحمد. وأبو أحمد يحبّ أن يفهم. كل نقاشٍ هو بالنسبة إليه فرصةٌ لاستجوابنا عن حياتنا وليحكي لنا عن حياته.

بعد أن يفرغ جيوبه، يجلس ويحكي لنا عن قريته. إنها قريبةٌ جداً من حمص، مزرعة، بعض الحيوانات، قطعة أرضٍ للزراعة... ترك أبو أحمد كل شيءٍ وأتى ليقاتل قوات النظام. في قريته الأصلية، هنالك امرأةٌ تنتظره، وطفلةٌ أيضاً. سيعود ذات يوم، لكن ليس قبل أن يسقط الرئيس بشار الأسد وكل شخصيات النظام المهمّة.

«لقد حملنا السلاح منذ بداية الثورة وشكّلنا مجموعاتٍ من المقاومين. اليوم، يتناقص عددنا لكننا سنصمد، سنقاتل حتى آخر واحدٍ منا. لم يعد لدينا خيارٌ آخر. فإمّا أن نعيش ونحن نحاول أن نكون أحراراً وإما أن نموت». ويستشهد الشابّ بقرن الأنوار في فرنسا وبعض كبار مفكّري الديمقراطية.

في بعض الأيام، يبقى وقتاً طويلاً جداً. كما لو أنه فقد القوة على الرحيل. ساعاتٌ عديدةٌ ونحن نستمع إليه يستشهد بقصائد لشعراء عرب أو أجانب. بل حتى بمقاطع من روايات. «هنالك طريقةٌ وحيدةٌ للتعلّم، هي الفعل».

حين تقترب أصوات إطلاق النار، يرحل الرجل ليقاتل، وعلى كتفه بندقية الكلاشنيكوف. أعجب لقدرته على الانتقال من عالم الحرب إلى عالم الألعاب. وكأنه يستقي قوّته من تلك التحليقات الشعرية الكبيرة ومن الشوكولاه التي يوزّعها. سيعود غداً وفي الأيام التالية، ودائماً بجيوبٍ مليئةٍ بعلب السجائر والسكاكر.

ـ 11 ـ

الجمعة 24 شباط/ فبراير، الساعة الخامسة مساءً

مضت ثلاثة أيامٍ على وجودنا هنا في هذا البيت في بابا عمرو. يتمطّى الوقت على إيقاع القنابل التي لا تتوقف عن السقوط. الدقائق تطول، بلا رحمة. أحاول ألّا أسأل عن الساعة. كلّما سألت، أصبح الوقت أبطأ.

شيئاً فشيئاً، تعلّمنا أن نعرف الوقت من القنابل التي تسقط، أن نتعرّف على أولاها، المخيفة، في السادسة والنصف صباحاً، أن نستمع بتلذذٍ إلى الصمت والعصافير التي تغرّد خلف النافذة، أثناء استراحة الغداء للعسكريين السوريين، وأن ندرك التواتر الأضعف مساءً حتى يسود الهدوء لبضع ساعاتٍ ليلاً.

ذهب ويليام منذ بضع ساعاتٍ إلى المركز الإعلامي، ليحاول مرةً أخرى تنظيم خروجنا، والتواصل مع السلطات الفرنسية، وإيصال معلوماتٍ لأصدقائنا. تبدو القذائف وكأنها هدأت. هل هذا مجرّد انطباع؟ ما زلت أسمع دويّ السقوط في رأسي. أعدّ الثواني قبل الانفجار التالي. 30، 31، 32... لا شيء. تمرّ بضع دقائق. لا صوت. الهدوء يتواصل. أصيخ بسمعي، أجازف بالتنفس بحرّيةٍ أكبر قليلاً.

وماذا عن الطائرة من دون طيار التي تدور فوق رؤوسنا؟ ذلك الجهاز

الميكانيكي الاستخباري الذي يساعد الجيش السوري في تحديد الهدف وقتل المعارضين. تلك الطائرة الصغيرة جداً ذات الأجنحة الطويلة البيضاء. لكأنها لعبة أطفال، طائرةٌ بالتحكّم عن بعدٍ تقوم بدوراتٍ في الهواء. لكن هذه الطائرة ليست لها علاقةٌ بالألعاب.

منذ عدة أشهر، اعتاد السوريون على هذا الصوت، على هذا الطنين الدائم، كالبرغشة العملاقة، أو كجزّازة العشب. بفضل تلك الآلات الطائرة التي لا طيّار فيها، يستطيع النظام مراقبة أي حركةٍ للسكان بشكلٍ دائم. يقول بعض المحلّلين إنّ هذه الطائرات صناعةٌ إيرانيةٌ. فقد التقط بعض الهواة صوراً لطائرةٍ من دون طيّارٍ شمال دمشق، من طراز «باهاد» الإيراني الأصل.

من كثرة سماع هذا الدويّ الأصم، يتراءى للمرء أنه يراها. هذه الذبابة تجعل الشكّ بحدوث الهجوم والخطر والموت يحوم باستمرار، مثل ظلٍّ شرّيرٍ فوق رؤوسنا، يراقبنا ليلاً نهاراً. مهمّتها الرئيسية هي المراقبة، لكنها تستطيع أيضاً أن تحمل صاروخاً وتصوّب وتستهدف معارضين أو نجدةً تحمل العون لجرحى أو مشفى أو عائلات.

لكنني لا أسمعها في هذه اللحظة بالذات، على الرغم من إصاختي السمع. هي أيضاً تبدو وكأنها ابتعدت. لا أتوقع أن يتأخر ويليام، فلا بدّ أنه سيستفيد من التهدئة ليعود.

ها هو ذا بالفعل يدخل الغرفة. شيءٌ ما تغيّر. لا ينتظر حتى يجلس ويحكي لنا. فأمام المشفى، لدى عودته من المركز الإعلامي، قابل قافلةً من سيارات الهلال الأحمر السوري. فكّر ويليام مباشرةً بالقافلة التي وعدت السفارة الفرنسية في دمشق بإرسالها لنا أثناء أحد الاتصالات. بعد عدّة أشهرٍ من الإغلاق القسري للبعثات الدبلوماسية الأجنبية، علمنا بأنّ السفير الفرنسي إيريك شوفالييه قد عاد من باريس البارحة ليساعدنا. لكن من أتى ليس الصليب الأحمر الدولي، بل أحد فروعه المحلية، الهلال

الأحمر السوري. هو أقل وثوقيةً وأكثر قرباً إلى النظام. إنه بصيص أملٍ يحيا من جديد، على الرغم من كل شيء.

رئيس البعثة، وهو رجلٌ بدينٌ ذو شعرٍ مسرّحٍ إلى الخلف، تبع ويليام إلى الحجرة التي نختبئ فيها.

خلفه، يشارك نحو عشرة رجالٍ في النقاش. إنهم أعضاء في الهلال الأحمر السوري، يمكن التعرّف عليهم من ستراتهم الحمراء، وكذلك مقاتلون في الجيش الحر وفضوليون. ينظرون إلينا بفضول، وكأننا حيواناتٌ غريبةٌ في قفص. يتوالون لمصافحتنا ويتفوهون ببضع كلماتٍ للتخفيف عنا، يرسمون صلاةً على الجبين ثمّ يعودون ليستمعوا إلى القائد. لم أعد أرى إلّا ظهورهم. في مركز الحلقة، رئيس الهلال الأحمر. كلماته واضحة: «إن صعدتم إلى السيارة معنا، سيكون عليكم أن تتناقشوا مع السلطات في دمشق. سيكون عليكم أن تفسّروا أسباب دخولكم غير القانوني للأراضي السورية».

يعاود ويليام الخروج بسرعةٍ، ويستخدم جهاز الراديو الخاص بإحدى السيارات ليتناقش مع مريم، المسؤولة عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر، التي منعتها قوات الأمن من المجيء إلى الحي. قالت إنّ سيارتين تابعتين للصليب الأحمر الدولي سوف تنتظراننا على بعد بضعة مئاتٍ من الأمتار، أمام مشفى حمص الوطني، المشفى الذي يسيطر عليه النظام، على الجانب الآخر من حاجز الجيش، وإنّ هاتين السيارتين مستعدّتان لنقلنا بأمانٍ إلى دمشق والسفارة الفرنسية. ما العمل؟ لماذا لم يُسمح لسيارتي الإسعاف التابعتين للصليب الأحمر بدخول بابا عمرو، إذا كانت نوايا الحكومة حسنة؟ من نصدّق؟

هنا، تكثر الشائعات حول الهلال الأحمر السوري، وتستحيل معرفة إن كان لها أساس. جميعها تصف مشاهد فظيعة، مدنيين يتم تعذيبهم. جميعها تربط بين الجمعية والحكومة. حين كنت أقوم بتحقيقٍ في شمال

البلاد، في شهر كانون الأول/ ديسمبر المنصرم، شرح لي عددٌ من مقاتلي الجيش الحرّ بأنه في حال حدوث إصابة، فإنّ الذهاب إلى مركزٍ للهلال الأحمر السوري طلباً للعلاج يعادل الارتماء في شدق الذئب، يعادل انتحاراً. معظم من فعلوا ذلك ماتوا حسب تلك الأقوال. هل ينبغي حقاً الذهاب؟ أنظر إلى ويليام وبول وخافيير. هم أيضاً يقيسون كفّتي الميزان.

لكن يستحيل التفكير في هذه الشروط. كثيرٌ من الناس، كثيرٌ من الضجيج. يتولّى ويليام المبادرة ويطلب بتهذيبٍ، لكن بحزم، من السوريين الخروج من الغرفة. نحن بحاجةٍ إلى مناقشة الأمر في ما بيننا. ما الذي يُثبت لنا أنّ سيارات الصليب الأحمر الدولي هي حقاً هنا؟ ما الذي يضمن لنا أننا سنتمكن بالفعل من الصعود إليها؟ ما الذي يؤكّد لنا بأننا لا يمكن أن نقع في فخٍّ فور خروجنا من المنزل؟

نحن مشتّتون. أنا وبول بحاجةٍ للخضوع إلى عمليةٍ جراحية سريعة، لكن بأي ثمن؟ خافيير وويليام ليسا مصابين، ويمكن أن يخضعا للتعذيب على يد أجهزة الاستخبارات السورية للحصول على معلوماتٍ عن الجيش الحر. المخاطرة كبيرةٌ جداً.

الرهان هائل: حياتهما مقابل حياتنا. البقاء والمخاطرة بحياتنا تحت القصف الذي لا يتوقف. نزيفنا المتواصل. المخاطرة المتزايدة يومياً بحدوث إنتان، انسمام دم. أو الخروج والمخاطرة بالتعذيب، بمخالب الرجال الموالين لبشار، الميليشيات الموالية للنظام، الشبّيحة.

أنا حائرةٌ تماماً، مشدودةٌ إلى أريكتي. أعلم بأنهم جميعاً منشغلون بوضعي الصحي، وأخشى أن يؤثّر هذا المعطى على موضوعيتنا، أن يدفعنا لاتخاذ القرار السيئ. لماذا لا يوجد أيّ ممثّلٍ للسفارة الفرنسية في دمشق أو أي عضوٍ في الصليب الأحمر الدولي ضمن القافلة، مثلما كان متوقعاً؟ وفي المقابل، كيف نرفض إمكانية الخروج هذه؟ إنها فرصتنا الحقيقية الأولى. هل لدينا حقاً ما يسمح لنا بتركها تفلت؟ ثم إنها ستكون إهانةً

حقيقيةً للدبلوماسيين الذين يفاوضون منذ عدة أيامٍ لتقديم هذه الإمكانية لنا. لا أحد يعرف حقاً ماذا يقول، ماذا يفعل، ما هو الخيار الجيد. وهل هنالك خيارٌ أصلاً؟

يتصاعد التوتر، ليس بيننا، بل في داخل كلٌّ منا. لدي حدسٌ سيئ، ليست لديّ رغبةٌ في الصعود داخل سيارات الإسعاف هذه. لكنّ المرء لا يستند إلى حدسٍ لاتخاذ مثل هذا القرار.

نقرر بالتالي أن نكون حازمين وألّا نخرج من دون ضمانات. لا يمكن فرض وجود دبلوماسيٍّ فرنسي، لكن على الأقل نستطيع فرض وجود ممثّلٍ للصليب الأحمر الدولي. إذا كانت دمشق ترغب حقاً في أن تترك لنا فرصةً للرحيل، عليها أن تسمح بدخول سيارةٍ لتلك المنظمة السويسرية غير الحكومية.

يعود أعضاء الهلال الأحمر السوري، وبصحبتهم مرّةً أخرى بعض الفضوليين. جليل وسلام معهم. يأتيان للجلوس قربي. يعلن ويليام قرارنا بالصعود إلى سيارات الإسعاف، لكن مع أحد أعضاء الصليب الأحمر الدولي. ينظر إليه الرجل القصير البدين مطوّلاً ثمّ يضيف: «حذارِ، إذا صعدتم معنا، يمكن أن تتعرض القافلة لهجومٍ من الجيش الحرّ».

إنها جملةٌ ملغزةٌ تبدو لنا فألاً سيئاً. هي أشبه بالفخّ، والشكوك حول نواياه الحسنة تصعد بقوة.

وسط الضجيج والنقاشات، تحملني أفكاري إلى جيل جاكييه. ففي 11 كانون الثاني/ يناير، استُقبل الإعلان عن موت ذلك الصحافي الفرنسي برعبٍ شديد. لا تزال ظروف اختفائه تبدو غامضة. أمرٌ وحيدٌ يبدو أكيداً، أنه ذهب من دمشق إلى حمص مع مجموعةٍ من الصحافيين الأوروبيين، بحمايةٍ من الجيش السوري. وحين بدأ القصف، لم يحمهم جنود النظام.

بل أسوأ، فقد أخذوهم إلى البيت المستهدف بالقصف. تذكر بعض الفرضيات حدوث خطأ من قبَل الجيش السوري الحر. لكنّ عدّة صحافيين كانوا موجودين على الأرض يدحضون هذه الإمكانية. والنتيجة واضحة، فقد مات وهو يحاول الخروج من ذلك الفخّ، تحت أنظار أصدقائه وزوجته.

كنت على موعدٍ مع رئيس تحريرٍ للحديث عن مشروع تحقيقاتي في سورية، حين أتى الخبر. التفت إليّ وقال: «هل ستذهبين رغم ذلك؟» ماذا أقول؟ كان ينبغي حقاً أن أذهب. حتى إنني لم أطرح السؤال على نفسي، فهذه مهنتي، ما أعرف فعله.

في هذا العام، مات كثيرٌ من الزملاء وبعض الأصدقاء أثناء قيامهم بالتحقيقات. لماذا يرحل المرء ثانيةً؟ ما هي أسباب ذلك، ما هي دوافعه؟ لا شيء من التباهي من نوع: «لن أرتكب الأخطاء عينها». بل ويا للمفارقة، رغبةٌ شرسةٌ بالعيش، بالعيش على الرغم من كل شيء. المتابعة من أجل عدم التخلّي عن كل شيء. المتابعة لأنه لولاها، ماذا نفعل؟

لوكاس دوليغا في كانون الثاني/ يناير 2010، جيل جاكييه، ريمي وماري اليوم... لم يكونوا ممّن يجازفون. كانوا يحترمون القواعد ويتّخذون احتياطاتهم. كيف إذاً يتجنّب المرء المخاطر؟ كيف يكون متأكّداً من أنّ كل شيءٍ سيكون على ما يرام؟ مستحيل، يدير المرء المخاطر فحسب. يحاول الحفاظ على عائلته. يتدبّر الأمر مع الحقيقة: أثناء تحقيقاتي الأولى في العراق، كنت أفضّل القول إنني ذاهبةٌ إلى جنوب تركيا. يخلق المرء بعض العادات الصغيرة. حين أذهب للقيام بتحقيق، وأينما كنت، أتدبّر الأمر دائماً بحيث أرسل رسالةً قصيرةً إلى أمي يومياً، حتى إن كانت شديدة الإيجاز.

إنها المرّة الأولى التي أنتهك فيها القاعدة، منذ حصول الانفجار.

تذرع قصة جيل جاكييه رأسي. يمكن أن يتوافق السيناريو بغرابةٍ مع

السيناريو الخاص بنا. يمكن في أيّ لحظةٍ أن يتعرّض موكبنا، الواضح بشعار الهلال الأحمر السوري، لهجومٍ من الجيش الحرّ ردّاً على هجومٍ ما من النظام. يمكن أيضاً أن نكون ضحايا هجومٍ تديره قوات النظام ويُتّهم به المتمرّدون. يعمل دماغي بأقصى سرعة. أحضّر خططاً في كل الاتجاهات، سيناريوهاتٍ لا تقل جنوناً بعضها عن البعض الآخر. وأيضاً لا تقل إنذاراً بالموت.

اجتماعٌ جديدٌ للمناقشة. يكرّر كلٌّ منا آخر جملةٍ تلفّظ بها البدين كأنها حكم. حكمٌ بالموت. يذهب ويليام ويجيء مرّاتٍ عديدةً بيننا وبين الخارج، لاستخدام جهاز لاسلكي إحدى السيارات والنقاش مع المسؤولة عن الصليب الأحمر الدولي، ليعرض عليها مخاوفنا، ليحاول التفاوض على وجودها، الضروري بالنسبة إلينا. يبدو الرحيل من دون ضمانة سلطة حمايةٍ أمراً غير مقبولٍ إطلاقاً. على الطرف الآخر من الجهاز، تتفهّم المرأة الشابة كل تحفّظاتنا وتطلب منا التفاوض على أعلى مستوى لتحصل على السماح لها بالدخول إلى بابا عمرو.

يفقد رئيس الهلال الأحمر صبره. يبدو متوتراً. ينظر إلى ساعة يده عدّة مرّات، يدور حول السيارة التي يوجد فيها ويليام. فجأةً ومن دون سابق إنذار، يأمر فريقه بأكمله بالعودة إلى سياراتهم وبالرحيل. تدور المحرّكات، مصابيح السيارات مضاءة... حين يغلق ويليام السماعة، يعده رئيس الهلال الأحمر السوري بالعودة بأسرع وقتٍ ممكنٍ مع زميلته من الصليب الأحمر الدولي. «ينبغي أن نحمل جرحى إلى مشفى حمص، ثمّ سنعود، إن شاء الله!» يصعد إلى السيارة الموجودة في المقدّمة وينطلق الموكب، ثمّ سرعان ما يختفي في آخر الشارع.

مرّةً أخرى، نجد أنفسنا في عتمة بابا عمرو وبصحبتنا أملٌ خفيٌّ بأن تعود سيارات الإسعاف لاصطحابنا، مثلما وعدوا.

في الحقيقة، وبدلاً من النجدة، القنابل هي التي تعود. بإلحاحٍ ودقّة. كانوا يعرفون تماماً موقعنا، كما لو أنّ فرق الهلال الأحمر قد أعطتهم الإحداثيات. أرتجف مع كل انفجار.

بعد أن خاب هذا الأمل الأول، نستأنف النقاش في العتمة، والشكوك تعترينا. هل كان ينبغي أن نصعد في سيارات الإسعاف تلك؟ أن نثق بذلك الرجل الذي كان يقدّم لنا كل أسباب التراجع؟ هل ستسنح لنا فرصةٌ أخرى؟ أتساءل ما سيحدث لساقي؟ هل سأتمكّن من المشي ثانيةً يوماً ما؟ هل سيكون لدينا الوقت للرحيل قبل أن يهاجم الجيش الحي، الهجوم النهائي الذي يُقال بأنه وشيك؟

بانتظار عودةٍ محتملةٍ لسيارات الإسعاف، نقوم بالفرز في حقائبنا. ينبغي أن ننظّف هواتفنا وكرّاساتنا وحتى حساباتنا على السكايب من أيّ صلةٍ محتملةٍ يمكن أن نعرّضها للخطر. أنتزع صفحات كرّاسي... أمحو الأرقام، والأسماء، حتى تلك التي في فرنسا...

نستعرض صلاتنا السورية، مخربشين معظمها على الصفحات التي لا أستطيع تمزيقها. نخفيها بتعديل الرموز الهاتفية وبإضافة مراسلين مزيّفين: تكسي بيروت، بار أومبرو في اسطنبول، وما إلى ذلك. أين نذهب بكرّاس ماري؟ كنا نودّ إعادته إلى عائلتها، لكنه خطيرٌ جداً ويحتوي كمّاً فائضاً من المعلومات. وهو يمكن أن يكلّف كثيراً من النساء والرجال حياتهم، إذا وقع في أيدٍ غير أمينة. ينبغي أن يختفي كل شيء.

أصبح الظلام دامساً الآن. لن يعودوا.

ـ 12 ـ

ليلة 24 إلى 25 شباط/ فبراير

الحجرة غارقةٌ في العتمة. لم تبدُ لي يوماً صغيرةً مثلما تبدو هذه الليلة. لا بدّ أنها الثانية أو الثالثة صباحاً. الجدران تهتزّ مجدداً، كل ثلاث دقائق. انفجارٌ أول أصم، بعيد الإطلاق، وانفجارٌ ثانٍ يجعل كل شيءٍ حولنا يهتز. تأثير القذيفة.

منذ رحيل سيارات الإسعاف، وخلافاً لليالي السابقة، لم يتوقف الرمي. يصعب على الستارة الثقيلة أن تغطّي طقطقة النوافذ التي تتحرّك وتكاد تسقط في كل انفجار. نتقوقع في صمتنا، وتختلط خيبة أملنا بارتياحنا، لأننا قد نجونا من شيءٍ ما.

طيلة ساعات، أعدنا وكرّرنا نقاشات البارحة. وكلّما تحدّثنا عن الأمر، تأكّدت من قرارنا ـ أو بالأحرى من عدم قرارنا ـ، حتى إن كنّا لا نعلم إلى أين سيمضي بنا.

تصبح الضربات أكثر دقّةً. بيتنا هو المستهدف، لم يعد هنالك أدنى شكّ في ذلك. لقد أصابت عدّة قنابل الجدار الصغير الموجود خلف المنزل، ويبدو كأنّ الانفجارات تحيط بنا. إحساسٌ عنيدٌ بسيناريو يتكرّر حيث أنتهي ممدّدةً على طاولةٍ منخفضة، بساقٍ محطّمة. نحن واقعون في

الفخ، محبوسون مثل فئرانٍ في قفص. ننتظر الانفجار النهائي، ذاك الذي سيجتاح الحجرة.

لقد فهمنا ذلك منذ أن غادرت سيارات الإسعاف. دخل عددٌ كبيرٌ من الناس إلى مخبئنا الذي لم يعد له من السرّية سوى الاسم. ترغمنا القذائف التي تصبح كل مرّةٍ أشد قوّةً وأكثر قرباً على الصمت. كما لو أننا لم نكن نستطيع الكلام والتقاط أنفاسنا عند كل انفجار. ونحن نعلم بأنّ الأسئلة عن هوية الزائرين وقدرتهم على التبليغ عنّا عقيمةٌ تماماً.

بعد ساعات، تُغرق أولى أنوار الصبح الحجرة بجوٍّ يملؤه الأمل. لا نعلم كيف سيكون هذا النهار، لكن يكفي أننا نجونا من تلك الليلة. وللاحتفال بهذا الانتصار الكبير، نفتح آخر علبة بسكويت بقيت لدينا. منذ بضعة أيام، أصبح التموين أقل كمّاً، والغذاء أكثر ندرةً. فقد قطع قصف النفق الحيّ عن منفذه الوحيد إلى الخارج، عن قناة تموينه الرئيسية.

الأسوأ هو عدم اليقين الزاحف هذا. ألّا نعلم ما سيحلّ بنا، إن كان الغد سيكون يوم هروبنا، بل حتى إن كنا سنرى الضوء مجدداً.

في الفجر، يعلن جليل أنّ خزّان الماء الذي كان على سطح بيتنا قد دمّر بفعل القصف في الليلة المنصرمة. إنه ذلك الخزّان المعدني الكبير الذي كان يزوّدنا، وبالأخصّ كان يزوّد المنازل المحيطة والمستوصف المقابل بالماء. لم يبق لدينا إلّا زجاجة ماءٍ نصف فارغة وكيسٌ من التمر. من الآن فصاعداً، سيكون الانتظار كل دقيقة، كل ساعة، كل يومٍ أكثر صعوبةً.

ننتظر، من دون أن نصدّق كثيراً، وقف إطلاق النار الذي ينبغي أن يبدأ نحو منتصف النهار، ويسمح لسيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر الدولي بالمجيء لاصطحابنا. لكن بعد الليلة التي مررنا بها تواً، أعتقد أننا كنا سنصعد في أيّ سيارة، بما فيها سيارات الهلال الأحمر.

يتجزأ الوقت على قدر الزيارات العديدة. ناشطو المركز الإعلامي، الأطباء. كلٌّ يحاول أن يطمئننا، أن يقول لنا بأننا سنتمكن قريباً من الخروج، أنهم سيجدون حلاً، إن شاء الله، أنهم سيحمونا وأسلحتهم بأيديهم، وأنه ينبغي المرور على أجسادهم كي يصل إلينا جيش النظام.

على الرغم من المخاطر والتقييدات، يحضر لنا جليل في ذلك المساء طبقاً كبيراً من التمر، يقدّمه لنا بأبّهةٍ في أوعيةٍ بلاستيكيةٍ صغيرة، كلّها مختلفةٌ عن بعضها البعض.

أمام أعيننا المدهوشة، يحكي لنا جليل أنّ أسرةً تعيش بالقرب من هنا هي التي حضّرت ذلك الطبق من أجلنا. هذه اللفتة سخيّةٌ إلى حدٍّ هائلٍ، في حيٍّ يفتقر الناس فيه إلى كل شيء، تُحسب فيه حبّة الرز.

من دون أن يعرفونا، من دون حتى أن يرونا، قدّموا لنا الأثمن، ما ينقصهم. عبر هذا الطبق، نشعر بأننا ننتمي إلى مجموعة سكان، بأننا نتقاسم مصيراً مشتركاً معهم. نحن صحافيون، أجانب، غربيّون، لكنني لم أشعر يوماً بأنني قريبةٌ إلى هذا الحدّ من هؤلاء الناس المحاصرين، الذين يكافحون من أجل بقائهم، وحرّيتهم، والآن من أجلنا.

بدل أن تقسم الفوضى التي يغرق فيها البلد الناسَ وتحتجزهم داخل خوفهم، فإنها تجعلهم أكثر انفتاحاً على الآخرين. التعاون المشترك أولويةٌ، أسلوب حياة، أمرٌ بديهي. وسط المآسي والموت والفوضى، لم أرَ أبداً إنسانيةً بهذه القوة وبهذا الجمال. حين تهرب العائلات من الحي، تترك أبواب بيوتها مفتوحةً كي يتمكن رجال الجيش الحر من الالتجاء إليها. وتترك الحد الأقصى من الأشياء كي يتمكنوا من التزوّد بها. كما لو أنّ السكان لم يعودوا سوى واحدٍ للنضال ضد النظام.

لكنّ حيّ بابا عمرو لا يناضل بمفرده. فكلّ أحياء حمص المحيطة به تتحرّك لتقديم المساعدة وتزويد السكان بوسائل البقاء.

الأحياء السنّية، مثل الخالدية (حيٌّ شعبيٌّ شمالاً) والقصور (حيٌّ

فقيرٌ شمالاً) والقرابيص (حيٌّ ميسورٌ غرب الوسط) وجورة الشياح (حيٌّ فقيرٌ شمال الوسط) والغوطة (حيٌّ ميسورٌ غرب الوسط) وحمص القديمة (حيٌّ منقسمٌ بين الجزء المسيحي والآخر الإسلامي) متضامنة. يستطيع المتمرّدون أن يأتوا إليها ليرتاحوا، وبانتظامٍ يتم إرسال أكياسٍ من الخبز والرز من ركنٍ إلى آخر، وفق الحاجات.

ذات مساء، شرح لي علي، أحد الأطباء، دور المخيّمات الفلسطينية الواقعة في محيط حمص. «هم معتادون على النضال، لذلك يساعدوننا. يوصلون إلينا الغذاء وبعض السلاح».

المسيحيون أيضاً يقدّمون الغذاء والأدوية للمتمرّدين. حكى لي عدّة أشخاصٍ أنّ هذه الأقلية التي تنظر إليها السلطات بعين الرضا تمرّ بسهولةٍ عبر الحواجز من دون تفتيش ما تحمله سياراتها. وقد كرّرت لي عائشة، الممرّضة، في كل زيارةٍ من زياراتها بأنّ المسلمين والمسيحيين مرتبطون. كانت تريني يديها المعقودتين، أصابعها المتشابكة رمزاً لتعاون الجميع ضد النظام.

حتى الساعات الأولى من الثورة، كان أكثر من 30 ألف شخصٍ يسكنون في بابا عمرو. واليوم، لم يعد فيه سوى ظلال. بل أقل. فمن هم الأكثر فقراً، من ليس لديهم مكانٌ يذهبون إليه، هم الذين يبقون. أو الأكثر تمرّداً على النظام. التناقض بين خواء المدينة وصخب الانفجارات يشد الانتباه بقوّة. هذا الجانب غير الواقعي يذكّرني بأفلام الكاوبوي، حين يصل البطل إلى مدينةٍ مهجورة، ولا نسمع إلّا صوت حدوات حصانه على الأرض. يصفق الهواء درفة شبّاك، يمرّ كلبٌ تائهٌ راكضاً. لم يعد يوجد شيء، لا يدوّي أيّ صوتٍ للحياة. إحساسٌ بنهاية العالم، لا تجلبه سوى الحرب.

دمّر النزاع البنايات، لكنه دمّر بخاصّةٍ الحواجز المنصوبة عادةً بيننا، نحن الصحافيين الغربيين، وبينهم، المقاتلين السوريين. حتى حاجز الدين. جميع من يمرّون لزيارتنا يضعون يداً على جبيني لحمايتي، زمن

صلاة، تبريك. لقد تبنّونا. ماضينا وماضي المدينة يختفيان تحت الأنقاض وأصبحنا نعيش في الحاضر فقط.

منذ بداية الثورة، يقدّر عدد القتلى في حمص بألفي شخص. يحكي لنا كثيرون أنهم تعرّضوا للاعتقال أو السجن، فقط لأنهم يسكنون في بابا عمرو. وعلى الرغم من ذلك، نرى في عيونهم الفخر. الفخر بأنهم تغلّبوا على جدار الخوف الذي فرضه النظام، الفخر بهذا التمرّد، بأنهم الثوار.

«قبلاً، كان حيّ بابا عمرو يرمز للمهرّبين والمحتالين. لكن مع الثورة، توحّدت المدينة. ارتكب النظام خطأ مهاجمة حيّ الإنشاءات، فقتل عدّة أفرادٍ من الأسر الكبيرة. اليوم، نحن معاً يداً بيد حتى سقوط النظام». جليل مقتنعٌ بذلك، البرجوازيون والفقراء أصبحوا إخوةً في الثورة. «لقد تعلّمنا جميعاً أن نقاتل، أن نبطل مراقبة الأجهزة الأمنية. كلٌّ منا بموقعه، بأسلوبه، يسهم في هذه الثورة».

يضيف علي: «نحن ندخل عصراً جديداً. سوف تتخلص سورية أخيراً من هؤلاء الطغاة، من العنف والفساد. لطالما اعتقدنا بأنّ ذلك جزءٌ منا، لكنّ السلطة هي فقط من كان يستعبدنا».

بعد ثورات تونس ومصر وليبيا، التهبت سورية بدءاً من آذار/ مارس 2011. كان العالم العربي يطالب بنهاية الأنظمة التسلّطية منذ زمنٍ طويل. في كل هذه البلدان، يطمح الشباب للحرية والديمقراطية. إذاً، الثورة في سورية هي ضمن حركة الثورات العربية عينها. الفارق الوحيد هو طبيعة النظام المختلفة تماماً. في تونس ومصر، يتحكّم زعيم البلد بكلّ شيء، ولا سيما الجيش، وبالبيروقراطية وكذلك بجزءٍ من البرجوازية. لكنّ جميع تلك المكوّنات تمتلك استقلاليتها. ولذا، تمكّن الجيش في هذين البلدين من الانفكاك عن السلطة والوصول إلى إسقاط النظام.

في سورية، العلاقة بين الجيش والسلطة أقوى بكثيرٍ، وهي مؤطّرة. تنتظم الدولة حول عددٍ قليلٍ للغاية، أسرٍ وأعضاء في الطائفة العلوية.

ذات مساء، وبينما القذائف تمطر، ينام جليل بسلام. بعد بضع دقائق، يبدأ بالشخير بصوتٍ مرتفع. يبتسم رجلٌ إلى جانبه. «القذائف تهدهدنا، وربما نشتاق إليها حين ينتهي ذلك كله». يقهقه. «أنتم تسمعون، هكذا يدعونا إلى تصديقه، إلى اتباعه والوثوق به. هل هذا صوت الديمقراطية؟ نحن لا نعرفها، لأننا نعيش تحت نير الأسد منذ زمنٍ طويلٍ جداً».

الفكاهة سلاحٌ فعالٌ للحفاظ على المعنويات، في حين لا يتغلّب أيٌّ من أطراف النزاع. جميع تفاصيل الحرب تترجم إلى نكت. مدينة حمص معروفةٌ في البلاد بفكاهة سكانها.

«إنهم يجدون دائماً وسيلةً للضحك من كل شيء. هم ملوك التلاعب بالكلمات». المتحدّث فلّاح. أو بالأحرى كان فلّاحاً. فمنذ عدّة سنوات، أتى ليجرّب حظّه في حمص. يحاول دخول أحد مصانع المدينة. في البعيد، حتى ليلاً، يميّز المرء دخان المداخن الرمادي. إنه مصنع سيارات شركة إيران خودرو الإيرانية. وبمحاذاتها تماماً، المصفاة التي تمّ قصفها منذ بداية التمرد كي لا يستخدمها النظام، وهي لم تعد تعمل.

آلافٌ مثله، كلّهم عاطلون عن العمل، سلكوا طريق التمرّد بمجرّد أن أشعل أهل درعا الشرارة. «لطالما كانت حمص وحي بابا عمرو ضحية الحرمان. بشار يبني عماراتٍ كبيرةً وجميلةً لعائلته العلوية. ونحن، ماذا نفعل؟ هل نُعامل كالكلاب لمجرّد أننا من السنّة؟»، يقول زائرنا بانفعال.

هذه المساواة الاجتماعية التي لا توجد في البلد هي المطلب الرئيس للسوريين. إذ يحتكر جزءٌ ضئيلٌ من السكان، من أعضاء الطائفة العلوية مثل عائلة الأسد، أي من أعضاء أحد فروع الشيعة، كل المناصب الإدارية. وهذا يتواصل منذ عقود، وفي الحقيقة منذ وصول عشيرة الأسد إلى السلطة في عام 1970.

«مهما سجّلنا أنفسنا في المسابقات وحضّرناها بجدّية، فليس لدينا أدنى فرصةٍ منذ البداية. لأننا لسنا جزءاً من الطائفة الكريمة، لأننا لسنا

أعضاء في حزب البعث، حزب آل الأسد». الجميع من حوله يهزّون برؤوسهم بهيئةٍ مسترخية. كما لو أنّ هنالك غشّاً، كما لو أنّ كل شيءٍ محسومٌ سلفاً بالنسبة إليهم.

قبل أن نصل، قبل أن ينهال على بابا عمرو هذا الوابل من القنابل، كان الناس يتظاهرون. الرجال، شيباً وشباناً بل حتى أطفالاً. كانوا يخرجون من المسجد، على بعد بضعة شوارع من هنا، ويهتفون معاً: «تكبير» و«اللّه أكبر». هذه الجملة القصيرة هي من أكثر الجمل استخداماً بين المسلمين. وهي تسمح بالتعبير عن فرحٍ كبيرٍ أو صرخة حرب.

مسلّحين بالأعلام واللافتات، كانوا يمشون ويهتفون شعاراتٍ من أجل سورية حرّة. بل ربما كانوا يمرّون في هذا الشارع. على الجانب، كانت النساء يشجّعنهم بالنظر، بل يهتفن هنّ أنفسهن أيضاً. في الأسابيع الأخيرة المنصرمة، أصبحت المظاهرات أقصر زمناً. ففي وقتٍ معيّن، كان جميع سكان الحي يلتقون في الشارع، هاتفين كراهيتهم للنظام لبضع ثوانٍ، ثمّ يعودون للاختباء وتجنّب طلقات الجيش التي أصبحت منهجية.

من أين يستمدون القوّة للسير في الشوارع حين يعلمون بأنّ الموت ينتظرهم، قريباً جداً، مترصّداً، في عين مصوّب القنّاص المتمركز بحيث يغطّي مظاهرةً كاملة! كل يوم، ينزلون ويهتفون بكلّ حقدهم على النظام، وحزنهم لرؤية بلدهم وآمالهم في الغد تتمزق. كيف كانوا يتمكنون من مواصلة الكفاح، حين كان الجرحى يسقطون على بضعة أمتارٍ منهم؟

عاش السوريون طويلاً خشية السلطة، رجل الشرطة، الجار. لقد انهار جدار الخوف هذا، مع ارتفاع حصيلة الأشخاص المقتولين.

اليوم، أصبح الوضع خطيراً جداً. وفي حين تنهار المدينة في اللامبالاة العامة، يواصل الرجال التظاهر، لكن في قلوبهم، بعيداً عن القنابل والدم.

من سطح منزلنا، يحكي لي جليل بأنّ المرء يخمّن جامعة حمص شرقاً ووسط المدينة بعيداً. أبنيةٌ قيد الإنشاء، بل ربما متاجر، حياة. أودّ الصعود لأرى ذلك، لأرى ضوء النهار الذي يسقط على الحي. لكن على كل حال، لا يمكن الصعود على السطح، ففي ذلك خطرٌ كبير، لأنه ظاهرٌ لقنّاصي الجيش. القنص هو الوسيلة الوحيدة، مع القنابل، للمسّ بالحي الذي لا يستطيعون دخوله.

أتخيّل هؤلاء الرجال، مختبئين، بعيداً عن الأنظار، ينتظرون دخول هدفٍ إلى زاوية تصويبهم. جميع من يمرّون ضمن مدى سلاحهم فرائس محتملة، رجالاً أو نساءً أو أطفالاً، مسلّحين أو غير مسلّحين. لم يعد القنّاص يميّز. وجوده يجعل بعض التقاطعات أو الشوارع غير متاحةٍ مطلقاً. يحتفظ الجيش النظامي بمواقعه بفضل رجال الظلّ هؤلاء، ويتقدّم شيئاً فشيئاً بدباباته. حياً بعد حي، يحاول استعادة المناطق التي تحوزها المعارضة. يحيط بالمتمرّدين ويحاصرهم، وشيئاً فشيئاً يضعفهم، إلى حدّ تدمير كل شيءٍ على طريقه.

بعد معركة حمص، تكثّفت المعارك في الشمال، حول مدينة حلب. وكشفت المعارك اليومية التقنيات عينها. تتمركز قوات النظام في المناطق التي يقال إنها موالية لمهاجمة أحياء المعارضة. أصبحت المعارك تتمّ عن بعدٍ على نحوٍ متزايد. شوارع بأكملها مُحيت عن الخارطة.

ومثلما هي الحال في شمال البلاد أو في بعض ضواحي دمشق، سيطر الجيش الحر على بابا عمرو. يحاول زرع الأمل، ولو كان أملاً ضئيلاً، في تغيير النظام. دولةٌ داخل الدولة. منطقةٌ حرّةٌ تتشقّق كل يومٍ أكثر من سابقه. «لم نعد نطالب بالكثير، فقط بأن نكون أحراراً في أن نتكلّم ونفكّر ونصوّت!»

لذلك، وكل يوم، يمضون للدفاع عن هذه البقعة الصغيرة من الأرض، بعض الأرصفة والشوارع المخربة، رمز حرّيتهم.

ـ 13 ـ

الأحد 26 شباط/ فبراير 2012

المسؤول عن المركز الإعلامي، أبو حكيم، يدخل إلى الحجرة. ابتسامةٌ كبيرةٌ على شفتيه. هو الذي اعتدنا رؤيته بجبينٍ مقطّبٍ ووجهٍ مشدود، سارحاً في أفكاره، يبدو هذا الصباح شبه مسترخٍ. بعض الأسئلة المهذّبة للسؤال عن حالنا، ثم يجلس متربّعاً أمام الموقد النفطي ويشعل سيجارة غولواز. يبقى صامتاً لبضع دقائق، بابتسامةٍ مواربةٍ وعينين لامعتين، كطفلٍ يحضّر لشيءٍ ما.

فجأةً، تنقضّ قذيفةٌ أخرى قرب المنزل. لا أكاد أستعيد أنفاسي حتى يهتف أبو حكيم قائلاً: «تصويت!» وبعد أن يقهقه بقوّة، يتابع: «بشار الأسد يكتشف الديمقراطية، يبذل جهده. وبما أنهم لم يتمكنوا من وضع مكتب تصويتٍ في الحي، فإنه يرسل لنا هذه القذائف». وتنتشر ضحكة أبي حكيم لتصبح ضحكةً جماعيةً مجنونة. الأولى منذ وقتٍ طويل.

تذهلني قدرة السوريين على الضحك من كل شيء، حتى من أشد الأمور مأساويةً. منذ بضعة أشهر، يستيقظون وينامون على صوت إطلاق النار، على تساقط القذائف، ويجدون، على الرغم من ذلك، القوة لتحويل كل شيءٍ إلى موضوع سخرية.

اليوم، أكثر من 14 مليون سوري مدعوّون للتصويت على النص الذي يقيم «التعددية السياسية»، بإلغاء المادة الثامنة حول سيطرة حزب البعث، لكنه يبقي صلاحياتٍ واسعةً للرئيس. يستند حزب البعث منذ أن أسّسه ميشيل عفلق وصلاح الدين بيطار في الأربعينيات على القومية والاشتراكية العربية. سرعان ما تلقّفته عائلة الأسد التي نسيت المبادئ اليسارية لخدمة عشيرتها الخاصة.

منذ الثمانينيات، تطالب المعارضة بإمكانية وجود أحزابٍ أخرى في المشهد السياسي. وقد شجب كل من المعارضة والمجتمع الدولي هذا الاستفتاء، ووصفاه بأنه مسخرة. «الأمر مثيرٌ حقاً للسخرية. دفع العالم للاعتقاد بأنه ديمقراطيٌ جيد، بأنه سمعنا. في حين تواصل قوات النظام ودباباته إطلاق نيرانها على المدنيين. نحن لا نعرف حتى لماذا ينبغي أن نصوت. الخيار شائك، معه أو معه!». يميل إلى الوراء بضحكةٍ قويةٍ رنانةٍ، ويتابع: «إنها مسخرةٌ هائلة. يتصرّفون وكأنّ كل شيءٍ على ما يرام، كما لو أننا سنصوّت على هذه الإصلاحات العفنة».

كلّما دخل رجل، أسأله عن هذا الاستفتاء. لكن لا يبدو أنّ أحداً يعلم ما هو الموضوع المطروح للتصويت عليه. هذا أشبه بحركةٍ تقوم بها السلطة للتظاهر بأنها تبذل جهوداً، لترضي المجتمع الدولي. لتلعب لعبة الديمقراطية.

في الحقيقة، السوريون مدعوّون للتصويت على نصٍّ من المفترض أنه يخفّف سلطة حزب البعث. في بداية الحركة الاحتجاجية، كان إلغاء ذلك البند أحد المطالب الأساسية للمعارضين الذين يطالبون الآن برحيل بشار الأسد.

في المقابل، لا شيء عن إعادة النظر بسلطات الرئيس، لا شيء عن انفتاحٍ على المعارضة، عن حرية التعبير، وهي مطالب أساسيةٌ للحركة.

وبما يشبه الرد، قررت أوروبا فرض عقوباتٍ جديدة على سورية. إجراءات اقتصادية يفترض فيها أن تزعج النظام وترغمه على الخضوع.

لكن على الأرض، الناس هم من يموتون جوعاً، ببطء. كل يوم، تتناقص الاحتياطيات الغذائية. نحن نتصاغر، لا نطلب شيئاً. ذابت كومة الحلوى الصغيرة قرب سريري. أكياسٌ من الموالح أو من قطع المعجنات الصغيرة المُحلّاة أكثر مما ينبغي، والكيميائية التي لم نكن نريد أن نأكلها قبل بضعة أيامٍ فقط. بدافع الجوع، وأيضاً لنشغل أذهاننا، لنطرد مخاوف الليل، للتفكير بشيءٍ آخر غير القنابل التي لا تزال تتساقط علينا. لم يعد هنالك خبزٌ ولا معكرونة ولا ماء. لا نعلم إلى متى سنبقى هنا. حتى الآن، كان الجيش الحرّ يفلح في إدخال غذاءٍ يكفي للجميع إلى بابا عمرو.

اليوم، أصبحت الضرورة في مكانٍ آخر. إذ يمكن أن تدخل قوّات النظام بين دقيقةٍ وأخرى. الرجال ينظّمون المناوبة، ولا أحد يفكّر في وجبته التالية. كل دقيقةٍ تقرّبنا من هذه النهاية التي أصبحت تبدو حتمية. الجميع يحضّرون أنفسهم لها، كلٌّ بطريقته. بعضهم يصلّون، وآخرون يقاتلون بحميّة اليأس.

في الجانب المقابل، داخل المشفى، الوضع حرج. هنالك ما يتجاوز نقص الغذاء، فالأطباء ينظرون بخوفٍ إلى مخزونهم من الأدوية وهو ينفد. أصلاً ليس لديهم كثيرٌ منها، لكن سيصبح الوضع أصعب حين لا يعودون قادرين حتى على تقديم حدٍّ أدنى من المسكّنات لتخفيف ألم طفلٍ قُطعت ذراعه. كيف يستطيع المرء أن يسمّي نفسه طبيباً حين لا يعود لديه ما يعالِج به؟ الإحساس بعدم النفع والعجز يجعلهم يستشيطون غضباً.

وأنا، المثبّتة على سريري أنتظر. أنا وساقي الميتة أعيق أصدقائي من أن تكون لديهم فرصةٌ للهرب ولتجنّب حمّام الدم الوشيك. أدرك ذلك جيداً، فجيش بشار الأسد قد يتدخّل في أي لحظة. دباباته متموضعةٌ في مدخل الحي. ماذا ينتظرون إذاً؟

لقد انتظروا إلى اللحظة الأخيرة، إلى حين جاء أكبر عددٍ من تعزيزات جنود الجيش الحر لمساعدة سكان بابا عمرو. وحينذاك فقط سحقوا الحي، داسوا على أمل جميع أولئك المقاتلين.

ـ 14 ـ

الأحد 26 شباط/ فبراير 2012، الساعة التاسعة مساءً

هبط الليل منذ عدّة ساعات. مضت خمسة أيامٍ على وجودنا هنا.

الحجرة صامتة. نحن منهكون، جسدياً ومعنوياً. متعبون من الآمال الخائبة، متعبون من الانتظار.

ندخّن حتى لا نعود قادرين على التوقف. وأنا أسحق سيجارتي الوينستون الألف هذا اليوم، أسمع أبي يزمجر، كما يفعل في كل مرّةٍ أتورّط فيها بإشعال سيجارةٍ أمامه. فهو، بوصفه مدخّناً سابقاً، أشدّ عداءً للتدخين من اختصاصيٍّ في السرطان. ثمّ يلي ذلك دائماً شجارٌ بين أبي وأمي التي عادت إلى التدخين مؤخراً بعد سنواتٍ من شبه الامتناع.

أمي. منذ أن كنت صغيرةً جداً، علمت دائماً ما سأفعله بحياتي، حتى قبلي أنا نفسي. كانت تعلم، حدساً، بأنني سوف أكون يوماً ما صحافيةً، بأنني سأسافر إلى مناطق غير مسالمة.

حين خُطف كريستيان شينو وجورج مالبرونو، ثمّ فلورانس أوبينا في عامي 2004 و2005 في العراق، عاشت أمي تلك الأيام من التوتّر بخوفٍ عميق، قلقةً على مصيرهم وكأنهم أقرباء، أشخاصٌ حميمون، عائلتها.

وحين تخصّصتُ بالعالم العربي، لم تعترض رغم مخاوفها. صحيحٌ أنها كانت تحاول إثارة اهتمامي بمناطق أكثر هدوءاً ـ سويسرا أو النمسا مثلاً. كانت تقول لي حين كنت أتحدّث عن غزّة أو عن أفغانستان: «بينيلوكس أو أيسلندا جيدة أيضاً!». ثمّ تستسلم أمام ابتسامتي الساخرة.

أمّا أبي، فيستخدم الأسلحة التي يتقن استخدامها أكثر من غيرها: البراغماتية والمعرفة. قبل كل رحلةٍ لي، يجب عليّ أن أسلّمه مساري، مثلما يسلّم طيّارٌ خطّة طيرانه إلى برج المراقبة، أو مثلما يسلّم متظاهرون مسارهم إلى البلدية. فيغلق أبي عندئذٍ باب مكتبه عليه ويطالع خرائط غوغل، يطبع خريطةً ويتبع تحرّكاتي يوماً بعد يوم. بل يجري تحقيقاً معمّقاً عن كل مكانٍ من المفترض أن أذهب إليه، حتى يعرفها تقريباً أفضل مني. عدد المسيحيين في سورية، مناطق النزاع في السودان، عدد الاعتداءات في العراق أو أسماء الرهائن في الصومال... على مدى تحقيقاتي الصحفية، أصبح خبيراً حقيقياً ولا يتوانى عن إحراجي علناً بصدد هذه المنطقة أو تلك في العالم وخصائصها الجيوسياسية.

أخي هو نقيضي الدقيق. فهو مرتّبٌ بقدر ما أنا فوضوية، دقيقٌ في مواعيده بقدر ما أتأخر دائماً عن مواعيدي. نحن مختلفان إلى حدّ أننا أصبحنا لا نفترق. فأخي موضع أسراري الثابت والأمين، وهو موجودٌ كلّما سافرتُ وكلّما عدت. ثقته بي تمسّ شغاف قلبي وتساعدني على التقدّم. أفكر به، بهم، بمخاوفهم، بآمالهم. بعائلة ريمي أيضاً.

يدخل علي عثمان ورجلان آخران إلى الحجرة، فيقطعان سباتنا. هم مضطربون، مستعجلون. ببضع جمل، يضعوننا في صورة الوضع.

يتم تنظيم رحيلٍ هذا المساء. سوف يتمّ إخلاء جميع جرحى الحيّ عبر النفق الذي أصبح متاحاً مرّةً أخرى. ونحن جزءٌ من القافلة. يخشى الجيش

الحرّ هجوماً جديداً واسع النطاق. يمكن أن يسقط الحيّ في الأيام القادمة. لم يعد ممكناً تأخير الإخلاء.

ينبغي أن نحضّر أنفسنا بسرعة. ريحٌ من الهلع. ينهض الجميع وينكبّون على الحقائب. لم أعد أشعر بالألم، وألتوي كي أرتدي كنزاتي. الليل صقيعيٌ في الخارج ونحن لا نعلم كم من الوقت ستدوم الرحلة. يذهب جليل ليحضر لي ثوباً طويلاً وحجاباً لإخفاء ملامحي حين نخرج من النفق. بول أيضاً يحتاج إلى حذاء، فقد ترك حذاءه في المركز الصحفي، صباح الانفجار.

نحضّر أنفسنا ونحاول تذكّر كل شيء. يدسّ ويليام في حقيبتي قطعة بسكويت مغطس بالشوكولاه، كان يحتفظ بها لنا لحالات الطوارئ. يجمع خافيير كراسات ملاحظاته وأوراقه وأقلامه ويتناول معطفي. يرتّب ويليام في حقيبتين أغراضه وأغراضي وأغراض ريمي. لكأننا أطفالٌ يمضون إلى مخيّم العطلة. القلق، المجهول، حماسة اللحظة المنتظَرة، التوتر... كل شيءٍ يختلط.

بعد ترتيب الحقائب، يذهب ويليام بحثاً عن لوحٍ يمكن أن يكون نقّالةً لي. منذ عدّة أيام، يحاول أن يفكّ باب خزانةٍ في الممر تحسّباً. وكلّما عاد الأطباء إلى المستوصف، يستغلّ لحظة هدوءٍ ليحاول فكّ الباب. بضع دورات برغي، بالأصابع، حين يستطيع ذلك. ويليام يفكّر بكلّ شيء، حتى باحتمال ألّا يتمكّنوا من إيجاد نقّالةٍ لي لحظة الرحيل. لذلك ينظّم نفسه. لكنّ بعض البراغي لا تزال تقاوم. ينكبّ ويليام عليها. يعود جليل ومعه ثوب. جلابيةٌ طويلةٌ بنّية اللون، قماشها ناعم، بلآلئ وردية على طولها.

يمرّ الأطباء لتفقّد حالتي. ومن هيئتهم ووشوشاتهم، أرى أنهم قلقون. يتحدّثون عن صمّامةٍ رئوية، عن نزيف، عن أزمةٍ قلبية... إن كنت قد فهمتُ جيداً ما يقولونه لي، ربما لا أخرج حيّةً من عملية الانتقال هذه.

أحاول ألّا أسمع، أن أبدو قويّةً ولامبالية، واثقةً من نفسي ومن متانة

جسمي. في الحقيقة، أنا أموت خوفاً. هل أبقى هنا أم أخاطر بكل شيءٍ تجنّباً للأسوأ؟ لست من النوع الذي يقامر، لكنني لم أعد أتحمّل وجودي هنا.

أشدّ على يد جليل لأطمئن نفسي. إنه حزينٌ لرؤيتنا على وشك الرحيل. نخفي الانفعال بابتساماتٍ عريضة. يتحقّق مرّةً أخيرةً من الوصفات، ويحقنني بإبرةٍ مضادةٍ للألم. الطبيب يراقب بطرف عينه ويقيس ضغطي. يبدو كل شيءٍ على ما يرام، كأنني شبه معافاة.

قرابة الساعة العاشرة ليلاً، تصل مجموعةٌ من جنود الجيش الحر ومعهم نقّالة. يرفعونني عن السريرمن دون مراعاةٍ ويضعونني عليها. مثلما أنا، بالكنزات والسروال الداخلي. يلفّني ويليام بغطاءٍ ويربطني بشريطٍ لاصقٍ ممّا يستخدمه التلاميذ. إنه الشيء الوحيد الذي استطاع العثور عليه لتثبيتي على نقّالتي وتأمين حدٍّ أدنى من الثبات لي. يدور حولي مرّاتٍ ومرّاتٍ ويحتفظ ببعض الشريط اللاصق لما بعد، للنفق.

يتراءى لي أنني أصبحت قطعةً واحدةً مع النقّالة. لم أعد أستطيع رفع ساقيّ ولا جسمي، فهي مربوطةٌ بقوّة. ذراعاي فقط، اللتان بقيتا حرّتين، تسمحان لي ببعض الحركات. لبست كنزاتي كي لا أبرد في الخارج. أشدّ الأكمام التي لا تزال مليئةً بالغبار منذ الانفجار. بعض الركام لا يزال ملتصقاً بها. أحاول نزعه، عبثاً. ألتقط في طريقي علبة سجائر. التدخين هو الأمر الوحيد الذي أستطيع فعله.

بول وخافيير أصبحا في الخارج. لم يبق إلّا أنا وويليام. ننتظر السوريين الذين سيحملونني. نظرةٌ أخيرةٌ إلى تلك الغرفة، المحبوبة والمكروهة. مشاعر متناقضةٌ مرّةً ثانية تجاه الخلاص بالرحيل، أخيراً، والقلق من الوجود خارجاً، من دون ملجأ، من دون ملاذ، بمتناول النيران المعادية. أتشرّب تلك الحجرة، أنظر مرّةً أخيرةً إلى كل تفصيل، إلى كل تشقّق، إلى المنفضة الزجاجية المدوّرة التي حاولنا أن نسحق فيها مخاوفنا. سنخرج

أخيراً من هذا البيت الملعون. وحده جليل غائب. لقد اختفى، تبخّر، مباشرةً بعد أن ودّعنا.

يصل السوريّان. يضع ويليام على ظهره حقيبته الهائلة الحجم، يضع على كتفه حقيبته الأخرى وعلى الجانب الآخر حقيبتي. نحن مستعدّون. أثناء الخروج، ألقي نظرةً على الغرف الأخرى، الصالة التي ينام فيها الأطباء، الممر الأبيض حيث يجفّ الغسيل على الحبال. بضعة أمتارٍ إضافية ونصبح في الخارج. يلفح وجهي برد الليل. أتنفّس مجدّداً هذا الهواء البارد وكأنها المرّة الأولى. في عتمة الليلة غير المقمرة، تبدو مجرّة درب التبّانة رائعة.

في الخارج، تقف عدّة سياراتٍ محرّكاتها دائرة. مدنيون، مصابون أو غير مصابين، يجلسون فيها. الأطباء يساعدون أقلّهم قدرةً على الحركة، الجيش الحرّ ينظّم التحميل. يتحرّك الجميع بصمتٍ غريب. إنها أول مرّةٍ أرى فيها كل هذا الحشد من الناس في الشارع.

يضعني السوريون في مؤخّرة شاحنةٍ صغيرةٍ مغطّاة. إلى جانبي، رجلٌ أسمر ملتحٍ يستلقي داخل غطاء. يبدو سيئ الحالة حقاً. لثانية، يدير نظره صوبي. يكاد وجهانا يتلامسان وفي نظرته العاتمة، أقرأ ألماً لا يمكن وصفه. في الثانية التالية، يغلق عينيه مرّةً أخرى. لا يتكلّم، بل يصدر فقط بعض التأوّهات. يأتي ويليام وخافيير للتأكّد من أنني موضوعةٌ كما ينبغي. نحن لا نسافر في السيارة نفسها وهذا الأمر يقلقني. يعلم ويليام ذلك ويأتي ليكرّر على مسامعي الوعد الذي قطعه لي: «سوف ننجو، سوف ننجو!». وفي حين يعود إلى سيارته، أحتفظ في قاع ذهني بآخر جُمَله.

خلفي، في داخل سيارتي، يلعب رجلٌ يرتدي طقماً وشابٌّ صغيرٌ في الخامسة عشرة من عمره تقريباً دور مرافقة المرضى. لا أرى إلّا الابتسامة العريضة للشاب الصغير، التي ينشرها فوقي. تقلع السيارة أخيراً. في المطبّات الأولى، يشدّ ذراعيّ على صدري ليمنعني من أن أتحرّك أكثر من

اللزوم. هذا الضغط يهدّئ روعي. بين حينٍ وآخر، يضع يده على جبيني بكثيرٍ من العذوبة.

تبدو لي الرحلة أزليةً. يهدهدني صوت المحرّك. وبين حينٍ وآخر، ألمح صاروخاً مضيئاً في السماء. أخيراً، رؤية الخارج، السماء، الأزقة، أولى الحقول، بعض الأشجار، تجعلني ألمح حريتنا التي نكاد نستعيدها. لكنّ هذا الإحساس العذب يصطدم بدويّ أصوات إطلاق النار. يصعب عليّ تعيين مصدرها ومسافتها، لكنها لا تبدو بعيدةً عنا كما أنها تصبح أكثر كثافةً. وعلى الرغم من غياب إدراكي للزمن، أستسلم للحلم بأننا سنصل مباشرةً إلى القرية المجاورة، خارج المنطقة المحاصَرة، من دون المرور بذلك النفق المريع. مجرّد التفكير بالعودة إلى النفق تبث الرعب في نفسي، وكذلك تحذيرات الأطباء حول المخاطر التي تحيق بي. كيف يتعرّف المرء على أولى أعراض الصمّامة؟

فجأةً، تتوقف السيارة. وصلنا إلى النفق. يوافيني ويليام في حين يضعونني على مدخل بناء، بمحاذاة فتحة النفق. يضيف نحو عشرين دورة شريطٍ لاصقٍ حولي. يستحيل أن يتحرّك أيّ جزءٍ من جسمي.

رحل بول مع الموجة الأولى. الجرحى والجنود بدؤوا ينزلون في النفق. بلاطة خرسانية، سلّمٌ معدني بارتفاع خمسة أمتار. قريباً يأتي دورنا. نحن الأخيرون.

للحظة، أخاف أن يعلن أحدٌ لنا بأنهم لا يستطيعون السماح لنا بالمرور، بأنّ النفق مليء. في الحقيقة، لا أدري ما الذي أخافه أكثر، البقاء أم الذهاب. يبدو لي النزول، من دون ساقيّ، مسمّرةً كالنقانق إلى لوحٍ بالشريط اللاصق الشفاف، مستحيلاً.

بعد نظرةٍ أخيرة، يختفي ويليام في الفتحة. وحدي على البلاطة

الخرسانية، أحاول أن ألمس الأرض للمرّة الأخيرة بطرف أصابعي. نوعٌ من التوسّل للقدر، من التأكّد بأنني سأراها ثانيةً. لكنني ألمسها رغم ذلك. من يدري؟

يربط رجلٌ حبلاً أعلى حمّالتي. ثمّ ينزل الحمّالة بهدوءٍ نحو الفتحة. ينتصب جسمي المعلّق. أصبح الأسفل في الفوهة. أحاول ألّا أنظر، ألّا أرى قاع التجويف. وبعد أن أصبح بوضعٍ شاقوليٍّ تماماً، يبدأ النزول، ويختبر الرجال مباشرةً صلابة الشريط اللاصق. لديّ رغبةٌ كبيرةٌ في إخراج ذراعيّ والتمسّك بالسلّم، لكنّي أخشى من زعزعة استقرار الفريق. فأغمض عينيّ، أتنفّس، والأهم أنني لا أتحرّك. أشعر برطوبة الحجارة على وجهي، برائحة حديد السلّم الصدئ الممتزجة برائحة عفونة القبو التي تنبعث من النفق والتي أتعرّف عليها.

بعد بضع ثوانٍ في الظلام الدامس، أشعر بأنّ أحداً يمسك بأسفل الحمّالة. أفتح عينيّ أخيراً. ويليام مقابلي. مرّت المرحلة الأولى. ممدّدةً على الأرض، أتعرّف على جوانب النفق المرتفعة والرمادية. هي أعلى بكثيرٍ ممّا أتذكر. في الوقت نفسه، يبدو كل شيءٍ أعلى حين تكون ممدداً على الأرض. أسمع صوت خطوات من ذهبوا قبلنا. وكذلك صوت درّاجاتٍ نارية. لا مصابيح يدوية، والرجال ينيرون الطريق بهواتفهم النقّالة التي تنشر ضوءاً أمْيل للزرقة.

تأتي مجموعةٌ صغيرةٌ من الرجال لملاقاتنا. يمسك بي اثنان منهم. وزن حمّالتي ثقيلٌ جداً. أتقدّم ورأسي في المقدّمة. لا أرى إلّا الرجال الذين وراءنا، عددهم يتناقص بسرعة، فجميعهم يتجاوزوننا شيئاً فشيئاً. سرعان ما نصبح وحدنا.

يبدأ الزحف الطويل. تسير المجموعة ببطءٍ إلى حدّ أنني لا أرى كيف سنتمكن يوماً من بلوغ الجانب الآخر. أركّز على تنفّسي. تجوب رأسي كلمتا صمّامة ونزيف. أحاول أن أُبعد مخاوفي، أن أبتسم، أن أصدّق نجاحنا قليلاً.

يبقى ويليام قربي. يضيء خطوات من يحملونني. أنا وحمّالتي ثقيلان إلى درجة أنّ الرجال يضطرّون إلى التناوب بصورةٍ متواترة، ويحتاجون إلى الراحة قبل استئناف المسير.

يلحق بنا شابٌّ صغير. يمسك بحمّالتي من جانب قدميّ ويمضي وقته في الابتسام لي. تبدأ آنذاك محادثةٌ غريبةٌ بين النظرات. يبتسم واحدنا للآخر. ينفخ على وجهي ليمنحني بعض الهواء. أوجّه الضوء الذي أعطاني إيّاه أحد السوريين إلى السقف لتسهيل تقدّمهم. نبتسم واحدنا للآخر مجدداً. على الرغم من سنواته الست عشرة، فإنه أشبه بالطفل. يقول لي إنه عضوٌ في الجيش الحرّ، إنه يقاتل معهم. يمدّ لي يده بمسبحة صلاةٍ أمرّرها بهدوءٍ بين أصابعي لأشغل نفسي وأهدّئها.

أول جزءٍ لا ينتهي. الحرارة تصبح خانقة. نصل أخيراً إلى الأنبوب الأول. كل جزءٍ من النفق مقسومٌ بأنابيب تهوية، سقفه أعلى، التنفّس فيه أفضل. بضع دقائق راحة.

تأخّرنا. بقية الموكب بعيدةٌ الآن. خافيير وبول معهم. لم نعد نميّز ضجيجهم. نستأنف ببطءٍ، ببطءٍ متزايد. تتجاوزنا عائلاتٌ وجرحى. تمرّ امرأة. لا أرى إلّا عينيها، نظرتها المرعوبة. وخلفها، يتبعها أولادها الأربعة. يبدون منهَكين. الأرجح أنهم لم يأكلوا منذ عدّة أيامٍ وتسحقهم الحرارة الرطبة التي تسود في هذا النفق.

دراجتان آليتان تحملان شيوخاً لم يعودوا قادرين على المشي، يجلسون بساقين منفرجتين على المقعد الخلفي متشبّثين به، ويضعون على ركبهم أكياساً كبيرةً لا بدّ أنها تحتوي حياتهم بأكملها. كلّما مرّت درّاجةٌ منهما، لامستني دوّاستها. أحسّ بحرارة غازات العادم على وجهي. وكذلك برائحة البنزين.

الساعات تمرّ. يصبح النفق أعرض. يتناوب الحمّالون على نحوٍ أكثر

تواتراً، فقد أُنهكوا. يأتي ويليام ليعلن لنا بأننا نكاد نصل، لم يبق إلّا نحو مئتي متر.

يأتي رجلٌ نحونا. يبدو قلقاً ويتناقش مع السوريين المحيطين بنا. أفهم نتفاً من كلامهم، ويكرّر الرجل كلمة خطر. لكن حين أسألهم، يتظاهرون بعدم سماعي ويغيّرون الموضوع. هم لا يريدون إقلاقي، ما يثير لديّ بالطبع مفعولاً عكسياً.

فجأةً، تدوّي عدّة انفجاراتٍ في النفق. يأتي رجالٌ لملاقاتنا راكضين. في بضع كلماتٍ يفلتونها بسرعة، يصرخون لمن يحملونني بأنّ الجيش السوري هناك، عند المخرج، وبأنه يجب علينا العودة من حيث أتينا، بسرعة، بأنّ علينا الفرار. يهبّ الذعر على المجموعة.

يمضي الرجال راكضين. أفلح فقط في إمساك يد آخر سوريٍّ كان معنا قبل أن يمضي هو أيضاً. تحت شعره المجعّد، تبدو نظرته التي كانت هادئةً جداً قبل قليلٍ مذعورةً الآن. أتوسّل إليه أن يبقى، ألّا يتخلّى عنّا. يمسك بوجهي، يضع يده اليمنى على جبيني ويتلو صلاةً طويلة. ينهض ويعدنا بالعودة مع النجدة. ينظر إلى ويليام ويتظاهر بحجب وجهه بملابسه ويشجّعه على أن يفعل المثل. إنه يخشى، مثل كثيرٍ من السوريين، استخدام الأسلحة الكيميائية. ثمّ يضع بندقيته الكلاشنيكوف على صدري ويهرب راكضاً.

يستأنف إطلاق النار في الخارج، أقوى ممّا كان عليه. كم من الزمن سيستغرقهم الدخول في النفق والعثور علينا؟ تصبح رائحة البارود الممزوجة برطوبة النفق أقوى، رائحةٌ حرّيفة، معدنية، تخز عيني. ماذا عن خافيير وبول، اللذين مرّا قبلنا؟ وماذا عن كل أولئك السوريين الذين كانوا يرافقوننا؟ تلك العائلات، أولئك الأطفال، هل وقعوا في الفخ؟

جميعهم لاذوا بالفرار. أنا وويليام وحدنا في هذا النفق الغارق في الظلام.

أمامنا، لا نزال نسمع بعض الرجال يتحدّثون بعيداً أثناء هربهم. وفي الخلف، يستأنف إطلاق النار. الدقائق تمرّ، لا يمكن احتمالها. أطول لحظات حياتنا. ويليام وضع حقائبه، يحاول جرّ الحمّالة. نتقدّم بضعة أمتار. لكنّ التقدّم أكثر مستحيل. إنها ثقيلةٌ جداً. أنا ثقيلةٌ جداً.

يجلس قربي. نتبادل النظر. هل نحن في نهاية الطريق؟ هل ستتوقف حياتنا هنا؟ أسأله، غير مدركةٍ للخطر، أن يفكّ شريطي اللاصق. أعده بأنني سأتمكن من أن أمشي الكيلومترات الثلاثة التي تفصلنا عن آخر النفق، عن حيّنا بابا عمرو.

بطبيعة الحال، أنا عاجزةٌ تماماً عن ذلك، وويليام يعرف. فهذه المحاولة اليائسة ربما تفتح جروحي وتؤدي إلى نزيفٍ وتكلفني حياتي. لكننا لا نستطيع البقاء هنا من دون أن نفعل شيئاً. في جيوبنا، لا توجد أي أداةٍ حادة، لا سكين ولا مفاتيح لقص اللفّات الكثيرة من الشريط اللاصق التي تربطني بالحمّالة. تسيل دموعٌ طويلةٌ على خدّيّ. لا أشعر حتى ببكائي. أستشيط غضباً، هنا، في الظلام، مربوطةً بتلك الحمّالة التي يمكن أن تكون نعشي.

يحاول ويليام تهدئتي. يطلب مني الانتظار لبضع دقائق أخرى.

تمرّ الثواني ولا يحدث شيء. ثمّ الدقائق، ودائماً في الظلمة مع رائحة البارود تلك وقلبينا اللذين يدقّان بسرعة.

في البعيد، نسمع ضجيج أحاديث ومحرّك درّاجةٍ ناريةٍ يبدو أنها تتقدّم نحونا. نتوقف عن التنفس، نحبس أنفاسنا ونحن نصلّي أن يأتي أحدٌ لنجدتنا. في ربع ثانية، وبجميع حواسّنا المتيقّظة، نستعيد الأمل. لكنّ الضجيج يبتعد. ويليام ينظر إليّ. لا يجرؤ على التخلّي عنّي، ولو لبضع دقائق. لكن ينبغي أن يفعل. ينبغي أن يذهب ليرى سائق الدراجة النارية، أن يعيده إلى هنا. ينهض ويضع حقائبه قربي. يستدير نحوي ويقول لي

فقط: «سأعود» قبل أن يمضي راكضاً. بعد بضع ثوانٍ فقط، أميّز، بصعوبة، في البعيد، خطواته على الأرض المبلولة.

أنا وحدي. في الظلام. أحاول أن أقوم ببعض الحركات للخروج من كفني، لكنّ الألم أشدّ من احتمالي. ساقي اليسرى ترفض الطاعة، واليمنى ضعيفةٌ جداً. يداي منغمستان في الوحل. ممدّدةٌ أنا على الأرض ولا يصحبني سوى سلاح وحقائبنا.

في ذهني، تتصادم المشاعر. الغضب لوجودي هكذا سجينة هذا النفق. بعد كل تلك الجهود للخروج، لا أريد أن أنتهي على هذا النحو. وإذا متُّ هنا وحدي تماماً؟ ماذا إذا كان آخر شيءٍ أراه هو تلك الجدران اللزجة، وكانت آخر ذكرياتي تلك الرائحة الحرّيفة وتلكما اليدان الدبقتان؟ آسفٌ لأننا ربما لم نتّخذ القرارات الحسنة في وقتٍ أبكر. ماذا كنا نستطيع غير ذلك؟ يبقى بعضٌ من بصيص الأمل، أن يعود ويليام وبجعبته حلّ، أن يكون خروجنا ممكناً أخيراً. أحاول التشبّث بهذه الأفكار كي لا أستسلم.

من عينيّ المغلقتين تهرب بعض الدموع التي لا أسيطر عليها. فجأةً، أشعر بالأرض تحت ظهري تهتزّ قليلاً. أسمع هدير محرّكٍ، خافتاً في البداية إلى حدّ أنني أتساءل عما إن كانت لديّ هلوساتٌ سمعية. يصبح صوته أوضح. إنه يقترب. بعد قليلٍ أميّز عجلةً أماميةً لدرّاجةٍ نارية. ويليام فوقها، وراء السائق. لقد نجح. لقد أعاده.

أخيراً، نتوصّل إلى نزع أربطتي. يقبض ويليام على ذراعي ويساعدني على النهوض. أولاً كي أقف، ثمّ لتقريبي من الدرّاجة. لم أقف منذ عدّة أيام. رأسي يدور. لكنّ الوقت ضاغط. ينبغي أن نسرع، قبل وصول الجيش السوري. يجب أن أصعد على الدرّاجة، بين السائق وويليام. أركّز كي استند على ساقي الصالحة وأثني الأخرى بما يكفي للصعود خلف القائد. الجسم قادرٌ على القيام ببعض المهارات التي لم يكن بوسع الدماغ أن يتخيّلها، من أجل البقاء. يصعد ويليام خلفي، وذراعاه تضمنان بقائي على الدرّاجة.

غصباً عنّا، نجد نفسينا مضطرّين للتخلّي عن الحقيبة الكبيرة التي تحتوي الحاسب ومعدّات تصوير ويليام وريمي. وحتى لو كانت تالفة، فنحن نعلم ما قيمة الذكرى التي لا تُقَدّر بالنسبة إلى عائلته.

ينطلق السائق. نعود أدراجنا بسرعةٍ نحو بابا عمرو. كثيراً ما تقع الدرّاجة الهشّة جانباً لصعوبة جعلها تستقر. كل سقوطٍ يثير ألماً لا يطاق. النفق ضيّقٌ ونحن نلامس الجوانب. بانتظام، تصطدم قدمي اليسرى بالجدار وتجعل ساقي المكسورة تلتوي. ألوي قدمي لأستند على المدوس، وكي لا أتركها تنجرّ على الأرض الموحلة. تفلت مني صرخة. أحاول احتباسها كي لا أقلق السائق، وبخاصّةٍ كي لا أقلق ويليام.

الصمود. ينبغي الصمود، مهما كلّف الأمر. يحاول الرجل الذي يقود الدرّاجة أن يشرح لي ضرورة أن نلتصق به. هذا على الأقل ما اعتقدتُ فهمه، لكنّ الألم شديدٌ بحيث لم يعد دماغي قادراً على أن يضمن أيّ ترجمة. يلصقني ويليام به قدر استطاعته. أتضاءل. ألّا أفكّر بشيء، ولا سيما بالألم، وبالأخص بساقي المتكسّرة.

نمتثل لكلّ أمرٍ يصدر عنه. إلى الأمام. إلى الخلف. نرغب في حسن التصرّف، في تسهيل القيادة على السائق، في إيجاد الوضعية المناسبة. وبالأخص في بلوغ آخر هذا النفق. لديّ انطباعٌ بأنه لا ينتهي، أسوأ من رحلة الذهاب. النفق صغيرٌ إلى حدّ أننا شبه ممددين على الدرّاجة، على السائق. وفي حين أحرّك رأسي قليلاً، أصدم جبيني بالجدار. شعورٌ بالحرارة على خدّي. يسيل الدم على وجهي.

أخيراً، تتباطأ الدرّاجة. نصل إلى هدفنا. هنا حيث مررنا قبل بضع ساعات. ثلاثة رجالٍ إلى جانب السلّم ينظرون إلينا، متسائلين. كان سائقنا قد ذهب لإحضار أحد قادة الجيش الحرّ. لذلك أدهشتهم رؤيتنا.

ثمّ أدرك بأنني بالسروال الداخلي والجوارب، وبأنّ ساقيّ مليئتان بالوحل ووجهي مغطّى بالدم. لا بدّ أن المنظر غير بهيج.

لا يطول أمد الذهول، فسرعان ما يتحرّك الرجال. يريدون مساعدتي على الترجّل من الدرّاجة لكنني أشير لهم بألّا يلمسوني. لا أستطيع النزول إلّا بمفردي. أنا متألمةٌ جداً، وينبغي أن أقيس حركاتي. في البداية تحرير قدمي اليسرى التي ثبّتّها بالدوّاسة لأرغم ساقي على الانثناء. أسنِد قدمي اليمنى على الأرض وأحاول تمرير الأخرى من فوق الدرّاجة. ببطء. أعضّ على شفتي ألماً.

عدم الصراخ، عدم تخويفهم. أقوم ببعض القفزات على ساقٍ واحدة، ثمّ أتمسّك بسوريٍّ هائل الحجم. يقلبني على ظهره ويبدأ صعود السلّم. ويليام خلفنا تماماً. أرى القسم العلوي من طاقيته. أبدأ بالشعور بذلك الهواء الخارجي النقي الذي ظننت بأنني لن أتمكن من تنفّسه ثانيةً. تسكرني تلك الرائحة المثلجة.

بعد إخراجي من الفوهة، لا يلتقط حاملي أنفاسه حتى. يصحح وضعي على ظهره ويمسك بي بقوّةٍ ويمضي راكضاً، متلوياً بين الأدغال. أتشبّث بعنقه بقوّة، أشدّ يديّ على جسمه، في حين تتأرجح ساقاي في ظهره. لا أستطيع أن أثني ركبتي اليسرى. أبذل ما بوسعي كي لا أكون ثقلاً ميتاً بالنسبة إليه، لكنني أشعر بساقيّ تضربان الجزء الخلفي من ركبتيه في كل خطوةٍ يخطوها.

خلفنا، تدوّي الرصاصات. ليست بعيدة. ليست بعيدةً بما يكفي. يقفز الرجل فوق العقبات، ويتراءى لي في قلب هذه الليلة المرصّعة بالنجوم أنه يطير، أنني لا أزن شيئاً. نصل أخيراً إلى منطقةٍ محميّة. تنتظرنا شاحنةٌ صغيرة.

الرجل الذي كان يحملني يضعني باحتراسٍ في الخلف، يستدير نحوي، يشدّ على يدي ويعود ليحضر أشخاصاً آخرين. أنا لا أعرفه، هو لا يعرفني. لقد خاطر بحياته لينقذ حياتي.

ـ 15 ـ

ليلة 26-27 شباط/ فبراير 2012

يناولني السائق زجاجة ماء. وبما أنني لا أبدي ردّ فعل، فهو يسكب قليلاً منه بين يديه ويحاول تنظيف وجهي. لم أعد أشعر بشيء. لم أعد أرى شيئاً. كل شيءٍ حولي يصبح ضبابياً. لا أعود أتعرّف على الوجه الذي ينظر إليّ. لم أعد أميّز الكلمات التي يوجّهها إليّ. جسدي يتخلّى عني. مستندةً إلى الدرجة الخلفية في الشاحنة الصغيرة، أنهار وأغيب عن الوعي لبضع لحظات. يترك الرجل الصغير البدين الذي كان يمدّ يده بالماء لي الزجاجة أرضاً، ويلتقطني بصعوبة، قبل أن أقع أرضاً. بشعرٍ متناثرٍ ولحيةٍ نابتة مع كنزةٍ بيضاء وبنطالٍ رياضيّ بنّي، يحسب المرء أنه عسكريٌّ بنسخةٍ مهملة الهندام، يثير الارتياح، والأهم أنه يبثّ الاطمئنان في النفس.

يحاول إسنادي من دون أن يؤلمني. لكنني لا أشعر بشيء. محتجزةٌ في قوقعةٍ قطنية. منعدمة الإحساس ومخدّرة، أشعر بالارتياح بين ذراعيه.

يفلح في إجلاسي على المقعد الأمامي، مكان الميت، في المكان الذي يخصّصونه لي في كل انتقال. أستعيد وعيي شيئاً فشيئاً.

يصل ويليام راكضاً. يتسلّق إلى القسم الخلفي من المركبة. عند قدميه

صورةٌ نصف مدمّرة لبشار الأسد. أثني ساقي اليسرى مرّةً أخرى لإغلاق الباب. أدرك مجدداً بأني نصف عارية وأشعر بالخجل قليلاً من هذا العري. على الرغم من الليل الشتوي، لا أشعر بأيّ برد. الخوف والألم تغلّبا.

تنطلق الشاحنة الصغيرة، تتوقف بعد بضعة أمتار لحمل جريحٍ آخر وتستأنف طريقها إلى مشفى بابا عمرو.

في الطريق، علينا أن نتوقف عدّة مراتٍ كي لا نغرق في أضواء الصواريخ المضيئة، ولتجنّب إطلاق النار. وفي كل مرّة، يطلق السائق نكاتٍ ويغدق الشتائم على الجيش السوري. أعتقد أنه ميكانيكي، فداخل مركبته مليءٌ بالأدوات التي أحاول أن أجمعها في زاوية كي لا أصاب مع كل ارتجاج.

نكاته وكلماته العذبة الموجهة إلى بشار الأسد تضحكني. لا أستطيع منع نفسي من الابتسام، وأنا أوازن نفسي في مقعدي، بين طلقتي قنّاصٍ وقبل أن أكون في مأمن. وهذه الابتسامة لا تفارقني. كل شيءٍ داخلي يقول لي إنني أعود من مكانٍ بعيد. يجتاحني إحساسٌ بالسعادة غير مفهوم. أنا سعيدة. نحن أحياء.

أنظر مرّةً أخرى إلى تلك الأزقة المعتمة والموحلة، إلى حيّ بابا عمرو الذي لا يريدني أن أغادره. إلى هذه الأبنية المتداعية التي كنت أعتقد أني لن أراها مجدداً.

حين أوصلتنا الشاحنة الصغيرة إلى مشفى بابا عمرو، كانت الساعة تقارب الثانية صباحاً. يأتي السائق لمساعدتي على الخروج، يمسكني من ذراعي ويحاول رفعي قليلاً. أطلب منه بحركةٍ من يدي أن يستدير وأتسلّق على ظهره، من دون أن أطلب رأيه. يحملني بصعوبةٍ حتى الداخل.

بعد أن وضعني على حمّالة، يرحل مجدداً من دون أن يقول كلمةً واحدة. لن أراه لاحقاً، مثله مثل كل أولئك الرجال الذين أنقذوا حياتي، كلٌّ بدوره.

لم يكن الوقت متاحاً لأسألهم عن أسمائهم ولأقول لهم شكراً. لا أعرف عنهم شيئاً، ولا من أين أتوا، ولا لماذا هم هنا. أعرف فقط أنهم أنقذوا حياتي ذات ليلةٍ شديدة البرودة في شباط/ فبراير.

لدى دخولنا إلى المشفى، يلحق بنا أحمد بنظره، من دون أن يتلفّظ بكلمة لبعض ثوانٍ. لقد وصلهم خبر الهجوم على النفق. لا بدّ أنه كان يعتقد بأننا متنا جميعاً. يأتي لملاقاتنا وينظر إلينا، ويكرّر عدّة مرّات: «ستموتان هنا!»، ثمّ ينفجر بضحكةٍ مدوّية.

لقد تعلّمت أن أفهم الدعابة السورية، لكن الأمر هذه المرّة أثقل من احتمالي. ضحكته تدوّي في رأسي، الكلمات تدور في الاتجاهات كلّها. أفكّر في ريمي، في تلك الأيام التي أمضيناها هنا، في خافيير وبول اللذين لم تصلنا أخبارهما. لكنني أعلم بأنّ الأمر مثيرٌ للسخرية بالنسبة إليه، فهذا يعني فقط بأنهم لم يكونوا يتوقعون رؤيتنا مجدداً بهذه السرعة، بأننا سنبقى في حمص إلى الأبد. هذه الأقوال تشبه نبوءةً مشؤومة. لم أعد أقدر على رؤية الموت يحوم حولنا. الدموع تصعد إلى عيني.

يصل جليل راكضاً. يدخل الحجرة مبتسماً ووجوده وحده يهدّئني. يناولني سيجارةً في حين يخفي رجلٌ ساقيّ العاريتين بكنزته. أدخّن، فأنا على قيد الحياة.

أدخّن مع ويليام السيجارة تلو السيجارة. لقد فشلنا. عدنا إلى نقطة انطلاقنا، أكثر يأساً من أيّ وقتٍ مضى بسبب عدم قدرتنا على المغادرة. حالياً، ليست لدينا أيّ أخبارٍ عن خافيير. اليقين الوحيد هو أنّ بول بخير. أتى ناشطٌ ليبلغنا بأنه قد عبر الخطوط المعادية. لكننا لا نعلم شيئاً عن خافيير.

يدخل رجلان بزيٍّ عسكري إلى المشفى. أتعرّف على أحد قادة كتائب

الجيش الحرّ في الحيّ. لا بدّ أنّ الوضع خطيرٌ كي يأتيا حتى هنا، وسط الليل. لقد مات كثيرٌ من المدنيين والعسكريين أثناء هذه العملية.

ما لم نكن نتوقعه أبداً هو أنهما هنا لتقديم اعتذارهما بعد فشل خروجنا. كيف أمكن أن يعلم الجيش السوري بالعملية؟ هل ينبغي توجيه الشكّ إلى واحدٍ منهم، إلى واحدٍ منّا؟ يستقر الشكّ. حتى ذلك الحين، كانت لديّ ثقةٌ كاملةٌ بكلّ من صادفونا. لكن ينبغي حقاً أن تكون معلومةٌ تسرّبت كي نُستهدَف مرّتين. كيف يمكن تخيّل أن يختبئ خائنٌ بين هؤلاء الرجال الذين يخاطرون بحياتهم كل يوم للدفاع عن أهل الحيّ؟

نستغلّ وجودهما لنطلب منهما احترام وقفٍ لإطلاق النار غداً الاثنين، في الثانية عشرة ظهراً. من المفترض أن تعود في تلك الساعة سيارات الإسعاف. وكما في كل مرّةٍ طلبنا فيها شيئاً، يؤكّدان لنا حسن نيّتهم.

فمرّاتٍ عدّة، ولحمايتنا، وافق الجيش السوري الحرّ على إلقاء السلاح بضع ساعات والقيام بهدنةٍ، ليسمحوا بدخول سيارات الإسعاف التابعة للهلال الأحمر أو للصليب الأحمر. وفي كل مرّة، شرحوا لنا أنّ الجيش المقابل كان يستأنف الأعمال العدائية قبل الساعة المحددة. كانت دائماً بضع ساعاتٍ فقط من الراحة، بضع ساعاتٍ من الهدوء.

بعد رحيلهما، يأتي جليل ليلتصق بي. يهمس في أذني وهو يشعل سيجارة: «أنا مسرورٌ بعودتك. كان لديَّ هاجسٌ سيئ هذا المساء. والآن بعد أن أصبحتما هنا، صرتُ بخير!». بخير، لكن إلى متى؟

في هذه اللحظة يصل الدكتور أحمد أيضاً إلى الحجرة، ومعه ثلاث قطعٍ من السيجار، يقدّم لنا أحدها. يهتف قائلاً وعلى شفتيه ابتسامة: «ينبغي الاحتفال بعودتكما. ينبغي الاحتفاء بيومٍ جديدٍ على قيد الحياة في بابا عمرو».

ثمّ يعود إلى جدّيته. لا بدّ أنّ ساقي قد عانت أثناء ذلك الهروب على الدراجة النارية. ينبغي إجراء جراحةٍ إسعافيةٍ لإدخال برغيٍّ في ركبتي وتعزيز الشدّ. يشرح لي بهدوءٍ قائلاً: «لم أكن أتوقع أنك ستحتاجين إلى ذلك. كنت أتمنى أن تتمكّني من الرحيل من هنا، لكن لم يعد لديّ خيارٌ الآن. إنها عمليةٌ صغيرة، ولن تستغرق أكثر من عشرين دقيقة».

لم يكن إجراء عمليةٍ جراحيةٍ في سورية جزءاً حقاً من خططي، ولا سيما الآن، بعد تلك الليلة المرعبة. لست متأكّدةً من أنّ تلك فكرةً جيدة. أتردد في الموافقة. «الدكتور أحمد محترفٌ ورجلٌ صالح. كان في الجيش السوري، وهو يعلم ما يفعله. ما دام يقول بأنّ ذلك ضروري، فتشجّعي ووافقي!»، يقول أبو حكيم. أنظر إليه بانتباه: «لو كانت تلك ساقك، أو ساق ابنتك، فهل كنت ستفعل، هنا والآن؟ أنت تعرف ما مررنا به توّاً!» يخفض رأسه، يخفي يديه في جيبي سترته الرياضية، الفضفاضة عليه، ويجيبني: «لست مكانك، لا أريد أن أكون مكانك، لكن ينبغي إجراؤها». دقيقةٌ أخرى من الصمت، ثمّ يستأنف قائلاً: «كنت سأجريها، أجل. وأثناء وجودك على طاولة العمليات، سوف أستعلم لأرى ما حدث لخافيير».

ينظر إليّ أحمد من دون أن يفهم ترددي. «هل تعتقدين بأنني سأقتلك؟» يسحب دفقةً كبيرةً من سيجاره ويبتسم.

كل ما يريده هو إنقاذ ساقي، لذلك، أوافق. بعد بضع دقائق، تأتي ممرّضةٌ لتحضيري للعملية، وبيدها زجاجةٌ من الكيتامين. من حيث المبدأ، هو مخدّرٌ للأحصنة، يُستخدم أيضاً كمحرّكٍ نفسي. وسوف أدرك ذلك بسرعةٍ نسبية.

فور أن أتلقّى الحقنة، ينغمس ذهني وجسدي في ما يشبه الهلام الوردي، الرخو مثل تلك العلكة المحلّاة كثيراً التي كنا نمضغها لساعاتٍ حين كنت طفلة. وكما في فيلمٍ سيئ، يعبر أمامي كل الناس الذين أحبّهم، ثمّ أراهم يختفون، واحداً إثر الآخر. هم غير موجودين. أنا غير موجودة. لم

تكن حياتي كلّها سوى وهم. واقع الأمر أنني لست ميتة، فأنا لم أوجد أبداً. أنا لا شيء وأرى كل ما لديّ يمّحي كغمامة دخان. كل شيءٍ ليس إلّا وهماً وأنا لست إلّا وهماً، حلماً. الانطباع حزينٌ وفي الوقت عينه، ويا للغرابة، عديم الألم. لا أستطيع أن أموت أو أتألم، بما أنّ ذلك كلّه ليس له وجود.

كل شيءٍ أسود. لا أتمكن من فتح عينيّ. أجفاني ملتصقة. وبعد جهودٍ هائلة، ينتهي بي الأمر إلى فتح العين اليمنى. ثمّ اليسرى. نظري مضطرب. كل شيءٍ صامت. بعد بضع لحظات، أميّز ضوءاً هائلاً من الزجاج الشفّاف يتدلّى فوقي. وفي الخلف، أكتشف مجدداً الستائر البنفسجية والوسائد المزهّرة التي تحمي نوافذ المستوصف في حال حدث قصف. لا أزال أجد صعوبةً في تقييم مكاني. أرى، لكنّي لا أفهم. للصور اتجاهٌ منفردٌ لكنها لا تتشابك. يستحيل أن أتكلّم، لساني وزنه طن.

شيئاً فشيئاً، يعود إلى ذاكرتي النفق والدراجة النارية والمشفى والحقنة والعملية. كم من الوقت استغرق ذلك؟ ليست لديّ أدنى فكرة.

ينتبه أحمد إلى أنّ عينيّ مفتوحتان وينحني نحوي، وفي زاوية شفتيه نهاية سيجاره. يمدّه لي بابتسامةٍ عريضة. أميّز أيضاً وجوهاً أخرى قربي. كلّها تبتسم.

حين أتمكن أخيراً من التلفّظ بكلمة، يخرج من فمي اسم ويليام. إنه الشخص الوحيد الذي يستطيع إعادة صلتي بالواقع، يستطيع إعادتي إلى الحياة، إخراجي من هذا الضباب الدنيء. يضحك الأطباء. أواصل الهتاف بصوتٍ يزداد قوّةً: «أريد ويليام، أريد أن أرى ويليام».

كان قد ذهب ليرتاح. يمضي جليل راكضاً ويوقظه. يصل، قلق الهيئة، بسروالٍ صوفي. «ماذا يجري؟» أمسك بيديه ولا أفلتهما. لا يستطيع تخيّل الحلم السيئ الذي حلمت به قبل هنيهة. وجوده يهدّئني.

نشعل سيجارةً ويحمل رجلان نقّالتي مرّةً أخرى إلى بيتنا، على بعد بضعة أمتارٍ من المشفى.

لم يتغيّر شيء. المرتبات عينها، الأريكة عينها، المصباح النفطي عينه والقصف عينه فوق رؤوسنا.

ـ 16 ـ

الاثنين 27 شباط/ فبراير 2012، الساعة الثانية صباحاً

أثناء خروجي للعودة إلى بيتنا، الذي لم يعد سرّياً حقاً، أصادف ثلاثة رجالٍ بقمصانٍ بيضاء، متجمّعين أمام باب المشفى. جميعهم يمجّون سجائرهم بتوتّر، بحنقٍ تقريباً. فقط ما يكفي من الوقت لحرق سيجارة غولواز صغيرة، للاسترخاء أثناء نفخة دخان، قبل العودة «إلى الجبهة»، جبهة غرفة العمليات المرتجلة التي يمضون فيها أيامهم وهم يحاولون إنقاذ حياة الناس.

بينهم عليّ، الناجي مثلنا. ابتسامةٌ حزينةٌ ملتصقةٌ بوجهه الطويل، نظرة أولئك الذين رأوا أهوالاً كثيرةً، لكنهم لا يزالون يريدون الإيمان. قبل الثورة، كان طبيب أسنانٍ في عيادته الخاصة بحمص. وما إن رأى وصول أول الجرحى حتى حمل حقيبته والمعدّات الضرورية للإسعافات الأولية، وأخذ يقوم بجولته، من بيتٍ إلى بيت. وشى به مناصرون للنظام. بعد فترةٍ وجيزة، أثناء مظاهرةٍ في بابا عمرو، استهدفه رصاص الشبيحة وأُعلنت وفاتُه على جميع القنوات العربية. نجا لحسن الحظّ، كما لو بمعجزة. يضيف: «بفضل الله!».

إلى جانبه طبيبي، ذلك الذي قام بالجراحة، الدكتور أحمد. سرعان ما لقّبته «دكتور حمص»، النسخة المحلية من دكتور هاوس، إشارةً إلى المسلسل التلفزيوني الأمريكي. قصير القامة، شعره قصيرٌ ورمادي على الرغم من سنواته الاثنتين والثلاثين، نظرته البنّية حازمةٌ ومصمّمة.

قبل الثورة، كان أحمد في جيش النظام، طبيباً عسكرياً، ذا رتبة. كان يقوم بعملياتٍ جراحية كل يوم، ولذلك تخصّص في جراحة الحرب. فارقٌ وحيد، لكنه كبير، لم يكن قد أجرى عملياتٍ جراحية لنساءٍ أو أطفال، بل لجنودٍ كان القتال مهنتهم.

طيلة عدّة أشهر، استفاد من مركزه لتزويد المتمرّدين بالأدوية وبأكياس الدم. كما كان يحضر لهم بعض المعلومات عن تحرّكات قوّات النظام، وعن الهجمات التالية. لعبةٌ مزدوجةٌ كادت حقاً تكلّفه حياته، يوم أوقف الجيش مركبةً تنقل جريحاً عُلّق له كيس دم. ولحسن الحظ، لم ينتبه الضابط إلى مصدر ذلك الكيس ولا لخاتم المشفى العسكري المطبوع عليه. لو رآه، لكشف التحقيق بسرعةٍ خيانة أحمد. خاف وقتئذ. لم يخف على نفسه، بل على أسرته، فأرسلها تختبئ في الخارج.

في المشفى العسكري، أصبحت ممارسات العنف منهجية. رفض أحمد تلك المجزرة، مخالفاً أوامر رؤسائه الذين كانوا يؤكّدون أنّ أولئك الجرحى إرهابيون خطيرون. «يحتاج الجيش إلى أطباء لمراقبة السجناء المعرّضين للتعذيب، كي لا يموتوا بسرعةٍ قبل أن يحصلوا منهم على كل المعلومات التي من المفترض أنها لديهم. ينبغي إبقاؤهم على قيد الحياة وقتاً يكفي للتمكن من تدمير كل شبكتهم، إيلامهم لكن ليس بالقدر الكافي لقتلهم». كثيراً ما كان أحمد يجد مرضى عالجهم من جرحٍ في الساق وهم يعانون من إصاباتٍ في الرأس أو يحملون آثار حروقٍ على الجسم... من وراء ظهره، كان زملاؤه ينكّلون بهم. أصبحت أعمال العنف منهجية، ورفض أحمد قتل المدنيين، حتى إذا أكّد له رؤساؤه أنهم إرهابيون خطيرون. هو كان يعالج،

وهم كانوا يقتلون. بعد عدّة ليالٍ جافاه فيها النوم، وإذ لم يعد يحتمل، وضّب حقيبته وأخذ بعض الضمادات وسرق أدويةً، ورحل.

في كانون الأول/ ديسمبر 2011، التحق بصفوف التمرد.

«أنا طبيبٌ ومن المفترض بي، مثلي مثل الجيش، أن أخدم الشعب. لكنهم أرادوا أن يجعلوا مني أحد صانعي أعمال العنف الذي يمارسونه». هم، أي النظام، العسكريون الذين عمل تحت إمرتهم لسنواتٍ طويلة.

يهتف ضاحكاً: «مع كل المخاطر التي أعرّض نفسي لها منذ ذلك الحين، لا أدري حتى كيف بقيت على قيد الحياة!» ضحكة من يتقدّم، مهما كلّف الأمر، قوياً بقناعاته، حتى الممات.

حين قدّم لهم أحد سكان بابا عمرو بيته لتأسيس مركز صحي، آمن الطبيبان بالمعجزات. البيت محميٌّ من القصف إلى حدٍّ ما. فهو مكوّنٌ من عدّة طوابق وبدا قادراً على مقاومة الانفجارات. وجد علي معدّاتٍ للتصوير الشعاعي، تمنح على الرغم من بدائيتها لمحةً عن الإصابات.

«نحن نتناوب، والجميع يفعل كل شيءٍ في هذا المشفى. أنا تحوّلت من طبيب أسنانٍ إلى جرّاح قلبٍ وممرّضٍ وطبيب جراحة عظام... وأخي أقام مشفى مماثلاً إلى حدٍّ ما في حيٍّ آخر من أحياء حمص. حتى الآن، البنية لا تزال تقاوم».

في كل مرّةٍ يتعرّض الحيّ للقصف، يكون الأطباء محميّين جيداً. هم جزءٌ من أهم أهداف النظام. ففي حال تمّ اعتقالهم، يتعرّضون للإعدام بتهمة الخيانة العظمى. لذلك، يختبئ علي وأحمد والآخرون جميعاً. هم يعلمون بأنّ عملهم أساسيٌّ لثورتهم. ينهضون كل يومٍ ويقومون بالمعجزات، بالمعدّات المتوافرة. مؤخّراً، أصبح الوضع أكثر تعقيداً. فيوماً بعد يوم، لا تني أعداد المصابين والقتلى ترتفع. كما أصبح التزوّد بالأدوية من دمشق

أو لبنان متوقفاً. وبسبب نقص الإمكانيات والمعدّات، كثيراً ما يكون الأطباء عاجزين. هم لا يستطيعون حتى إخلاء الجرحى إلى البلد المجاور.

يطلق أحمد بغضبٍ وحنقٍ كلماته: «نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه. نخيط الجروح بوسائل بدائية. ونقوم بالعمليات الجراحية بأدوات المطبخ. حتى اليوم، بترت أعضاء لستة وسبعين شخصاً، وأجريت 357 عملية جراحية من العيار الثقيل. وبأي وسائل؟».

منذ مطلع شهر شباط/ فبراير، لم يعد يدخل شيءٌ إلى الحي. يعدّ عناصر المستوصف المحاقن بتخوّف. لا أدري كيف تصرّفوا للحصول على مضادات تخثّر ضد النزوف ومضاداتٍ للألم.

منذ وصولنا، فعلوا كل شيءٍ لإبقائنا على قيد الحياة. تجاوزوا عملهم كأطباء لمعالجة كل المدنيين، فخصّونا بمعاملةٍ «تفضيلية». حياتنا ثمينةٌ لكلا الطرفين. كرّر لي أحمد عدّة مرّاتٍ امتنانه لمجيئنا كي نلمس أعمال العنف التي يعانون منها يومياً، وأهمية أن نعود أحياء لنحكي في بلداننا عن مأساة السوريين.

منذ بداية الثورة، تسيطر أجهزة الاستخبارات على مراكز الرعاية. فهي تعتقل الجرحى الذين يخليهم الهلال الأحمر، ويُجَهزون على المنشقين من الجيش والناشطين الملاحَقين، في انتهاكٍ كاملٍ لحقوق الإنسان ولاتفاقية جنيف.

تدوّي طلقات مدفعيةٍ في الحجرة. على واجهة المشفى، تشهد عدّة آثارٍ للرصاص على أعمال العنف.

في الأسابيع الماضية، أصبح بابا عمرو مذكّراً على نحوٍ شبه حصري. لم يبقَ إلّا بعض الممرضات المحجبات، اللواتي يسكنّ خلف المشفى.

في أقبية الحي، لا تزال هناك نساءٌ مع أطفالهن. هم ينتظرون منذ

بداية الحصار، في مطلع شهر شباط/ فبراير. يرتجّ الزجاج فوق رؤوسهم أثناء كل قصف.

كان بول وماري زاراهم عشية وصولنا. وقد وصف لي مطوّلاً احتضار أولئك الناس، في ظلامٍ شبه تامٍّ ليلاً ونهاراً، مضطرين لانتظار وصول الجنود الأحرار لتزويدهم بالماء والغذاء. العيون المذعورة للأطفال الذين لا يزالون يجفلون حين تقع قذيفةٌ بالقرب منهم. وصياح الرضع الذين يشعرون بذلك الاحتضار بين أذرع أمهاتهم. لا أحد يتحرّك، لا أحد يتكلّم، جميعهم ينتظرون ويصلّون أن يأتي يومٌ يتوقف فيه هذا الكابوس.

كيف يمكن للمرء إعادة بناء حياته بعد أن عاش الجحيم؟ هل سينسون ذات يومٍ هدير القنابل؟ والرجال الذين حاذوا الموت بهذا القرب إلى درجة نسيانهم بعضاً من مبادئهم؟ الحرب تحوّل الرجال والنساء وجميع من يجاورونها.

أحياناً، تتسلّل عائشة، إحدى الممرّضات، إلى غرفتي. تنتظر أن يخرج الشباب من الحجرة، وتأتي لتقبع قربي. بثوبها الطويل البني وحجابها الأبيض، تقترب بهدوء. ومن دون أن تنبس بكلمةٍ واحدة، تضع يدها، أصابعها الرقيقة، على رأسي. تداعب شعري بعذوبة، كما لو كنتُ طفلةً صغيرةً ينبغي مواساتها. تتمتم. في البداية، كانت كلماتها غير مسموعة، شكلاً من الترنيمة، كأنها آياتٌ ترتَّل. وبعد بضع ثوانٍ، تنظر في عيني، نظرةً بالغة الحزن. تصبح نبرة صوتها أكثر ثباتاً. إنها تتوسّل الله أن ينهي تلك المجازر، أن يرعاني، أن يتوقف هذا كلّه.

تمسك بيدي. أنا من أصلٍ مسيحي، وهي مسلمة، وأبقى ابنتها، أختها. أنا سورية. في تجاوزٍ للنزاع، في تجاوزٍ للقذائف المتساقطة، «نحن جميعاً أبناء الله». في المصائب تتقارب القلوب. بالنسبة إلى عائشة، الاسم ليس

مهماً، المهم هو أن يكون القلب نقياً، أن يكون مخلصاً، وأن يؤمن. أن يؤمن بالغد، على الرغم من كل شيء.

ذات يوم، وفي حين كانت تنظر بشفقةٍ إلى شعري المتلبّد الأشعث الذي لا يزال ممتلئاً بالغبار وبحطامٍ من الانفجار، تخرج من سترتها الطويلة مشطاً تمدّه لي. تذكّرني حركتها بأنني إنسان، امرأة. وبأنّ إنساناً آخر، امرأةً أخرى موجودةٌ للعناية بي. لكنّ عقد شعري تقاوم، والمشط ليس صلباً بما يكفي. لا بدّ من الماء. والحال أنّ الماء أصبح من السلع النادرة والثمينة في الحي. لذلك، لا يمكن تبديدها من أجل الأناقة...

عائشة ليست المرأة الوحيدة في الحي التي تشارك بنشاطٍ في هذه المقاومة. فمنذ المظاهرات الأولى، خرجت النساء للاحتجاج إلى جانب الرجال ضد النظام. صحيحٌ أنهن أكثر تحفّظاً من النساء في الثورتين التونسية والمصرية، لكن ذلك لا يمنع من كونهنّ من قيادات الحركة السلمية. خلف الحاسب أو في الشارع، هنّ صوت هذه الثورة.

وهنّ أيضاً ضحايا سهلة للنظام. تورد عدّة شهاداتٍ عن حدوث اغتصابٍ لشاباتٍ أمام عائلاتهنّ، على يد عسكر النظام أو الشبّيحة. لكن الشهادات الموثّقة قليلة، بسبب الشعور بالعار أو خشية الانتقام من أسرهنّ، ممّن بقوا.

تمّ إحصاء حالاتٍ في طول البلاد وعرضها، لكنّ معظمها في ريف حمص، أحد معاقل الاحتجاج على النظام. بعد سقوط المدينة في آذار/مارس 2012، كانت العواقب على الإناث رهيبة.

ـ 17 ـ

الاثنين 27 شباط/ فبراير 2012، الساعة السادسة صباحاً

الوقت لا يزال باكراً، الشمس أشرقت قبل قليلٍ والقصف لم يتوقف طيلة الليل. الحجرة التي نلتجئ إليها هي عينها من دون أن تكون كذلك تماماً. فمن دون بول وخافيير، لا يمكن أن يكون كل شيءٍ كما كان.

أفتقد حتى إلى شخير بول. أثبّت نظري على المكان الذي كان يتمدد فيه في تلك الأيام الماضية، على الركن الذي كان خافيير يجلس فيه، متربّعاً يخربش على كرّاساته. تبدو لي الحجرة أكثر اتّساعاً، وأكثر حزناً أيضاً. صمتٌ ثقيلٌ وغريبٌ للغياب. بطبيعة الحال، نحن سعداء بنجاتهما. هذا يعني أننا يمكن أن ننجو. أنّ الأهم هو عدم الاستسلام، الاحتفاظ بالأمل مهما كلّف الأمر. انتظار حلٍّ جديدٍ بصبر، جنيتي الطيبة التي ستتنازل أخيراً وتلقي نظرةً علينا.

جنيتي الطيبة نائمة على مرتبةٍ موضوعةٍ على الأرض مباشرةً، غير بعيدٍ عن أريكتي الصفراء. إلى جانبي، مهما حدث. من دون ويليام، لا أعلم كيف كان بإمكاني الصمود. وأتذكّر لقاءنا مرةً أخرى.

الثلاثاء 27 كانون الأول/ ديسمبر 2011، الساعة السادسة مساءً

بعد بضعة أيامٍ من عودتي من رحلتي الأولى إلى سورية، دُعيتُ إلى برنامجٍ على محطة «فرانس كولتور»[4] عنوانه «دو غران آمودر»[5]، مكرّسٍ لكبار الصحافيين. تأخّرت لبضع دقائق فقط، لكنها أكثر ممّا يجب. كنت أشعر بالتوتر الشديد. فهي أول تجربةٍ لي بوصفي ضيفة. لم أكن أشعر بأنني مرتاحةٌ للتحدّث عن نفسي.

حين وصلت إلى الممرّ لاهثةً وشعري أشعث، استقبلني مقدّم البرنامج إيرفيه غارديت بابتسامةٍ عريضة، فاطمأننت. لفت انتباهي ذلك الرجل الأزرق العينين والطويل الشعر الذي كان واقفاً خلفه مباشرةً. لفتت انتباهي هيئته الواثقة والرصينة. كان يتناقش مع كلود غيبال، مراسلة راديو فرنسا في مصر، التي تعمل اليوم في باريس. لطالما بهرني الصحافيون الذين أحب شغلهم. لحظاتٍ لتبادل بعض الكلمات، عن شغلها في باريس، وعن حياتها، وعن عملي، ثمّ دخلنا إلى الاستوديو.

جلست قرب الأسمر الطويل، ويليام دانييلز، المصوّر في مهنته. ولأنه جادّ، فقد أخرج ورقةً كتب عليها بعض الملاحظات. تولّد لديّ انطباعٌ بأنني لم أقم بواجباتي، وكأنها ذكريات طفولةٍ تعود مجدداً. ففتّشت في حقيبة يدي، أخرجت منها قلماً وكرّاس ملاحظاتي المتعلّقة بالتحقيقات. لماذا لا يزال هنا؟ كان مليئاً بملاحظاتي عن رحلتي إلى سورية. لم تكن لديّ فكرةٌ كيف يمكن أن ينفعني، لكن كان لديّ على الأقل ما أخفي خلفه اضطرابي.

بسرعةٍ كبيرة، طلب منّا مقدّم البرنامج أن نتحدّث عن ذكرياتنا في التحقيقات الصحفية، عن الأشخاص الذين أثّروا بنا، عن لحظات الخوف،

4- قناة فرنسية ثقافية (م).

5- حَبّ للطحن (م).

لحظات الفرح. لم يكن في رأسي إلّا سورية، فقد كنت عائدةً منها توّاً، وتأثّرت كثيراً بالأهوال التي رأيتها فيها، ممتزجةً بشجاعة المتمرّدين. كان ويليام يحضّر لتحقيقٍ هناك، واحتلّ الحوار مكانه بيننا. أخذ واحدنا يجيب الآخر. تفاهمنا.

تحدّث مطوّلاً عن تجربته في ليبيا، وأثار إعجابي بعمله ومقاربته للناس الذين يصوّرهم، والزمن الذي يمنحه للإحاطة بهم. لدى خروجنا من الاستوديو، واصلنا النقاش، وتواعدنا على أن نتقابل مجدداً.

بعد نحو أسبوعين، تلقّيت اتصالاً منه. كان في تلك الأثناء قد ذهب إلى سورية مع صديقٍ صحافي. لكنّ المحاولة فشلت. فقد اضطرّا للعودة بُعيد عبورهما الحدود، إذ كان الجيش الحرّ يخشى هجوماً جديداً من قوّات النظام. وفوراً بعد أن قمنا بحلّ بعض التفاصيل وتنظيم أمورنا، قررنا الرحيل معاً، بأسرع وقتٍ ممكن. رافقني إلى المواعيد مع سوريٍّ ينظّم الرحلة من باريس. ساعاتٌ في قصرٍ باريسي، من دون كلامٍ أحياناً. كانت تلك المرة الأولى التي لا أقوم فيها بالتحضير للسفر بمفردي.

بعد بضعة أيام، تحدّد تاريخ الرحيل. سوف نمضي يوم الخميس 16 شباط/ فبراير 2012.

أثناء غرقي في أحلام اليقظة، فتح أبو أحمد الباب. لغته الإنجليزية فوضوية. «سوف تصل قريباً سيارةٌ لنقلكم بعيداً عن هنا، حضّروا أنفسكم. بسرعة». ما إن طرحنا بعض الأسئلة عليه: من سيأخذنا؟ من أين سنمرّ؟ هل الطريق آمن؟ ما هي المخاطر؟ حتى رحل.

يركض جليل ليبحث لي عن زيٍّ جديدٍ في البيت المجاور، ويعود منه بثوبٍ طويلٍ أخضر زيتوني، من المخمل السميك، عليه تطريزٌ ذهبيٌّ وأسود متشابكٌ في مقدّمته. تتدلّى منه بعض الخيطان، سقطت منها لآلئ ذهبية

اللون. لا وقت لديّ حتى للتهكم على هذا الزيّ الذي لا يُصدّق. أرتدي بصعوبةٍ بنطالاً رياضياً أخضر. يأخذ جليل سكّيناً ويقص بالاتجاه الطولي الجانب الأيسر كي لا يعلق بالبراغي التي تخرج من ركبتي. تُحضر لي ممرّضةٌ حجاباً زهرياً طويلاً أضعه في عجَلتي بالمقلوب. تضحك وتعيد ترتيب وضعه على شعري. ينبغي ألّا تخرج خصلة شعرٍ واحدة من الحجاب.

أعقد فوق الثوب منديلي الجالب للحظّ. أسود وطويل، صوفي، من أفغانستان. استعرته من صديقتي المقرّبة، وهي استعارةٌ تدوم لأنني لم أردّه لها أبداً. قبل الرحيل لإجراء تحقيق، أفرغ نصف عطري فيه. فيكفيني، أينما كنت، أن أمرّغ أنفي فيه لأكون في بيتي إلى حدٍّ ما.

مثل كثيرٍ من المراسلين الصحافيين، لديّ كمٌّ كبيرٌ من الشعائر، تكاد تكون عرّات. أحمل معي دائماً لباساً أو شيئاً من كل أحبائي، وأترك لهم شيئاً مني. كنزة صوفية من أحدهم، كتابٌ من الآخر... في الأوقات الصعبة، يكفيني أن أنظر إلى سوارٍ، أو أن أضمّ تلك القبة من الفرو إلى صدري حتى يهدأ روعي. وكلّما سافرت أكثر، تجذّرت أكثر. حيّي، شارعي، خبّازي، مشربي... يمنحني هذا الحضور القوّة للرحيل مجدداً، للقفز من تحقيقٍ إلى آخر.

بعد أن أصبحت جاهزةً و«متنكّرةً» بزيّ سورية، أُمسك بيد جليل. في اليوم السابق، قال لي إنه لم يرتح لرحلتنا. واليوم، ما هو رأيه؟ أنظر إليه وكأنه كاهن. كما لو أنّ لدينا خياراً. لا عقلانية في ذلك كلّه. نبحث فقط عن إشارات، مهما كانت واهية، لنمنح أنفسنا بعض الشجاعة.

يبتسم جليل لي. «أنا حزينٌ لرحيلكم، لكن الأمر سينجح هذه المرّة». أبتسم بدوري. أشدّ بقوّةٍ يده بين يديّ. بضع كلماتٍ أهمس بها في أذنه، وعدٌ أقطعه وسأفي به. «مهما حدث، سأعود! سنرى بعضنا مجدداً!». تسيل دمعةٌ على خدّه. لقد خلقت تلك الأيام القليلة صلاتٍ قويةً جداً بيننا. رأى كل شيءٍ عندي، ضحكاتي، ودموعي في حالك الليل، ومخاوفي... ساعدني، واساني.

لكنّ الوقت يداهمنا. أدفع الأغطية بعيداً ويساعدني ويليام على الانتصاب، على الوقوف على قدمٍ واحدة. يقترب أبو أحمد، فأتشبّث بعنقه وأنا أقفز على قدمٍ واحدة. ها نحن نمضي. قبل أن أتعلّق به مباشرةً، أشار لي بجلالٍ إلى أسفه على اضطراره للتقليل من احترامه لي. فوجود امرأةٍ ليست زوجته ولا أخته متشبّثةً بظهره ليس وضعاً اعتيادياً، وهذا أقل ما يمكن أن يُقال. أشعر بانفعالٍ حقيقي. ففي حين يقوم بمخاطرةٍ لا تصدّق من أجلي، في حين أنه ينقذ حياتي بحملي على ظهره، يطيح بالعادات المتعارف عليها ويعتذر فوق ذلك. أياً كان الجنس أو الدين أو الانتماء الجماعاتي، تطيح الحرب بكلّ شيء. البقاء والتعاضد أصبحا القاعدتين الأوليتين.

ألقي نظرةً أخيرةً على الشقة، متمنّيةً أن تكون النظرة الأخيرة هذه المرّة. الغرف الأخرى، السجادة، الممرّ، الدرج، الغسيل الذي يجفّ، الشمس التي تشرق، والشارع الذي لم يعد له من الشارع سوى الاسم، لشدّة ما غطّته بقايا الأبنية المدمّرة.

في الخارج، تنتظرنا السيارة. أنزلق إلى الخلف، ممدّدةً على المقعد. يضع ويليام وساداتٍ على طول ساقي ليضبط وضعها. يتأكد من أنّ جلستي جيدةٌ، وينقل لي بعضاً من قوّته. ثمّ يصعد إلى الأمام ويضع قبعته الصوفية على رأسه كي لا يلفت النظر، كي لا يلاحظ أحدٌ شعره المجعّد قليلاً. السيارة تقلع.

يبدو لي الطريق للخروج من الحي وكأنه يدوم وقتاً أزلياً. لا شيء يفاجئ أكثر من شوارع خاوية في عزّ النهار. المقاومون الأخيرون لا يخرجون عملياً إلّا ليلاً. العثور على طعام، البحث عن أدوية أو زيارة أسرةٍ لتعزيتها. يمشون وهم يخبئون العنق بين الكتفين ويقطبون حواجبهم، مستطلعين السماء كما لو أنها ستسقط على رؤوسهم. يترقّبون السماء ويختبئون فور أن ينفجر صاروخٌ فوقهم.

عبر زجاج نافذتي، لا أرى إلّا تلك الشوارع الخاوية تماماً. جثث السيارات المتفحمة. هل كان هنالك أناسٌ داخلها؟ هل كانوا يهربون هم أيضاً؟

يقوم السائق بالتفافاتٍ لا تعدّ ولا تحصى لتجنّب حواجز الجيش، مغيّراً اتجاهه باستمرار. بعد نحو ثلاثين دقيقة من الطرق المليئة بالحفر الهائلة التي تجعلني أعضّ على شفتيّ كي لا أصرخ في كل مرّةٍ تدخل إحدى العجلات فيها، يتغيّر المشهد. الأبنية أقل ارتفاعاً، وأكثر تباعداً. نصل إلى قرب سكّةٍ حديدية. أميّز إلى جانبها حاجزاً للجيش.

على نحوٍ غير متوقعٍ أبداً، لا يعود السائق أدراجه. يبطئ سرعته ويتقدّم نحو الجنود. كتلٌ إسمنتيةٌ كبيرةٌ تسدّ الطريق. الممرّ الوحيد الممكن هو الحاجز، بمحرسه وجنوده الذين يقارب عددهم العشرة. أخمّن من قطعة القماش الصغيرة على أكتاف بزاتهم العسكرية بأنهم ليسوا جنوداً في الجيش الحرّ، بل موالين لبشار. ربما وصلنا إلى المركز المعادي الذي يفترَض بنا أن نغادر عبره بابا عمرو. وبالفعل، يقوم السوريون بإخراج بعض النساء والأطفال المصابين إصاباتٍ خطيرة عبر حاجزٍ يغلق جنوده أعينهم ويتركونهم يمرّون مقابل بعض المال.

نتقدّم. أخفض عيني. أنا محجّبةٌ لكنّ أصغر تفصيلٍ يمكن أن يشي بنا. إذا انتبه واحدٌ منهم إلى أننا أجانب، فعلينا السلام نحن ومرافقونا. نتوقف عند المحرس. على الرغم من النوافذ المغلقة، أسمع سائقنا يتحدّث مع أحد الجنود. الانتظار طويل. أحبس أنفاسي. ويليام، أمامي، لا يزيح نظره عن الزجاج أمامه. أهمّ شيءٍ ألّا يلتقي نظره بنظر أحد.

في الخارج، كل شيءٍ يبدو هادئاً جداً. الوقت باكرٌ والجنود لا يظهرون نشيطين. على مبعدةٍ قليلاً، يغتسل بعضهم بدلو ماء. وغيرهم يشربون القهوة وهم جالسون على الأرض. لكنّي أعلم أنّ كل شيءٍ، خلف هذه

السكينة الظاهرية، يمكن أن يسوء بلحظةٍ واحدة، حركة، نظرة، ويتحوّل إلى مذبحة.

بعد خمس دقائق طويلة من النقاش، يتصافح سائقنا مع الجندي. ومن دون أن يوجّه لنا مهرّبنا كلمةً، يقلع بهدوء. ننطلق مجدداً، وأجرؤ أخيراً على التنفس.

لقد عبرنا. تخطّينا حدود الحيّ المحاصَر. وفي الخارج، لم نعد في المدينة، بل في الريف السوري. الآن، تسير السيارة على طرقٍ ترابية، وسط حقول ملفوفٍ شاسعة. بين حينٍ وآخر، أميّز مزرعةً في الأفق. وخلفنا، لا يوجد سوى أثر الغبار الذي تثيره عجلات السيارة.

سرعان ما يتحوّل ارتياحي لعبور الخطوط المعادية إلى قلقٍ ثقيلٍ وعنيد. فبعبورنا الحاجز، بخروجنا من الحي المحاصر، الطريق طويلٌ قبل أن نستعيد حرّيتنا، ونحن ندخل تماماً في منطقةٍ غير مرحّبة. كان حيّ بابا عمرو تحت سيطرة الجيش الحر، وكنّا هناك بحمايتهم. لكن هنا، على هذه الدروب التي لا تنتهي، نحن في منطقةٍ معادية، تحت وطأة النظام وبمتناول الشبّيحة. الخطر في كل مكان. في منعطف كل دربٍ يمكن أن تظهر دبابةٌ أو كتيبة جنود، وليس معنا لحمايتنا سوى سوريَّين اثنين أو ثلاثة.

تسير بنا السيارة ببطءٍ وتتوقف مرّاتٍ عديدة. أمامنا، يذهب مستطلعٌ ليتأكّد من أنّ الطريق سالك. ولدى عودته، يجتمع السوريون الذين ينقلوننا، ويحسمون أمرهم بصدد الطريق الأفضل، الأقل خطراً.

بعد بضع ساعات، تتوقف السيارة وسط لا مكان، أمام مزرعة. بيتٌ قديمٌ طُليت جدرانه بالإسمنت الرمادي وغطّى سقفه القرميد الأحمر. وفي حين يتحدّث الرجال، أنتبه إلى طفلين في السادسة والثامنة من العمر على الأرجح. هما يلعبان. من دون أن ينشغلا لحظةً واحدةً بوصولنا وبما يجري

على بُعد بضعة أمتارٍ منهما، من دون أن يجفلا أو يدخلا ليختبئا في بيتهما، هما يلعبان. بطبيعية، بطمأنينة، كما لو أنها ليست الحرب، كملايين الأطفال عبر العالم، لكن كما لم أرَ منذ عدّة أيام.

يحضِر لنا الشاي رجلٌ بثوبٍ تقليديّ بنّي اللون. أتلذّذ بهذا المشروب السلس والمحلّى من دون أن أتحرّك من مقعد السيارة الخلفي. بعد بضع دقائق، يعود سائقنا ويشير بيده إلى شاحنةٍ صغيرة. تغييرٌ للسيارة. تتغيّر ملامحي وأنا أرى الصندوق المكشوف الذي سأضطرّ للصعود إليه. أظافري مغروسةٌ في المقعد الذي أمامي. انتقالٌ جديد، والألم لا يزال يزداد ازدياداً غير محتمل. لا سيما أننا سنكون أهدافاً متحرّكةً حقيقيةً ونحن داخلها. لا داعي للاحتجاج. فات أوان التراجع. وهل لدينا حقاً خيارٌ آخر؟

بعد أن وضعني الرجال، غطّوني بغطاءٍ سميكٍ مزهّر. لم يتمّ النقل إلى السيارة الجديدة من دون ألم. فمنذ العملية الجراحية، هنالك براغٍ تتجاوز ساقي وينبغي الحرص دائماً على ألّا تعلق بشيء.

يتناقش رجلٌ أسمر قصيرٌ مرتّب الشعر مع السائق، ثمّ يصعد معنا. يبدو، بطقمه الرمادي الصوفي، الأميل إلى الأناقة، وكأنه خرج من لا مكان. يبتسم لي، يتلفّظ ببضع كلماتٍ بالإنجليزية. ليس بما يكفي لإجراء محادثة، لكن بما يكفي لدفعي إلى الابتسام.

أثناء رحيلنا مجدداً، يلوّح لنا الرجال الذين بقوا في المزرعة مودّعين. لا يبدون مطمئنين. قبل الرحيل، ذكّرني أحدهم بأن أصمت، طيلة الوقت، مهما حصل. مهما جرى، لا كلمة. وفي حال وجود مراقبةٍ أكثر من الأماكن الأخرى، أهمّ شيءٍ ألّا أتكلم.

ننطلق وفي رأسي تلك التوصيات الأخيرة. ولأول مرّةٍ منذ وقتٍ طويل، في صندوق تلك السيارة الرباعية الدفع، أشعر بالراحة. يسكرني الهواء ورائحة الأرض والعشب والأزهار. أشعر أنني أتنفس. حولنا حقولٌ من

القمح الأخضر الموشّاة بشقائق النعمان وأشجار زيتونٍ رائعة. الشمس والنسمات تجعل أوراقها الفضّية تلمع. أغمض عينيّ فأتخيّل موطني، في الجنوب، حيث أحاول أن أتسلّق إحدى تلك الأشجار العتيقة. أرى مجدداً جدتي التي تحتفظ بحرصٍ كل عامٍ بغصن زيتونٍ لعيد الفصح.

ربما سننجو أخيراً؟ لكنّ اهتزازاً يوقظ ألماً كنت نسيته لحظةً، كما لو بالسحر، ويجعلني أفتح عينيّ. في البعيد، بين حقلين، أرى عموداً من الدخان. دخان مصانع بابا عمرو المحترقة. وما إن نبطئ ويصبح صوت المحرّك أقل حضوراً، حتى أتمكّن من سماع صوت القصف. الحرب قريبةٌ جداً، على بعد بضعة كيلومتراتٍ فقط، ولم يعد هنالك فوق رؤوسنا ما يحمينا.

نتوقف أمام بيتٍ صغير. يصعد إلى جانبي رجلٌ آخر، طويل، ممتلئ القامة، يرتدي معطفاً عسكرياً أخضر اللون. وجهه، بلحيته الشعثاء، هادئٌ وحزين. نظرته سوداء ولامعة. اسمه خالد. ينظر إلى ساقي، يضع يده على جبيني ويتحدّث إليّ بالعربية. ثرثرته تجعلني أسترخي، تهدّئ ألمي. لا بدّ أنه يقودنا إلى بيته.

بعد أن توقفنا أمام المدخل، يمسك جميع الرجال الموجودين بالمرتبة التي استلقيت عليها ويحملونني إلى المضافة. يشرح خالد لنا: «سنبقى هنا ساعتين. ما يلزم من الوقت للذهاب لنرى على مسافةٍ أبعد إن كان الطريق مفتوحاً».

قبل أن يرحل الرجال، نطلب منهم الاستعلام عن حقيبة ويليام، تلك التي اضطرّ لتركها في النفق. ليست أغراض ويليام هي حقاً ما نريد استعادتها بقدر ما نريد العثور على أغراض ريمي التي كانت داخلها. ينبغي من كل بدٍّ أن نسترجع أغراض ريمي. وحتى إن كانت الفرصة لا تتجاوز واحداً من ألف، فنحن نتعنّت في الطلب ومعاودة الطلب. يعدنا خالد ببذل

جهده. فأطراف النفق مراقبةٌ منذ هجوم الجيش السوري، والاقتراب منها ليس سهلاً.

في الساعة الحادية عشرة صباحاً وصلنا إلى بيت خالد. مرّت أربع ساعاتٍ على رحيلنا ولم نقطع سوى بضعة كيلومتراتٍ فقط. أخرجني الرجال من السيارة وحملوني إلى صالةٍ صغيرةٍ مربّعةٍ ذات جدرانٍ بيضاء ناصعة. يبدو لي البيت جديداً. كانوا قد أحضروا سريراً من إحدى الغرف، ووضعوه في الصالة من أجلي. وبعد أن أصبحت ممدّدةً عليه، أتت عائلة خالد للجلوس معنا في الصالة.

تقول شابةٌ وهي تخاطبنا بأسمائنا: «نحن نعرف من أنت. رأيناك في التلفزيون». شعرها طويلٌ ومجعّد، وترتدي ثوباً بنفسجياً جميلاً تتراءى تحته تقاطيعها الأنثوية. من اللحظة الأولى، أحببتُ بريق عينيها الماكرتين. اسمها لطيفة، وكل شيءٍ يشير إلى أنها مسرورةٌ بوجودنا. بطبيعتها الفضولية ودراستها للإنجليزية، تشعر بسرورٍ بالغٍ للتمكّن من التحدّث بها معنا. وسرعان ما تمطرنا بالأسئلة بنبرةٍ مرحةٍ لا نستطيع الصمود أمامها طويلاً. قلقها تجاهنا يحرّك المشاعر.

تقف إلى جانبها امرأةٌ أطول وأكثر امتلاءً، تلعب أسفل ثوبها كوكبةٌ من الأطفال. اسمها لارا، وهي زوجة خالد.

بسرعةٍ كبيرة، يأتي بقية أعضاء عائلة خالد، الجدّ وأبناء العمومة. يقدّم كلٌّ منهم نفسه، يسألنا عن حالنا ويرحّب بنا في منزلهم بلطفٍ مؤثّر. نعتقد بأننا سنرحل من هنا في غضون بضع دقائق. لكن بعد ساعتين، لم يصلنا بعد أيّ خبرٍ من المستكشفين.

تحضر لنا لطيفة طبقاً مليئاً بالجبن الطازج والخضار والرز الذي لا يزال البخار يتصاعد منه. سراب. لم أرَ مثل هذه الوفرة من الطعام منذ عدّة أيام. ولطيفة تستمتع برؤيتنا نأكل بمثل هذه الشهية الطيبة.

نفهم من الهيئة القلقة للطيفة ولارا بأنّ تحرّي الطرق يبدو أكثر تعقيداً من المتوقع، وبأننا يمكن أن نقيم عندهم وقتاً أطول من المتوقع.

يستغلّ ويليام ذلك ليستحمّ، فهنالك، ويا للرفاهية العظيمة، ماءٌ في هذا البيت. لم نستحمّ منذ وصولنا.

أثناء رحلتي الأولى إلى سورية لإجراء تحقيقٍ صحفي، كان الاستحمام أمراً نادراً. وغالباً ما أرغمني نقص الماء أو مصاعب التزوّد به على مثل هذا النسيان. لتسهيل أمورنا، كثيراً ما ننام مع بعضنا البعض. وبالتالي، أنا أنام دائماً بملابسي. لا أخلع أبداً كل الطبقات التي أخفيها تحت الرداء الأسود الطويل الذي أعاروني إياه. أحياناً، أشعر بالاختناق وأنا أرتدي كنزاتي والقمصان التي تُلبَس تحتها. وعلى الرغم من حرصي على اختيار ملابسي وتفضيلي للمواد التي لا تدفع للتعرّق، فلا بدّ لي من الاعتراف بأنّ رائحتي هي رائحة هواءٍ فاسد.

تنظر لارا بعينٍ قاتمةٍ إلى شعري الأشعث وتخرج من الحجرة. تعود بعد بضع دقائق. بين ذراعيها وعاءٌ كبيرٌ من الماء الساخن، تضعه قرب سريري، تساعدني على النهوض، تبعد الشعر عن رقبتي، ثمّ تغمس كفاً في الماء المدخّن والرغوي، برقّةٍ متناهية، كما يفعل المرء مع طفل، وتنزع بحركاتٍ بطيئةٍ التراب والدم الجافّ عن جبيني، ثمّ عن وجنتيّ. بعد ذلك، تنكبّ على فروة رأسي. بصبرٍ وصمت، تبلّ شعري وتغسله بالشامبو بلطفٍ، ثمّ تغسله بالماء. لهذا الماء الساخن والمعطّر على رأسي مفعولٌ يتجاوز الغسل بكثير. إنها تطهّرني. هذه البرهة من اللطف الجمّ والحرارة، مع التخلّص من كل هذا الوسخ، هذا الغبار المتراكم وهذا الدم، أشعر بأنني أتخلّص من كل هذا الجحيم، بأنني أترك الحرب خلفي.

ـ 18 ـ

الثلاثاء 28 شباط/ فبراير، الساعة التاسعة صباحاً

تشرق الشمس على آمالنا. لا صوت في الخارج، بل فقط زقزقة العصافير الخفيفة. لا ذهابٌ ومجيء. لا صوت زمور سيارة يعلن وصول جرحى. كل شيءٍ هادئ. هادئٌ أكثر ممّا ينبغي.

في البعيد، أميّز صوت القصف. وعلى العكس من الأيام السابقة، وحده صوت المدافع التي تطلق يصل إليّ. الدويّ الثاني، دويّ سقوط القذيفة، أنا أبعد من أن أسمعه. لكنني اعتدت عليه إلى درجة أنّ عقلي يعطي الهدير الأول ردّاً عليه بعد بضع ثوانٍ. وأفكّر في جليل، في سالم، في الدكتور أحمد، في بابا نويل الخاص بي، في الناشطين، في عائشة، في جميع أولئك الذين صادفناهم هناك والذين ناموا ليلةً أخرى تحت القنابل.

كانت الليلة صعبة. أجد صعوبةً في الاعتياد على هذا السرير الجديد، على هذه الأصوات الجديدة، أو بالأحرى على هذا النقص في الأصوات. أنا متحفّزة، أتربّص بأدنى صوتٍ مريب، بأدنى أثرٍ للجيش السوري الذي سيجدنا ويهاجم البيت.

أشعر بالألم. نجح ويليام في صنع منظومة أثقالٍ تشدّ ساقي. وهذا يؤلمني ألماً دائماً. لقد طلب منه الأطباء أن يضعها في مكانها حالما يتمكّن من ذلك، لتجنّب أن يصيب عظمي الشريان الفخذي بالأذى. كل مرّة، يلحّ، من دون أن يأبه بنزواتي. لقد أنقذ تصميمه ساقي بالتأكيد.

لطيفة أيضاً لم تنم جيداً. أرى ذلك في عينيها الصغيرتين هذا الصباح وهي تحضر لنا قهوةً ساخنةً جداً. أمضت الليلة وهي تترقب الأصوات القادمة من غرفتنا. الدين يمنعها من النوم في الغرفة نفسها التي ينام فيها ويليام، لذلك أمضت الليلة وهي تنهض للتأكّد من أننا بخير.

القهوة التي أتت بها إلينا هي ألذ قهوةٍ شربتها في حياتي. مضى وقتٌ طويلٌ لم نشرب قهوة. هذا السائل الأسود والحارق يدفئني، وينسيني ليلتي العسيرة. بعد سعادة القهوة، تحضِر لي لارا كأساً كبيراً من الحليب، أضطَر لشربها وأنا أسدّ أنفي. فقد وضع السوريون جميعاً في أذهانهم، مقنعين ويليام في تلك الأثناء، بأنني يجب أن أشرب أكبر قدرٍ من الحليب، لمعافاة عظامي المكسورة. أنا أكره الحليب. فما بالك بحليب البقرة الموجودة في الحقل خلف البيت، وأنا التي لا أستطيع حتى أن أبتلع حليباً منزوع الدسم؟!

لم يعد خالد حتى الآن من رحلته لإيجاد مخرجٍ لنا. لارا زوجته تكاد تموت قلقاً. وكي تهدّئ أعصابها وتشغلنا، تحكي لنا بعينين لامعتين لقاءهما وحبّهما وأطفالهما الأوائل. كانا في الجامعة معاً. كان خالد صديقاً لشقيق لارا. فور رؤيته لها، وقع صريع هواها. راقبها من بعيد، واستعلم عنها، عمّا تحبّه، عمّا تقرؤه. ثمّ غازلها بصبرٍ، وانتهى به الأمر إلى إعلان حبّه لها، وأخيراً طلب يدها من والدها. طريقتها في سرد قصّتها لنا مؤثّرة. علاقتهما جميلة، نادرة في منطقةٍ لم يعتد فيها الأزواج على أن يختاروا بعضهم بعضاً.

تحكي لي أيضاً عن مخاوفها منذ أن بدأت الحرب، وعن أنّ خالداً حمل

السلاح ليساعد المتمرّدين. «طلبتُ منه التوقف عن ذلك. لم أعد أصبر على البكاء، وعلى عدم النوم. فقدت أخي في كانون الأول/ ديسمبر، هذا يكفي. كان عنصراً في قوات أمن النظام، لكنه كان رجلاً صالحاً».

استمع خالد لزوجته. لكنّه لا يزال ينشط... من دون سلاح. ينظّم نقل الجرحى وإخلاءهم من حمص وتموين بابا عمرو. هو جزءٌ من جيش الظلّ الذي يشكّل قوّة الجيش الحرّ، والذي يفوق مقاتليه عدداً بكثير.

في بابا عمرو، كان رجالٌ من الجيش السوري الحر يأتون كل يومٍ لزيارتنا. كان بعضهم يحملون بنادق كلاشنيكوف على ظهورهم، وآخرون يحملون بأيديهم أجهزة لاسلكي. فمنذ أن قطع النظام كل الاتصالات الهاتفية، أصبح المعارضون معزولين، ووجب عليهم العثور على وسائل جديدة لتبادل المعلومات.

جميعهم تقريباً يرتدون الزيّ العسكري، أو على الأقل جزءاً منه. أحذية ضخمة طويلة الساق، من الجلد الأسود، بنطالٌ واسعٌ خاكيٌّ أو مموّه، سترةٌ على كتفيها شرائط مذهّبة تشير إلى رتبتهم في الجيش النظامي. لكنهم ليسوا جميعاً منشقين.

كلّهم يعدّون أنفسهم قادرين على القتال، لأنهم اتّبعوا تدريباً عسكرياً لمدة ثلاث سنوات أثناء خدمتهم الإلزامية. لكنّ ما يتذكّره المرء والإرادة الحسنة لا تكفي دائماً. فالتدريب وواقع المعارك ليسا أمراً واحداً.

كان أحمد، مترجمي أثناء رحلتي الأولى، قد أضحكني كثيراً بهذا الأمر. فقد أتمّ بنجاحٍ سنوات الخدمة الثلاث، لكنّه منذ بداية الثورة لا يتمكّن من حمل سلاحٍ كما ينبغي. وحين يعهد إليه أحد قادة الجيش بسلاحه، يلتقطه بتخوّفٍ وبطرف الأصابع، كما لو أنه لا يعرف تماماً كيف يمسك به. وفي كل مرّة، يعدني بأنه سيكون قادراً على فعل كل شيءٍ، في حال اعتقلني النظام،

حتى على مهاجمة المركز العدوّ بمفرده، ليحرّرني. أبتسم للصداقة التي نشأت بيننا، وأتعوّذ كي لا أحتاج يوماً إلى أن يأتي لإنقاذي.

اعتباراً من حزيران/ يونيو 2011، سمحت أولى الانشقاقات عن الجيش بخلق حركة الضباط الأحرار حول الرائد حسين هرموش. كان الرجل الذي يرتدي زيّاً عسكرياً يقود القوات التي هاجمت مدينة جسر الشغور في 12 حزيران/ يونيو. هو أول ضابطٍ كبيرٍ يدين التجاوزات التي يرتكبها الجيش. بعد بضعة أيام، اختطفت قوات المخابرات السورية الرجل على نحوٍ غامض[6]. ويتّهم كثيرٌ من المعارضين السوريين الأتراكَ بأنهم سلّموا هرموش إلى السوريين.

في شهر آب/ أغسطس، أسّس العقيد رياض الأسعد، الذي ليست لديه أي صلةٍ مع النظام القائم، على الرغم من اسمه[7]، جيشاً حرّاً بالاستناد إلى ما أسّسه هرموش. أطلق من ملجئه في جنوب تركيا نداءً إلى كل العسكريين في البلاد للانضمام إليه. أثناء رحلتي الأولى في كانون الأول/ ديسمبر 2011، التقيت بعددٍ كبيرٍ من المنشقين. جميعهم يبرزون بطاقاتهم العسكرية لإثبات رتبتهم. كانت أعينهم مليئةً بهول المجازر المرتكبة أمامهم، وبالرعب على أمنهم بوصفهم منشقين.

شيئاً فشيئاً، تمركز الجيش الحر في طول البلاد وعرضها، ويزداد عدد أفراده باستمرار. لكنّ الجيش السوري الحرّ ليس كياناً بسيطاً له رأسٌ وتسلسلٌ قياديٌّ مثل أي جيشٍ نظامي. على سبيل المثال، تسيطر كتيبة الفاروق رسمياً على حي بابا عمرو. قائد الكتيبة شابٌّ لم نره إلّا مرّةً واحدة، ليلةً واحدة، ليلة محاولتنا الفاشلة للخروج عبر النفق.

6- يوم 29 آب 2011.

7- هنالك خلطٌ عند المؤلفة بين الأسد والأسعد، بسبب تقارب كتابة الاسمين بالفرنسية وعدم وجود حرف العين في تلك اللغة (م).

بعد بضع دقائق من وصولنا إلى المشفى، وصل رجلان. بشعرٍ بنّي اللون وحاجبين كثّين، كان الرجلان الشابان يرتديان زياً عسكرياً لا تشوبه شائبة.

بدا لي وجه الرجل الموجود على اليمين مألوفاً. عبد الرزاق طلاس، 26 سنة، من عائلة وزير دفاع آل الأسد ذي الشهرة البائسة، العماد مصطفى طلاس، الذي احتلّ موقعه ذاك من عام 1972 إلى عام 2006. قبل بضعة أسابيع من ذلك، في التاسع من شباط/ فبراير، كانت قناة الدنيا التلفزيونية القريبة من النظام السوري قد أعلنت موت عبد الرزاق. كنّا في خضمّ تحضير رحيلنا، ولم تكن شهادات صلات وصلنا في باريس وسورية واضحة، وكان مستحيلاً أن نعلم إن كان الخبر صحيحاً.

يقولون إنّ الكتيبة تعدّ 4000 رجل، معظمهم مدنيون التحقوا بالنضال المسلّح. لكنّ الرجال الذي صادفناهم ليسوا جميعاً أعضاء في تلك الكتيبة. بل فهمنا بأنّ خلافاتٍ عميقةً توجد في صفوف تلك الحركة المتمرّدة. يتمّ تنظيم كل مدينةٍ على نحوٍ شبه مستقل. كلّهم يستقون أوامرهم محلياً ولا يخضعون للقواعد عينها، ولا سيما تجاه السجناء، سواءٌ أكانوا من الشبّيحة أم مجرّد مقاتلين من النظام. فبعض المجموعات تبيعهم إلى المعسكر المعادي مقابل السلاح بعد أن تنتزع منهم المعلومات، وبعضها الآخر تفضّل أن تبقيهم أسرى للمبادلة في حال اعتقال أحد المتمرّدين.

في كل كتيبة، هنالك نقاشاتٌ شبه يوميةٍ لمعرفة كيفية التنظيم وكيفية القتال. الحرب قيد التعلّم يوماً بيومٍ تقريباً وتتطوّر وفق الوضع ودبابات الجيش السوري والقذائف التي تتساقط.

تتعرّض سلطة طلاس، السنّي الشابّ، للانتقاد بانتظامٍ، من رجالٍ أكثر خبرةً منه بكثير. كثيرون يعدّون أنفسهم أكثر شرعيةً منه على رأس الكتيبة.

في تموز/ يوليو 2012، انشقّ مناف طلاس، ابن مصطفى طلاس والصديق الحميم لبشار الأسد. كان الرجلان معاً في الكلية العسكرية

بحمص. ومنذ بداية الثورة، كان مناف أول ممثّلٍ رسميّ للحكومة يقابل المعارضة لمحاولة فتح الحوار. ويقال إنّ جهوده في المصالحة قد أدّت إلى الحكم عليه بالإقامة الجبرية بدءاً من أيار/ مايو 2011. في الفترة عينها، أصبحت الرستن، مهد عائلته، قاعدةً للمنشقين عن الجيش.

حتى الآن، طلاس هو أعلى ضابطٍ ينشق، فهو برتبة عميدٍ في الحرس الجمهوري. كما أنه علامةٌ على استراتيجية النظام السوري التي تعتمد على الطبقات المتعددة. صحيحٌ أنّ بعض الأجهزة يديرها سنّة، لكن حتى داخل هذه المساواة الظاهرية يختفي علويون يأتمرون بأوامرهم، تتمثّل وظيفتهم الحقيقية في مراقبة أي حركةٍ يقومون بها. وقد بُني الجيش وأجهزة المخابرات وكل الإدارات الحساسة على هذا المبدأ عينه. يتراءى للشعب بأنّ لكل طائفةٍ مكانها في النظام، في حين أنّ العلويين يراقبون في الحقيقة كل شيء.

حالياً، تبدو هذه الاعتبارات بعيدةً عن الدوافع اليومية لدى خالد وأصدقائه.

لم يعد خالد حتى الآن. تذرع لارا البيت بخطواتها، تمرّر الوقت كما تستطيع، بين الأطفال والمطبخ وبيننا.

يغادر ويليام صالتنا الصغيرة بانتظامٍ ليتابع الأخبار في التلفزيون في الحجرة المجاورة. تتبعه ياسمين لتترجم له التعليقات. وفي كل ذهابٍ وإياب، يلخّص لي الوضع. تُكثِر وسائل الإعلام العربية والفرنسية من الحديث عنّا. تقول إننا لا نزال في حمص، وهذا أمرٌ يطمئننا. كلّما فقدوا أثرنا، كنّا بأمان.

لكنّ الساعات تمضي وليست لدينا بعد أيّ فكرةٍ عن اللحظة التي سنتمكّن فيها من الرحيل. ساقي تؤلمني أكثر فأكثر. ولا سيما أننا نقتصد

في مضادّ الألم. مخزوننا محدودٌ، ولا نعلم كم من الوقت سيدوم ترحالنا. الألم شديدٌ إلى درجة أنني أشعر أحياناً بالغثيان.

في فترة ما بعد الظهر، وفي حين أتت لارا لترى إن كان كل شيءٍ على ما يرام، ترى بقعاً من الدم على ملاءتي. سرعان ما ندرك وجود جرحٍ أعلى الفخذ، شظيّةٌ تنزف. لم ينظر أيّ طبيبٍ إلى ذلك الموضع، لحميميته، وهو يلتهب منذ عدّة أيام. تصاب لارا بالقلق، فتتصل بخطيب قريبتها، وهو ممرّض. على الأقل هذا ما يزعمه. هذا الممرّض، وهو في أحسن الأحوال طبيبٌ بيطري، يدخِل من دون إنذارٍ حقنةً من مضادّ الألم، كما لو أنني فرس، ويضغط على المحقنة. يتغلغل الدواء في جسمي بسرعةٍ كبيرة، ويسبّب لي ألماً فظيعاً.

طيلة النهار، أتوسّل إلى ويليام أن ينزع أحد الأثقال، أن يخفّف الحمل الذي يشدّ ساقي. نتفاوض، أو بالأحرى أفاوض وحدي، فويليام يبقى صامداً لا يتزعزع. أحياناً يتعب فيؤكّد لي أنه قد نزع ثقلاً. أسترخي وأشعر بأني تخفّفت. لكنّه في واقع الأمر لم يفعل شيئاً، لم ينزع غراماً واحداً. هذا هو ما يُطلق عليه قدرة الإيحاء، مفعول الدواء الكاذب، أي الخديعة!

ولتشتيت انتباهي، يذهب ويليام ليجوب المنزل بهاتفه وقد وضعه بوضعية التصوير. يعود لي بفيلمٍ نتفرّج عليه معاً، ويريني فيه كل ما لا أستطيع رؤيته. إنه ساقيّ، عينيّ. أكتشف بيت لارا، في الطرف المقابل، حيث تعيش مع خالد. وإلى اليمين، بيت الجدّ وأبناء العمّ. والبقرة في الحقل المجاور، تلك التي يرغمونني على شرب حليبها.

هذا الهروب الصغير عبر شاشة ويليام له أثرٌ رائعٌ عليّ. أهدأ، لكن حين يعود ويليام من تصيّده للأخبار، أرى من نظرته القاتمة أنّ هنالك خطباً. يعلن التلفزيون العربي أنهم فقدوا أثرنا. يشرحون أنّ سيارات الإسعاف جاءت لاصطحابنا ولم تعثر علينا.

هذه المعلومات غير طيّبة بالنسبة إلينا. لقد عصينا تعليمات وزارة الخارجية الفرنسية عندما لم ننتظر سيارات الإسعاف الخاصّة بالصليب الأحمر، ودمشق تعلم الآن بأننا نجوب طرقات البلد. لا شكّ في أنّ الحواجز ستصبح أكثف. هل وقع خالد في شباك واحدٍ منها؟

في بيروت، اكتشفت السلطات الفرنسية وصول خافيير وبول. مثلما كنّا تعاهدنا، حاولا الاختباء بانتظار خروجنا كي لا يشكّ أحدٌ بأننا غادرنا بابا عمرو.

تجول منذ بضع ساعاتٍ شائعةٌ مفادها أننا أنا وويليام في بيروت أيضاً. بل إنّ الرئيس الفرنسي علّق عليها أمام التلفزيونات أثناء اجتماعٍ في مونبلييه. وعلى مدى ساعتين، تعيش عائلاتنا وأصدقاؤنا الجحيم مجدداً، عليهم قبول أنّ رئيس الدولة قد ارتكب هفوةً، أن يكون قد أخطأ، وأننا لا نزال في سورية. لا نزال في خطر.

طيلة عشرة أيام، تراكمت الشائعات. تحدّث بعض الاختصاصيين عن بتر ساقي، كما لو أنهم كانوا حاضرين. وذكر آخرون كلماتٍ لم أتلفّظ بها يوماً. جميعهم ينطلقون في مطاردة الشهادات المتعلّقة بنا. بل إنّ عدداً من المصوّرين رابط أمام صيدلية أهلي، بحثاً عن صورةٍ لأمي وهي باكية...

يأتي الليل. وفي حين أننا منهمكون بالتساؤلات، يدخل من الباب خالد وعلى شفتيه ابتسامةٌ عريضة، كما لو كان قد أتى لتكذيب أفكارنا السوداوية.

أول ما نلاحظه هو الحقيبة الضخمة ذات اللون الأزرق الغامق، التي يحملها على ظهره. ليس هنالك أدنى شكّ، إنها حقيبة ويليام. تلك التي اضطررنا لتركها في النفق. مع أغراض ريمي. سوف نتمكّن من إعادة ما بقي منه معنا.

ـ 19 ـ

الأربعاء 29 شباط/ فبراير

لم يغمض لي جفنٌ تقريباً طيلة الليل. فقد كانت الريح قويةً وكان المطر يضرب زجاج النوافذ بكثافةٍ إلى درجة أنه بدا لي كأنّ البيت سيطير من قوّة العاصفة. طيلة الليل، تمسّكت بسريري، مكافحةً رغبةً لا تقاوَم في إيقاظ ويليام. عناصر الطبيعة في الخارج أفلتت من عقالها. اعتقدت أكثر من مرّةٍ أنّ البيت سيطير تحت وطأة الرياح. ولم أشعر بالاستياء وأنا ألحظ ظهور نور النهار.

في الصباح، تطرق لطيفة الباب وفي يديها طبق القهوة. تبدو حزينةً اليوم، متعبةً من هذه الحرب التي تتحوّل إلى مستنقع. منذ أكثر من سنة، لم تعد تستطيع الذهاب إلى الجامعة، وتكاد لا تستطيع الخروج ورؤية صديقاتها. كانت لطيفة ذات الثلاثة والعشرين عاماً تتابع دراستها في الهندسة وهي تتحدّث الإنجليزية بطلاقةٍ إلى حدٍّ ما. وعلى الرغم من صغر سنّها، إلّا أنها تحرص علينا بعذوبةٍ فائقة، مثل أمٍّ صغيرةٍ بالتبنّي. في غضون بضعة أيام، أصبحت صديقتنا وممرّضتي. تفعل كل ما يشعرنا بالراحة في البيت، وهي تنجح في ذلك.

قبيل الظهر، يعلن لنا خالد الرحيل. يبدو أنّ الطريق سالكٌ أخيراً.

يشرح لنا أنهم وجدوا طريقاً لنا لإخراجنا من البلد، لكنّ المهمّة معقّدةٌ، لأنّ الجيش موجودٌ في كل مكانٍ، ويبحث عنّا. الطوق يضيق حولنا.

ينبغي إذاً الرحيل بعد قليل. على الرغم من أنني أحلم بالعودة إلى موطني، إلّا أنني أخشى من كل تلك التنقّلات. بدايةً لأنهم سوف ينقلونني مجدداً. وكما في كل مرّة، وعلى الرغم من كل الحرص المبذول لتجنّب أن يؤلموني، أشعر بعظامي تتلاطم. أقوم بردّ الفعل الغبيّ المتمثّل في ضغط يدي عليها، كما لو أنني أستطيع احتواءها، لكنّ ذلك لا يغيّر شيئاً.

أمام المنزل، خرجت كل عائلة خالد ولارا لتوديعنا. لطيفة، الجدّ، أبناء العمومة، الطبيب البيطري المضطرب عقلياً، الجميع هنا. النساء يقبّلنني ويكرّرن توصياتهنّ لي بالانتباه إلى نفسي.

يدير ويليام تنقّلاتي. يستبق الحركات ويحضّر الأرضية. «اذهبوا إلى الطرف الأيسر، ينبغي إدخال الرأس أولاً». الرجال ينفّذون، يركعون في مؤخرة السيارة ويشدّون المرتبة التي أتمدّد عليها. بعض الجهود الإضافية، بعض صرخات الألم مني، وها أنا ذا أصبحت في مكاني. ها نحن نمضي وسط سحابةٍ من الغبار.

حولنا، المناظر الطبيعية رائعة. حقول زيتونٍ على مدى النظر، هضبات، قرى صغيرة. وسط هذا المشهد الهادئ تنتصب عقبات، مطارٌ عسكري، حاجزٌ لقوّات النظام وقاعدة عسكرية للشبّيحة. أغلق عينيّ، أغرس أظافري في جلد مسند مقعد ويليام أمامي.

نعبر قرىً مفعمةً بالحياة. الشوارع مزروعةٌ بالمتاجر المفتوحة التي تطفح رفوفها بالسلع. يسرع المارّة على الأرصفة. ما من علامةٍ على التوتّر أو على الحرب. سكينة الحياة اليومية فحسب. هنا، يعيش السنّة والمسيحيون بسلام. تعبر امرأةٌ الشارع أمامنا، رأسها مكشوفٌ وشعرها

البنّي ينساب على ثوبها الطويل. تتجاور النساء المحجّبات مع النساء السافرات. سورية ما قبل.. لا تزال موجودة.

يتوقف خالد عند كل تجمّعٍ للبيوت. يذهب لمقابلة عناصر اتصال، يجمع معلومات. نتقدّم ببطء. نتوقف كثيراً. أعجز عن معرفة أين نحن بالضبط. وأمتنع عن طرح أيّ سؤال.

لدى وصولنا إلى تقاطع، ألاحظ أنّ رجلاً عجوزاً يسبقنا. يقوم بدور المستكشف من أجلنا، ويفتح لنا الطريق على درّاجته النارية. وجوده مطمئِن، إذ يهدّئ قليلاً التوتّر الدائم. نحن نقيس هذا القلق بكمية السجائر التي يمنحها خالد لنفسه فور مرورنا بنقطةٍ فيها مجازفة. فبعد كل مرّة، يرفع صوت الراديو ويشعل سيجارةً، بعد أن يشير إلينا بأنّ كل شيءٍ على ما يرام. هو يخاطر بحياته من أجلنا.

بعض القرى مسيحية، وبعضها الآخر علوية. وعند كلٍّ منها، أتوجّس. فعلى الرغم من تنكّرنا، هنالك خطر أن يتعرّف أحدٌ علينا.

في آخر النهار، نتوقف في باحة منزل. خالد متوتّر، يأمرنا بالبقاء في السيارة، دونما كلمة. بعد نحو عشر دقائق، يعود مبتسماً. لن نمضي أبعد من ذلك حالياً. وكما في كل مرّة، يمسك الرجال بمرتبتي ويحملونني إلى الداخل.

المنزل كبيرٌ، لكنّه يبدو لي مهجوراً، ما من علامةٍ على الحياة. في الحقيقة، هو منزلٌ ثانٍ. تسكن العائلة على بعد بضعة أمتارٍ، وتأتي أحياناً للعيش هنا. يضعوننا في غرفةٍ كبيرة، على سريرٍ واسع. مقابله، تغطّي خزانةٌ خشبيةٌ مزخرفةٌ الجدارَ بأكمله. وعلى كل نافذةٍ ستائر بنفسجيةٌ ومذهّبة. الجو بارد.

رجلان شديدا النحول، بقدمين عاريتين في الصندل، على الرغم من البرد، ينشطان لترتيب أمورنا. يشد أحدهما شريطاً كهربائياً من الخارج،

يمرّره عبر النافذة ويضعه في مقبسٍ كهربائي: ها نحن موصولان بالمولّد الكهربائي. وينقل الثاني مشعّاً يحاول جعله يعمل. يُخرج أيضاً أغطيةً ووسائد كي نستقر.

مرّةً أخرى، لا نعلم إلى متى سنضطرّ للانتظار في هذه الحجرة المتجمّدة. وبما أننا لا نعلم شيئاً عن رحلتنا، وأنّ ما تبقّى من مضادّ الألم يكفي ليومين فقط، فلا أتناول منه شيئاً. أتلوّى ألماً. يفعل ويليام ما بوسعه، يضيف لي وساداتٍ خلف ظهري. الألم رهيب. ومثلما هي الحال في كل مرّةٍ أشعر فيها بالقلق الشديد وبالدموع تصعد، يأتي ليجلس قربي ويداعب شعري. ينتقي كلماته ليهدّئني، ليطمئنني. نشعل سيجارةً لنحاول أن ننسى.

في الخارج، وعبر النافذة، نبدأ في رؤية ندف ثلجٍ كبيرةٍ تهطل، ثمّ تتزايد الندف. في البداية، لا يعلق الثلج على الأرض، لكن أثناء السهرة، تنخفض الحرارة، وسرعان ما تغطّي طبقةٌ ناعمةٌ بيضاء كل شيء.

ـ 20 ـ

الخميس الأول من آذار/ مارس

في الصباح الباكر، كل شيءٍ أبيض. الباحة، الجدار الصغير من الخفّان الإسمنتي أمام البيت، وكل المشهد حولنا مدفونٌ تحت طبقةٍ سميكةٍ من الثلج. تمنح أولى شعاعات الشمس بريقاً خاصّاً لهذا البياض. التباين رائعٌ بين السماء الزرقاء والأرض النقية الناصعة. يبدو كأنّ كل أطفال المنازل المحيطة قد تواعدوا لشنّ معركةٍ ضخمةٍ بكتل الثلج. أستمتع بضحكاتهم وصيحاتهم.

نتفرّج على هذا المشهد المدهش عبر النافذة، مختبئين بالستائر السميكة كي لا يرانا أحدٌ، فنعرّض للخطر أولئك الذين يؤوروننا، يخبّئوننا.

ننتظر أن يأتي أحدٌ ما ليعلن لنا قرب الرحيل. وكلّما فقدت صبري، أجد ويليام ليهدّئني.

قرابة الظهيرة، نستفيد من أولى زيارات السوريين، لنستفهم منهم عن حال الطرق. فلئن كان المشهد رائعاً، فنحن نعلم أيضاً أنّ الثلج قد يجعل الطرق غير سالكة، ما يزيد من تعقيد رحيلنا. لا سيّما أننا لا نستطيع سلوك الطرق المعبّدة، التي يسيطر عليها النظام. علينا أن نتعرّج عبر الحقول، على طرقٍ موحلةٍ، بل أحياناً اختراع طرقٍ لتجنّب أن يمسكوا بنا.

قرابة منتصف النهار، يطلب منّا خالد أن نستعدّ للانطلاق بعد ساعتين. يهتمّ بتحضير السيارة وبتشكيل الفريق لإخراجنا من هنا. وعلى سبيل آخر وجبةٍ لنا في سورية، يحضِر لنا مضيفنا بطاطا مقلية، بطاطا الحرّية، كما يقول الأمريكيون. لهذه الحرّية طعمٌ مشبعٌ بالزيت، كما أنها تلتصق بالأصابع.

هذه المرّة، تنتظرنا حافلةٌ سوداء صغيرة. السيارة حديثةٌ إلى حدٍّ ما، لكنّها تحمل آثار عدّة اصطدامات. يرافقنا أربعة رجالٍ مسلّحين حتى أسنانهم. يبدون مستعدّين للمضيّ إلى القتال. وحدها ابتسامة خالد اللطيفة تهدّئني.

التوتّر ملموسٌ في السيارة. فجأةً، أسمع صوت بنادق الكلاشنيكوف تأتي من لا مكان. بحركةٍ واحدة، يخفض الرجال صمّام الأمان ويفتحون قفل السلاح. يستطيعون بذلك أن يطلقوا ما يصل إلى 600 طلقة في الدقيقة. هذه البندقية الهجومية السوفييتية الأصل شعبيةٌ لدى محاربي العصابات، لوثوقيتها، وفي البلدان الفقيرة لكلفتها المنخفضة.

يرتّلون آياتٍ من القرآن، تصعد أصواتهم في السيارة. وبعد ابتعاد الخطر، يشرح لنا خالد أننا مررنا قرب قاعدةٍ عسكريةٍ للجيش الموالي للنظام. في الداخل، عدّة مئاتٍ من العسكريين بعتادٍ جيد، مستعدّين لقتلنا لأقل هفوة.

نتقدّم ببطء، عبر دروبٍ ترابيةٍ ضيّقة، وسط الحقول. سيرنا متعرّج، والجبال اللبنانية المواجهة لنا لا يبدو أنها تقترب. نحتاج كل فترة ما بعد الظهر كي نقطع الكيلومترات القليلة التي تفصلنا عنها.

أخيراً، في حدود السادسة مساءً، نصل إلى قرية. يخرج الجميع ويتركوننا، أنا وويليام، في الحافلة الصغيرة. خفيةً أدخّن سيجارة.

يتقدّم نحوي رجلٌ أسمر، مصفّف الشعر، لديه الهيئة الواثقة لأولئك الذين يقودون المعارك: «إيديث، إيديث... هل تتذكّرينني؟»، أبحث في ذاكرتي. أحتاج إلى بعض الوقت كي أتذكّر حمزة، أحد زعماء الجيش الحرّ، أحد أعضاء كتيبة الفاروق، الذي قابلته في اسطنبول قبل ثلاثة أشهر، قبل رحلتي الأولى إلى سورية.

ماذا يفعل هنا؟ يشرح لي أنه يساعد المجموعة على تهريبنا خارج البلد، مظهراً لي، على نحوٍ غير واضحٍ كل التنظيم الذي تمّ من أجل إخراجنا من هنا.

تقف شاحنةٌ خلفه تماماً. إنها وسيلة نقلنا الجديدة، الأخيرة كما آمل. يخرجني أربعة رجالٍ من الحافلة الصغيرة، على مرتبتي، ويرفعونني إلى القمرة. أشعر بالألم. لم يعد لحقنة مضاد الألم التي أعطاني إياها ويليام قبل الرحيل أي مفعول. بصعوبة أدخل في القمرة، ساقاي تلامسان الباب. لا بدّ من الصمود في الكيلومترات الأخيرة لعبور الحدود. أشعل سيجارةً لأهدّئ نفسي.

يصعد ويليام على درّاجةٍ ناريةٍ ويسبقني. يشرح لي حمزة أنه ينبغي مواصلة التظاهر بأننا سوريون، وبخاصّةٍ عدم لفت الانتباه إلينا. يشبه ويليام، الجالس خلف مقاتلٍ شابٍّ وعلى رأسه قبّعةٌ صوفيةٌ، جميع الرجال الآخرين في المجموعة. على كل حال، لم يعد هنالك مكانٌ في قمرة الشاحنة، فساقي تحتلّ المقعد بأكمله. أنظر إليه يمضي وأشعل سيجارتي الأخيرة في سورية. آمل ذلك.

أسدل الليل ستاره. الطريق سيئ، غير معبّد، مليءٌ بالحفر. وفي كل قفزةٍ للشاحنة، ينتزع الألم مني صرخةً صغيرة. أعضّ على شفتيّ لأصمد، بصمت. نحن نسير منذ عشرات الدقائق. فجأةً، يلتفت سائق الشاحنة

صوبي، ويقول لي بإنجليزيةٍ ممزوجةٍ بالعربية: «الآن كل شيءٍ على ما يرام، نحن في لبنان». إنها أول مرّةٍ أسمع فيها صوته. أكاد لا أصدّق. أنظر حولي من دون أن أجرؤ على التصديق. أخيراً أصبحنا بأمان.

بعض الصبر أيضاً ونصل أمام بيتٍ كبيرٍ تقف أمامه نحو عشر درّاجاتٍ نارية. يخرج منه رجال. أتعرّف على ويليام. كم أودّ أن أصرخ فرحاً، أن أضمّه بين ذراعيّ، هو الذي وعدني دائماً بأننا سننجو، بأنه سيخرجني من هناك، هو الذي لولاه لما صمدتُ.

نزولٌ آخر من السيارة، بيتٌ جديد، أريكةٌ جديدة. هذه المرّة، الأريكة جلدية. فور استقراري عليها، يمضي ويليام ليحضِر ما يشكّل ثقَلاً لساقي. حقيبة حاسبه المحمول، جذعان من الخشب، قطعة من المعدن...

أفاوض ثانيةً لأخفّف ألمي قليلاً. أعلم أنه يفعل ذلك لصالحي، لكنّه مؤلمٌ جداً. غير أنّ الوقت ليس وقت الشكاوى والزمجرة. إنه الاحتفال في الصالة الشاسعة. تأتي عدّة نساءٍ يحملن أطفالاً بين أذرعهنّ للجلوس في الأرائك المواجهة لنا. يلتفّ الرجال حول الموقد ليتدفّؤوا بعد هذه الرحلة الطويلة. يبدأ توزيع الشاي والبرتقال والسجائر. الرجال الذين رافقونا منتَشون، لقد نجحوا في مهمّتهم. يشرح لنا أحد الرجال: «سنبقى هنا ساعتين، ثمّ نصحبكما إلى بيروت».

بانتظار ذلك، تتاح لنا فرصة التحدّث مع أسرنا. إنه أول تواصلٍ لي مع الخارج منذ الانفجار. كنت أنتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة، لكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التحسّب لردود أفعالهم.

يمرّر لي حمزة هاتفاً نقالاً، جهاز نوكيا قديماً بلونٍ أزرق فاتح. الشبكة سيئة، أحرّك يديّ في كل الاتجاهات، الإشارة ضعيفة، أحاول أن أنتصب قليلاً. الالتقاط سيئٌ حقاً.

أطلب رقم الهاتف المحمول الخاصّ بوالدي. أركّز، ألّا أبكي، ألّا أبكي

بخاصّة. أنحني نحو النافذة وأصالب أصابعي كي يعمل الاتصال. الهاتف يرنّ. تنفّسي توقف. يفتح والدي الخط. صوته، أخيراً. «إنها أنا، إيديث، أنا بخير، أنا آسفة». يبدو تقريباً غير متفاجئ. يذهلني هدوءه.

يسألني أين أنا، لكنني وعدتُ السوريين المرافقين لي بعدم كشف موقعنا. ألتزم بالكلمات التي حفظتها مع ويليام. «أنا بخير، نحن بأمان. لا أستطيع أن أقول لكم أين، حالياً، لكنني سأعاود الاتصال بأسرع وقتٍ ممكن».

أسمع أمي خلفه. ولأنّ رباطة جأشها أقل، تخنق بداية نحيب. أفعل مثلها. حلقي يتشنّج، عيناي مفعمتان بدموع الفرح التي أحاول كبحها.

آخر توصية، الأهمّ عدم التواصل مع وزارة الخارجية ولا مع وسائل الإعلام. يوافق والدي.

أغلق الخط. يبدأ ويليام أيضاً يحرّك ذراعيه بحثاً عن الشبكة. ويتصل بوالديه. التوصيات الأمنية نفسها، الكلمات المطمئنة لكن الضبابية نفسها، الأصوات التي حطّمها الانفعال نفسها.

حين يغلق الخط، أنظر إليه. لقد وعد، وقد فعلها، لقد أخرجني من هذا الجحيم.

لقد نجونا. يبدو السوريون مرتاحين بقدرنا. طيلة عشرة أيام، بحثوا جميعاً عن مختلف طرق الخروج الممكنة. حاولوا كل شيءٍ، وتوصّلنا أخيراً إلى الهدف.

كان هذا المخرج ضرورياً لهم. لقد سمح وجودنا بتسليط الأضواء على الوضع في سورية، على حي بابا عمرو المحاصر. قلِق الناس على مصيرنا وبالتالي على مصيرهم. انكبّت وسائل الإعلام على الحرب في سورية، على مصير المدنيين، على حاجتهم إلى المساعدة الإنسانية العاجلة.

في غضون بضعة أيام، أدرك الناس عنف المعارك على الأرض، عنف المجازر التي تطال النساء والأطفال.

وقد زاد من ضرورة بقائنا، بالنسبة إلى المتمرّدين السوريين، أنّ تلك الأحداث قد جرت بعيد مقتل الصحافي الفرنسي جيل جاكييه، التي نسبها بعض الصحافيين إلى خطأٍ ارتكبه الجيش السوري الحر. بالنسبة إليهم وإلى الرأي العام العالمي بصدد هذه الثورة، كان يجب أن نخرج أحياء من بابا عمرو. وإلّا لاستخدم النظام موتنا ضدّ المعارضة، ولتلاشت أحلام سوريي بابا عمرو بالديمقراطية مرّةً أخرى.

ـ 21 ـ

الخميس الأول من آذار/ مارس، الساعة الثامنة مساءً

الطريق سيئ، والليل يعقّد تنقّلنا. السيارات تسير ببطء، ويعلق عددٌ منها في الثلج.

يرمي السائق سترته فوقي ليخفيني عن حواجز الجيش المحلي. المنطقة تسيطر عليها قوات حزب الله، وهو حركةٌ سياسيةٌ شيعية، ولدت في عام 1982 رداً بخاصةٍ على الغزو الإسرائيلي للبنان، وهو حليف للنظام السوري منذ وقتٍ طويل. سيكون مؤسفاً أن يتمّ اعتقالنا الآن، عدم وصولنا إلى مشفى بيروت. أشعر بالحرّ.

لتبديد الغبش المتشكّل على واجهة السيارة، أشعل الرجل التدفئة إلى الحدّ الأقصى. الثوب الأخضر الذي أرتديه منذ عدّة أيامٍ يلتصق بجسمي. أختنق. ينبغي أن أنزع عني بعض الملابس، من دون لفت الانتباه. أستغلّ لحظةً تغرق فيها السيارة بالظلام لأنزع عني الثوب ثم بعض الكنزات التي ارتديتها في سورية خشية البرد.

يخاطبنا السائق. الرئيس يريد التحدّث إليكما. ساحر، لكن رئيس ماذا. الصليب الأحمر؟ مشفى بيروت؟ حين يمدّ يده نحوي بجهاز الهاتف،

أسأل: من المتكلم؟ وللمفاجأة، أتعرّف على صوت نيكولا ساركوزي، الذي يقدّم نفسه.

أفتح عينيّ على وسعهما، أحرّك يديّ في كل الاتجاهات لأُفهِم ويليام من الذي يتصل بنا. محادثةٌ وجيزة، بضع جملٍ فقط ليقدّم لنا دعمه، ويقول لنا إنّ طائرةً مجهّزةً طبياً تنتظرنا في بيروت، لنعود إلى فرنسا، حالما نرغب في ذلك.

ما إن ندرك ما جرى حتى يعود هاتف السائق ليرنّ ثانيةً، وهذه المرّة، طبيب وزارة الخارجية. أحاول أن أشرح له إصابتي، والألم. أعطيه ويليام، الوحيد القادر على الكلام عن ساقي. يفصّل له ويليام بدقّةٍ الكسر المزدوج. لكننا غير متأكّدين من مصدره، هل هي ضربةٌ أم شظيّة قذيفة. لا أتمكّن من تصديق أنّ شظيّة قذيفةٍ استطاعت أن تخترق بنطالي وجرابي ولحمي حتى العظم. يشرح بعد ذلك الأدوية التي أخذتها، والجرعات... في الأيام المنصرمة وكي لا يخطئ، دوّن ملاحظاتٍ على كرّاسه. فبعد أن انتزع كل الصفحات التي تحتوي على أسماء السوريين، سجّل قائمة الأدوية التي كان يعطيها لي. الانتظام، الجرعة.

منذ خروجنا من حمص، لم نصادف إلا طبيباً واحداً. كانت طبيبةً نسائية. نظرت إلى إصاباتي بقرفٍ ولم تجرؤ على تقريب يديها لتتأكّد من أنّ كل شيءٍ على ما يرام. لم يدم الفحص أكثر من بضع دقائق، وسرعان ما أعادت الغطاء على ساقيّ ورحلت مجدداً.

هذا يعادل القول إنّ ويليام تولّى الأمور بنفسه. ومن دون أن يهتزّ له جفن، سجّل حقن المورفين، ووضع منظومة الشدّ لساقي في كل بيتٍ مررنا به، بل راقب عدد كؤوس الحليب التي كنت مكرهةً على شربها كل يوم. أصبح طبيباً رغم أنفه، بسبب الحالة الطارئة.

أستعيد الهاتف بعد أن يفهم طبيب الخارجية الوضع كي يشرح لي

التتمّة. ينبغي أن يدرس الأطباء في بيروت حالتي، ويقرّروا إن كانت تسمح لي بأن أستقل الطائرة للعودة إلى فرنسا وإجراء عملية جراحية بين أهلي.

تتوقف السيارات لدى وصولها إلى مرتفعات بيروت. حلَّ الليل منذ عدّة ساعاتٍ لكنّ أضواء المدينة لا تزال تزيّنها. نميّز البحر الأبيض المتوسط في البعيد. لم يبدُ لي يوماً بهذا الجمال.

هذا الطريق مألوفٌ لديّ. أبحث بعينيّ عن بيت أهل صديقي اللبناني نصري على اليسار. خالد وحمزة، منقذانا من الجيش الحر، ينزلان من سيارتهما الرباعية الدفع ويتقدّمان نحونا. «سوف نترككما هنا، لا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك. وصلنا إلى بيروت، وستكونان قريباً في دياركما». يقدّمان لنا رزمةً صغيرة، وشاحين بألوان سورية الحرّة. هديةٌ شديدة الرمزية تمسّ شغاف قلبينا.

رافقانا حتى بيروت بخيرٍ وسلام. كانا قد وعدانا ووفيا بوعدهما مخاطرين بحياتهما. لم تنته الرحلة بالنسبة إليهما. الآن عليهما أن يعودا، أن يسلكا بالاتجاه المعاكس كل هذا الطريق الذي سلكناه من حمص.

ـ 22 ـ

الخميس الأول من آذار/ مارس، الساعة 11 ونصف ليلاً

أمام المشفى، سحابةٌ من الصحافيين. قبيل تجاوز الحاجز الأمني، نلحظ الكاميرات وميكروفونات مسجلات الإذاعات وجمهرة نفاد الصبر. لم نتخيّل حقاً استقبالاً كهذا.

حين تتوقف السيارة، يهرع إلينا الأطباء، والكابوس ينتهي أخيراً. آخر الجهود لاستخراجي من السيارة والصعود على نقّالة.

أمام باب الدخول، يستقبلني رجلٌ طويلٌ نوعاً ما، رماديّ الشعر، بابتسامةٍ واسعةٍ وصريحة، سفير فرنسا في بيروت. لم أكن أتخيّل أن ينتظرني سفير، ولا سيما وسط الليل.

يصطحبون ويليام إلى طرفٍ ليتمّ فحصه، ويصطحبونني إلى الطرف الآخر. إنها أول مرّةٍ نفترق فيها، وينتابني شعورٌ غريب، إنه الشخص الوحيد الذي أثق به. حتى هنا.

ينهمك الأطباء والممرضات حولي، ينزعون عني ملابسي ويبدؤون مجموعةً من الاختبارات. يسنح لي بالكاد الوقت الكافي لأعهد بمجوهراتي إلى دوني بييتون، سفير فرنسا، قبل الذهاب لإجراء المسح الشعاعي

والتصوير بالرنين المغناطيسي... لديّ فقط سوارٌ وعقد، قيمتهما معنوية. يوم بلغت العشرين من عمري، قدّمت لي والدتي سواراً ذهبياً رفيعاً، على شكل سلسال. تقليدٌ عائلي، فكلّ نساء العائلة يرتدين السوار عينه منذ سن العشرين. لا أنزعه أبداً، حتى حين أقوم بتحقيق صحفي. هو جزءٌ لا يتجزّأ مني، من تاريخي. حول عنقي تتأرجح دائماً السلسلة الفضية عينها والقطعة الزرقاء الغامقة التي تتدلّى منها. اشتريت هذا العقد أثناء آخر زيارةٍ لي إلى بغداد، وليس له قيمةٌ إلّا في نظري.

خلف نقّالتي يتبعني جنديان أو ثلاثة، لحمايتي. أستغلّ ذلك لأهدّد مازحةً الممرّض الذي يجعل النقّالة تهتزّ بقوّة، ما يسبّب لي ألماً رهيباً، مجدداً. سوف يجعله حرّاسي يعيش وقتاً عصيباً جداً... لكن لا يبدو أنّ الرجال المعنيين يضحكون لحماقاتي.

حين تجهّزني الممرضة للتصوير بالرنين المغناطيسي، يعود الألم. عنيفاً، حاداً، غير محتمل. أرجف منه. لا يمكن في مثل هذه الشروط القيام بأيّ شيء. تختفي الممرضة وتعود مع حقنةٍ من مضاد الألم. أرتاح في غضون بضع ثوانٍ.

بعد ما بدا لي وقتاً أبدياً، أصعد إلى غرفة، ودائماً بصحبة حرّاسي الشخصيين. أشغّل التلفزيون، فيظهر على الشاشة وجه ويليام ووجهي، وعبارة «الصحافيان آمنان أخيراً في لبنان».

أنظر إلى فخذي الأيسر، ثمّ إلى الأيمن. لا يزال قابعاً في داخلي الخوف من الإنتان، من البتر. أتخيّل جسمي من دون هذا الامتداد لنفسي، إذ يصبح أقصر في جانب، شبه مقوّس. أتخيّل حياتي اللاحقة. هل سأتمكّن بعد الآن من الرقص، من السباحة؟ من الذهاب مجدداً لإجراء تحقيقٍ صحفي؟

أحاول التركيز على الأمر الجوهري: نحن ما زلنا على قيد الحياة. بعد بضع ساعات، سنكون في فرنسا، سألتقي أخيراً كل أحبائي.

أحاول النوم. أعلم أنه يجب عليّ النوم، أنّ ساعات الأرق قد تراكمت في الأيام المنصرمة، أنّ عقلي يحتاج إلى الراحة، أنّ جسمي بأكمله يطالب بها. لكنني لا أرغب بذلك مطلقاً، أنا كلعبةٍ على نابضٍ رُبط محرّكها إلى الدرجة القصوى.

أطفئ التلفزيون. بعينين مفتوحتين عن آخرهما، أمسك بهاتفي وأطلب أسرتي. أولى دمعات الفرح، على طرفي الهاتف. تطول المحادثة إلى اللانهاية، أحتاج فقط إلى إعادة التواصل مع العالم، لكن يستحيل حالياً أن أحكي عمّا عشناه، ليس هكذا، ليس على الهاتف.

بعض المقالات الصحفية لم تتردد، وهي التي لم تعلم ماذا تقول، في أن تخترع... للوهلة الأولى، أضحك حين أكتشف كل ما تخيّلوه، لكن لا بدّ أنّ انعكاس ذلك على أسرتي كان رهيباً، في عدم يقينها لما آلت إليه حالنا.

نقلت لي صديقتي المتواطئة ماريان سرداً كاملاً، ساعةً بساعة، لتصرّفات أقرب أصدقائي. اجتماعٌ مغلقٌ أمام مكتبة حافظ أو في بيتي، نظراً لأنّ أصدقائي اختاروه مقرّاً لهم.

دموعٌ جديدة، من الفرح أيضاً، ثم أنام. أكتشف أغنيةً تمّ تأليفها في فرنسا من أجل عودتنا، على لحن أغنية شانزيليزيه. أمورٌ صغيرةٌ تدلّ على الاهتمام تبثّ الاضطراب في قلبي.

أتصل برفيقي. النقاش صعب. كيف لي أن أشارك الآخر كل تلك اللحظات من الخوف، من الأمل؟ أبحث عن كلماتي، ستأتي مع الزمن. لكن ستبقى أشياء لن يكون قولها ممكناً.

أسمع الأصحاب في بولفار مينيلمونتان يصيحون، يغنّون... كم أودّ أن أكون معهم، بينهم. أن أجلس على كرسي من الخيزران الملوّن تحت ستارةٍ حمراء، أستمع إلى أصوات المدينة، أصوات مدينتي أنا. زمامير السيارات، محرّكات دراجات الفتية وهي تفرقع...

لحظة خرجنا من الجحيم، كان الثلج يتساقط على حمص. وكانت دبابات قوّات ماهر الأسد تدخل بابا عمرو. قرّر مقاتلو الجيش الحرّ التخلّي عن المقاومة فهربوا. وفق العقيد رياض الأسعد، قائد الجيش السوري الحر، كان ذلك «انسحاباً تكتيكياً» لقوّاته بعد سبعةٍ وعشرين يوماً من القصف والمعارك المتواصلة. اضطرّ معظم الرجال والنساء الذين حاولوا مساعدتنا إلى مغادرة الحي. بعضهم ذهب إلى لبنان. كثيرٌ منهم ماتوا، وآخرون سُجنوا لأنهم ساعدونا. أفكّر فيهم.

لقد صمدوا أمام الحصار شهراً تقريباً. قبل أن ينهاروا، في الأول من آذار/ مارس، يوم خروجنا من سورية. بعد سيطرة الجيش على الحي، لم يعد موجوداً، أو لم يعد تقريباً موجوداً. أُبيد المستوصف الذي عولجنا فيه أنا وبول، ودُمّر النفق.

في غضون بضع ساعات، اجتاحت الحرب الحي. اجتاحت أمل معارضي النظام بإحراز انتصار.

بنت قوّات النظام جداراً حول بابا عمرو، لعزله أكثر، لتحويله إلى عدم، لمنع أي تواصلٍ مع الخارج، ولمحاولة منع عودة المقاتلين الذين يمكن أن يأتوا لتحرير السكان.

أراد بشار الأسد أن يجعل من بابا عمرو مثالاً على قوّته، ظانّاً أنه سيطفئ نار التمرّد بالقضاء على الحي.

غير أنّ المتمرّدين عادوا إلى الانقضاض على الحي، بعد أن ضمّدوا جراحهم، وهم يتقدّمون مجدداً، شارعاً شارعاً، بيتاً بيتاً.

ـ 23 ـ

الأربعاء 2 آذار/ مارس، العاشرة صباحاً

صباحاً، تحاول الممرضات تنظيف كل الغبار والقذارة التي تراكمت في شعري، تحت قدميّ، تحت أظافري. أكبرهنّ سنّاً تتحدّث الفرنسية وتدندن أغاني لفيروز، الفنانة اللبنانية الكبيرة، وهي تغسل لي شعري بماءٍ متدفّق. تستخدم شامبو للرضّع برائحة الزهور، رائحة مألوفة ولطيفة.

أرض الغرفة ابتلّت تماماً، لكنّهنّ لا يأبهن على ما يبدو، ولا أنا. كما لو كنت طفلةً، يفركن يديّ بكفٍّ، يرفعن ذراعيّ، واحداً تلو الآخر، ويفركن جسمي كلّه. الماء الذي يسيل بنّيٌ غامق. أشعر أنّ حركاتهنّ اعتداءٌ عليّ، وفي الوقت عينه أحسّ بالامتنان لاهتمامهنّ بي.

يأتي لزيارتي صديقي نصري، الممثل في بيروت. والداه يصحبانه. إنهم جزءٌ من عائلتي إلى حدٍّ ما، فأنا أعرفهم منذ وقتٍ طويل.

أول عودةٍ إلى الواقع، أولى التوصيفات لمغامراتنا. لا يزال صعباً إدراك ما مررنا به، أو بالأحرى لا يزال صعباً نسيانه. نتمازح، لم أستطع أن أحضر زعتراً، ذلك المزيج من البهارات ونبات الزعتر، لأم نصري، التي توبّخني

والدموع تملأ عينيها. قدّموا لي خرطوشات سجائر. أشعل واحدةً وأسقِط الرماد في كوبٍ بلاستيكي صغير. ويليام معنا.

يأتي أدريان جولمز ليتلقى سردنا من أجل مقالةٍ في لوفيغارو. تتوالى السجائر مع تذكّرنا لتلك الأيام الأخيرة. يختلط صوتانا، لكنّ بعض الذكريات بدأت تختفي، تنقصها الدقّة.

تمرّ الساعات وكأنها دقائق، آن أوان الافتراق. لقد وضعت الحكومة الفرنسية تحت تصرّفنا طائرةً مجهّزةً طبياً، والانطلاق محدّدٌ في الواحدة ظهراً.

يصل الأطباء ومعهم فريقٌ من الصليب الأحمر الدولي. يدخلونني في ما يشبه التابوت، من اللدائن الحمراء. أنا محبوسة، لم تعد عظامي تستطيع أن تتحرك، يخفّ الألم. بحركاتٍ دقيقة، يمسكون بي وينقلونني إلى سيارة إسعاف. في السيارة، وبصحبة أحد العاملين في السفارة الفرنسية، نلقي نظرةً أخيرةً على المدينة. الشوارع المختنقة بكثافة السير، المتاجر التي تفيض منها البضائع، رجل شرطة جالس على حائطٍ صغير وهو يحمل خوذته بيده أمام مركز تفتيش. تمرّ هذه الصور المألوفة أمام عيني وكأنها الشريط الذي يدلّ على نهاية فيلمٍ ما.

بعد بضع عشراتٍ من الدقائق، نصل إلى المطار. تتقدّم السيارة على المدرج. يحلّ الممرضون العسكريون الفرنسيون محل اللبنانيين. سفير فرنسا في بيروت واقفٌ أمام سلّم الطائرة، مع كامل فريقه. ما زلت بحاجةٍ إلى فهم عدّة نقاطٍ في قصتنا، لكن لن يكون لدي الوقت لأطرح عليه كل الأسئلة التي تحرق شفتيّ.

ما إن أستقرّ في الطائرة، ودائماً في تابوتي، حتى يعلّقوا في ذراعي حقنةً من المورفين، يكفيني أن أضغط على زرٍ لتلقّي جرعة. لكنّ الكميات

ضئيلةٌ بالمقارنة مع ما أُعطيت سابقاً، فلا أشعر بشيءٍ، وأفضّل على كل حالٍ أن أبقى واعيةً لأستمتع بالعودة إلى باريس.

قُدّمت أطباق الوجبة، أرى رجلاً يُخرج صواني صغيرة من غلافٍ ويضعها في فرنٍ بالأمواج فوق الصوتية. وعلى الفور، تصلني رائحة اللحم والطعام المطبوخ بالفرن. أتذمر لأنني لا أستطيع أن ألمسها، فالأطباء يعتقدون أنه ينبغي إجراء عمليةٍ جراحيةٍ لي فور وصولي إلى المشفى، وينبغي أن تكون معدتي فارغة من أجل التخدير. للمرّة الأولى، أتمنى لو أستطيع أن آكل كامل الوجبة في الطائرة.

سرعان ما يبدأ النقاش مع العاملين العسكريين في الطائرة. هم معتادون على نقل رؤساء دولٍ أو عسكريين، لا صحافيين. يحكون لي عن مهمّاتهم في أفغانستان، عن أرض العمليات، عن التزامهم بأن يكونوا مستعدّين دائماً للانطلاق، في أيّ وقتٍ كان.

قبيل الوصول، يصف لي طبيب وزارة الخارجية ما سيجري لدى وصولنا.

نقطةً نقطة، يفصّل لي الجهود التي بذلها المسؤولون الفرنسيون للعثور علينا ومحاولة إخراجنا.

من باريس بدايةً، ثمّ في دمشق وبيروت. ومثلما شرح لنا، عاد إيريك شوفالييه سفير فرنسا في دمشق إلى سورية على عجالةٍ غداة الانفجار ليحاول المجيء لإخراجنا. لكنّ العملية التي نجحت في إخراج جثمان جيل جاكييه لم تنجح هذه المرة، بسبب معارضة السلطات السورية لها. فقام من دمشق بتنسيق محاولات تدخّل الصليب الأحمر الدولي، بهدف إرسال فريقٍ إلى المكان.

وفور أن فهمت السلطات الفرنسية أننا أُكرهنا على الخروج بوسائلنا الخاصة والتوجّه إلى بيروت، وضعت رجالاً في كل نقطة خروجٍ ممكنة. ولا

سيما حيث وصل بول وخافيير. لسوء الحظ، مررنا عبر مركزٍ حدوديّ لم يكونوا يراقبونه.

شيئاً فشيئاً، تتجمّع قطع الأحجية. أدرك أهمية التعبئة المبذولة.

لدى وصولنا، ينبغي أن نخضع للبروتوكول. ستأتي عائلتانا للالتقاء بنا في الطائرة لبضع دقائق. ثمّ سيصعد رئيس الجمهورية أيضاً. يصعب عليّ أن أصدّق.

أنظر إلى السماء فوق باريس، أيّ سعادةٍ في رؤية كل هذه الغيوم مجدداً!

مع استعداد الطائرة للهبوط، يوضّب الأطباء والممرضون معدّاتهم. أراقبهم. تبدو حركاتهم محسوبةً بدقة، كأنها رقصة، لا مجال لأيّ خطأ. إنهم عسكريون معتادون على نقل المصابين، في حالاتٍ أكثر حرجاً بكثيرٍ من حالتي.

تلامس العجلات المدرج، تتباطأ الطائرة وتتوقف. بكلّ هدوء. ينزل العاملون الطبيون في بضع دقائق. تمكّنا بالكاد من شكرهم، من توديعهم.

ينفتح الباب مجدداً وتدخل عائلتانا، أسمع أولاً وقع خطاهما وأصواتهما خلفي. ثمّ أرى والدي ووالدتي وأخي الذي يتبعهما مباشرةً. والدا ويليام هنا أيضاً. لحظة تلاقٍ مكثّفة.

أودّ أن أقف وأتمكّن من ضمّهم إليّ، لكنّي مربوطةٌ بقوّةٍ إلى تابوتي. أودّ أن أعبّر لهم عن كل أسفي للهموم والألم طيلة هذه الأيام العشرة، لكنني لا أجرؤ. تتدافع الكلمات في فمي ولا أعلم بماذا أبدأ.

نحن لا نزال في أوج الانفعال حين يدخل الطائرة رجلٌ ببزّةٍ قاتمة، على الجانب الأيمن من وجهه سمّاعة. نظرةٌ إلى اليمين، نظرةٌ إلى اليسار، يبدو له الوضع خالياً من الخطر، يشير إلى شخصٍ ما بالمجيء. الحركة مفعمةٌ

بالاحترام، تكاد تكون مفرطةً في احتفاليتها. يتنحّى جانباً ليتيح دخول رجلٍ قصيرٍ أسمر، بمعطفٍ طويلٍ أسود. رئيس الجمهورية.

يشدّ على أيدينا ويعبّر عن فرحته برؤيتنا نعود إلى الأراضي الفرنسية. أنظر إليه وهو يربّت على كتف أخي مؤقّتاً بعضاً من جمله، ابتساماته العريضة. ألحظ قرب المسافة التي يضعها بسرعةٍ بينه وبيننا.

بعد انقضاء المفاجأة، يستعيد ويليام زمام النقاش، ويسأله عن الموقف الفرنسي من النزاع السوري. لماذا لا يتمّ فعل المزيد، لماذا يُترك هؤلاء الناس يموتون، لماذا مثل هذه المجزرة؟

مربّتاً على كتف أخي، يشرح الرجل لنا بحذلقةٍ رهانات تدخّلٍ ما في سورية. المفاوضات الدبلوماسية، النقاشات مع بشار الأسد أو حلفائه الروس والصينيين. طيلة خمس عشرة دقيقة، يحتدم النقاش. لقد رأينا من الأهوال ما يكفي كي نتخيّل أنّ بوسعنا ترك أعمال العنف هذه تستمرّ من دون فعل شيء.

أفهم بسرعةٍ أنّ الوضع لن يتطوّر قريباً. وهذا الإحساس السيئ بترك رفاقي السابقين لمصيرهم مرّةً أخرى.

ـ 24 ـ

21 آذار/ مارس 2012

الإصابة محنة. لكنّها ليست سوى المحنة الأولى. فعواقب الإصابة مثيرةٌ للتخوّف أكثر من الإصابة نفسها. والإصابات المخبّأة مخفيةٌ أكثر بكثير.

لدى وصولي إلى فرنسا، نقلوني فوراً إلى مشفى كلامار العسكري، في بيرسي، في الضاحية الباريسية القريبة. إنه أشبه بالغطس في عالمين مجهولين: طبّيٌ وعسكري. مبنى كبيرٌ أبيض على المرتفعات، سطيحةٌ شاسعةٌ إسمنتيةٌ ذات إطلالةٍ مفتوحةٍ على الأسطح الباريسية. سأحتاج إلى أسبوعين قبل أن يُسمح لي بالتمتّع بها. بسبب مخاطر الإنتان ومخاطر التعقيدات، يدعوني الأطباء تحوّطاً إلى الصبر، ويمنعونني من مغادرة الغرفة. على كل حال، تمنعني منظومة بكرة وشدٍّ على الساق اليسرى من أيّ حركة.

الانتظار، مرّةً أخرى. يتراءى للمرء أنّ الحكاية تنتهي ما إن يضع قدمه على الأرض الفرنسية، وتخفّ الآلام بين ذراعي أسرته. لكن بعد العودة، هنالك إعادة البناء، أو على الأقل محاولة إعادة البناء. تبدو لي حياتي السابقة بعيدةً، تكاد تكون مستحيلة البلوغ.

بعد إجراء عمليةٍ جراحيةٍ لي، يعلنون لي خمسة عشر يوماً جديداً في المشفى. الوقت اللازم كي أكون قادرةً على النهوض، على تجنّبٍ إضافيٍّ لأيّ خطر إنتان. حين يدخل جسمٌ أجنبيٌّ، وهو في هذه الحالة برغيٌّ طويلٌ معدني، في الجسم، ينبغي التحسّب للرفض. لا يحب الجسم أن يفرَض عليه زائر.

كل صباح، أستجوب طبيبي. أفاوضه على خروجي. يتركني أفعل. وحين يصل الحدث المنتظر، يتّخذ شكل محنةٍ جديدة.

من دون أن أدري، أصبح هذا المشفى الذي كنت أعدّ فيه الساعات أشبه بالشرنقة. الأطباء، الممرضّون، كل شيءٍ كان منظّماً، مؤطّراً. نظرة الآخرين إلى ساقي، كرسيّ المتحرّك المهيب.

ثلاثة أشهرٍ وأنا أتسلّق على ظهر حبيبي لصعود الدرج، وأنا أتعلّق بعكّازاتي، ومعي دائماً صديقاتي اللواتي يصطحبنني ويساعدنني من أجل الخروج. أصبح ذلك شديد الأهمية. السير في الشارع، أو بالأحرى السير على عجلاتٍ فيه. النظر إلى الناس وهم يمرّون في الشارع، التهكّم على بعضهم، شرب كأسٍ في مقهى على الرصيف وتنشّق الهواء الباريسي.

حينذاك، أخذنني لأتنزّه. كنّ موجوداتٍ في كل لحظة، وكي لا أشعر نفسي مرغمةً على طلب خدمةٍ ما، كنّ يقترحن. الذهاب للتسوّق، احتساء فنجان قهوة... أمور الحياة اليومية الصغيرة أصبحت معقّدةً جداً. كنّ يحللن في بيتي منذ الصباح، ويهتممن بكلّ شيء، من دون أن أدرك ذلك تقريباً، من دون أن يثقل عليّ اعتمادي على الآخرين.

اليوم، عليّ إيجاد مكان، أن أجد نفسي ضمن حياةٍ لن تكون أبداً كالسابق. وعلى الرغم من ذلك، وكما لو أنني أريد أن أخدع نفسي بنفسي، أن أطمئن الآخرين، أمضي وقتي راكضةً نحو تلك الحياة الماضية، التي

اتّخذت موقع المثال. البحث عن تحقيقاتٍ صحفيةٍ جديدة، عن أفكارٍ جديدة، عن وجهاتٍ جديدة. الاتصال بصلات الوصل، كما في السابق، كما لو أنّ شيئاً لم يجرِ.

الاستمرار، مقارنة تلك الحكاية، الرغبة في الحديث عنها مثلما أحكي عن أيّ تحقيقٍ آخر، العيش، الرغبة في عدم التحدّث عنها، البقاء، الردّ على أسئلة الفضوليين، سماع الانتقادات، الردّ عليها، التوقف عن القدرة على تكرار أن لا، لست عنصراً في الأجهزة الفرنسية، أن أعود طبيعية.

لكن مع تغييرٍ معيّن، سأعمل بدوامٍ كاملٍ في لوفيغارو، لبعض الوقت على الأقل، بدلاً من الركض وراء أرباب العمل.

في مطلع حزيران/ يونيو، عدت إلى مستشفاي من أجل محنةٍ جديدة، إعادة التأهيل. تعلّم المشي من جديد، الوثوق مجدداً بساقيّ. للمرّة الثانية في حياتي، أقوم بخطواتي الأولى. أنطلق بتشجيعٍ من معالجي الفيزيائي، وبحماية قضيبين أستند عليهما إلى ما بين ذراعيه كطفل. وضع قدمٍ بعد الأخرى، هذه الحركة الشديدة الاعتيادية أصبحت بالغة التعقيد.

حركاتي غير واثقة، أفقد التوازن بسرعة. ساقي اليسرى لا تزال هشّةً ولم تكتسب عضلاتها القوّة الكافية. كلّما استندت إليها شعرتها ترتجف. ينبغي أن أتقدم ببطء، مراقِبةً كلاً من حركاتي. حين أضع قدمي على الأرض، أشعرها تميد، تبحث عن موقعها. ينبغي أن تتحسّن عضلاتي، أن تتحسّن قوّتي. أن أراقب مكان استنادي، أن أقيس حركاتي، أن أبقى مستقيمة. رأسي يؤلمني من شدّة التفكير في كل شيء.

يوماً بعد يوم، أتقوّى بالاستماع إلى أصدقائي الجدد في إعادة التأهيل. معهم، أشعر أنني طبيعية، يفهمني هؤلاء. كثيرون منهم لامسوا الموت، بعضهم فقدوا أصدقاء، جميعهم يحتفظون بالابتسامة والأمل. معهم،

انخفض تحسّبي، نسيت تعقيداتي بصدد ندبتي. وحين كنت أنظر إليهم وهم يعيدون بناء أنفسهم، كنت أعيد بناء نفسي أنا.

كل يوم، يطمئنني تشجيع سيباستيان. أصيبَ كتفه في الوقت نفسه الذي أصبت فيه، أثناء قيامه بمهمّةٍ لصالح الجيش في السنغال. نقارن بين ندبتينا، نبدأ التحديات، ننظّم سباقاتٍ بالسباحة الحرّة في مسبح العلاج بالسباحة. يمنحني الرغبة في الكفاح، في تجاوز نفسي لاستعادة ساقي.

اختار إرفيه أن تُبتر ساقه بدلاً من الصراع ضدّ إنتانٍ كان يواصل التفاقم. أمّا أنطوني، فكلّ أربطة ركبتيه ممزّقة. يجهد كلاهما كل يومٍ ليقفا مجدداً، ليخرجا أخيراً من كرسيّهما المتحرّك، ويعودا مع رفاقهما إلى الجيش، كما في السابق.

كل يومٍ تقريباً، أتصل عبر السكايب للبقاء على اتصالٍ مع السوريين الذين صادفتهم أثناء هذه المغامرة. كل مرّة، أضطرب لمجرّد سماع صوتهم ومعرفة أنهم لا يزالون أحياء. يتابعون خطوةً خطوة مراحل إعادة التأهيل ويساندونني. لكنّ الأهمّ أنهم ينقلون إليّ الوضع الميداني في سورية.

لقد عاد المتمرّدون بعد أن اضطرّوا لمغادرة بابا عمرو، في مواجهة قوّات ماهر الأسد. وهم يستعيدون مواقعهم شيئاً فشيئاً، شارعاً بعد شارع، المعارك اليومية.

تمّ تأسيس مستوصفٍ جديد، لكنّه أسوأ تجهيزاً من ذلك الذي عولجنا فيه أنا وبول. معظم الممرّضات هربن لحظة الهجوم، لكنّ الدكتور أحمد لا يزال هناك. العائلات التي جازفت باستقبالنا لا تزال هناك. بعضهم اختاروا مزيداً من الانخراط في الثورة. الشبكة سيئة، الانقطاعات كثيرة، لكنّهم هنا، أحياء، على الطرف الآخر من الحاسب.

أحياناً، أسمع خلفهم القنابل التي تقع قريباً منهم، والطيران السوري الذي يطلق نيرانه على المدينة. يعدونني بالانتباه. كيف يستطيعون أن يعيشوا في هذا الجحيم يوماً بعد يوم؟

أثناء تبادلٍ عبر السكايب مع زميلي السويسري سيد أحمد، يبلغني بأنّ لديه أخباراً عن مغامرتي. فأحد معارفه، وهو منشقٌّ عن الجيش، أخبره بالجانب الآخر من الحكاية، رواية دمشق.

بعيد الانفجار، وفي حين كانت السلطات السورية تقدّم الوعود الرسمية بأنها ستبدي حسن النيّة لإخراجنا، عُقدت صفقةٌ على رؤوسنا. فباسم «مطاردة الكلاب»، قدّمت الدولة مليون دولار لمن يمسك بنا، أمواتاً أو أحياء، مع معدّاتنا.

شكّل نحو أربعين جندياً من الفرقة الرابعة، تلك المكلّفة بالهجوم على بابا عمرو، مجموعةً سرّيةً مضت بحثاً عنّا. بفائضٍ من الأسلحة والمعدّات، توصّلوا إلى العثور على أثرنا. يقال إنهم حاولوا شراء أحد عناصر الجيش الحرّ، وكان مكلّفاً باستكشاف الطريق. ولحسن الحظ، لم يقبل أن يبيعنا.

في اليوم التالي، ذُبح.

خاتمة

بعد سبعة عشر عاماً من حصار سريبرنيتشا في يوغوسلافيا، تتكرّر القصة عينها. قصّة حيٍّ من مدينة حمص، بابا عمرو، محاصَرٌ ومقصوفٌ ليل نهار، وسكانه مسجونون داخل مدينتهم، داخل بيوتهم. يصعب القول إننا لم نكن نعلم، مرّةً أخرى، في حين يخاطر سوريّون كل يومٍ بحياتهم لنشر فيديوهات للمجازر، صور العائلات المرعوبة.

في عام 1995، أدّت الإبادة في سريبرينيتشا إلى مقتل 8375 ضحية، وهي اليوم أحد الأمثلة على الجريمة الواسعة النطاق، وعلى الفظاعة التي ينبغي عدم تكرارها. لكن مرّةً أخرى، يعاني السوريون سكرات الموت.

حتى منتصف شهر آب/ أغسطس 2012، قضى أكثر من 25 ألف شخص، واعتُبر عشرات الألوف مفقودين، فضلاً عن نحو 8 آلاف من جنود النظام، قُتلوا في المعارك. تخفي السلطة موتهم كي لا تقلق قوّاتها وترى عدد المنشقين يزداد.

حيّ بابا عمرو هو رمزٌ لهذا الصراع، لعزل السكان، للأمل شبه السحري الكامن في قلوب أهله. إلى متى؟ إلى متى ستبقى لديهم القوّة للإيمان، للقتال، وحدهم؟!

وفق قرارٍ صدر في أيلول/ سبتمبر 2009، يفترض بالدول الأعضاء في

الأمم المتحدة تحمّل «المسؤولية الجماعية لحماية المدنيين» من الإبادة والتطهير العرقي والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب.

منذ آذار/ مارس 2011، يقوم بشار الأسد بكسب الوقت، وبمناوراتٍ دبلوماسية، بهدف مزيدٍ من إبادة المدنيين.

منذ آذار/ مارس 2011، وقّع أربعة وعودٍ بإيقاف إطلاق النار. لدى كل زيارةٍ للمبعوث السابق للأمم المتحدة والجامعة العربية، كوفي أنان، أقسم بشرفه على التخلّي عن العنف لحلّ هذا النزاع. لكنّ الدبابات لم تتوقف أبداً عن إطلاق نيرانها، كما لم يتوقف سقوط المدنيين ضحايا. فما إن كان كوفي أنان يدير ظهره، حتى كانت الآلة الجهنمية تعاود الدوران.

وفق الأمم المتحدة، دخلت سورية رسمياً في حربٍ أهلية. طيلة شهورٍ عدّة، كان التعبير يحوم، لكنّ أحداً لم يكن يجرؤ على التلفّظ به، لأنّ ذلك كان سيعني جعل هذا الكابوس واقعاً.

للوهلة الأولى، يتخيّل المرء أنّ ذلك يقتضي التدخّل ـ وهو أمرٌ كان جميع الفاعلين يفضّلون تجاوزه خشية رؤية الانعكاسات على البلدان المجاورة. غير أنّ هذا التعبير لم يكن له أيّ مفعولٍ على الصعيد الدولي. لقد أثّر في النفوس، وهذا كل شيء. كما أنه أزعج كل السوريين الذين طرحت عليهم السؤال. فهم يفضّلون الاحتفاظ بتعبير ثورة، لأنهم يناضلون لإسقاط سلطة آل الأسد.

منذ المظاهرات الأولى في آذار/ مارس 2011، اختار النظام السوري أن يفتح النار على سكان بلده. لن يقبل أيٌّ من الطرفين العودة إلى الوراء. تجاوز المعارضون جدار الخوف الذي بنته زمرة الأسد حولها منذ عام 1970.

الخصمان بعيدان عن الاقتتال بأسلحةٍ متكافئة. فمن جانب، الجيش النظامي بطائراته القتالية ودباباته الهجومية ومئات الألوف من الرجال

المدرّبين والمسلّحين. وفي المقابل، يحظى الجيش السوري الحر، حتى إذا كان أقل تجهيزاً، بدعمٍ محلي، كما أنّ وسائل حرب العصابات التي يستخدمها تقلق أكثر فأكثر أواخر من يدعمون السلطة.

هنالك خطرٌ كبيرٌ في أن ينزلق البلد أكثر في العنف، عند سقوط نظام بشار الأسد. حالياً، لم يُلحَظ إلّا قليلٌ من الأعمال الانتقامية بعد المجازر الرهيبة التي طالت السنّة في الحولة والتريمسة. هل علينا أن نخشى حدوث حمّام دمٍ ضدّ العائلات العلوية؟ ينفي ذلك جميع السوريين الذين طرحت عليهم هذا السؤال. لم تطالب المظاهرات أبداً بإبادة طائفةٍ أخرى، بل فقط برحيل زمرة الأسد. محلياً، يتعاون المسيحيون والسنّة في بعض المناطق.

يعِد جميع المتمرّدين بإلقاء السلاح فور حصولهم على مطلبهم، الحرية والديمقراطية. يبقى أن نعرف كيف سيتطور النزاع؟ كلّما استنقعت الحرب، أصبحت قذرة، وكشفت الجوانب السيئة عند البشر، التي تخرج عن السيطرة. والدليل على ذلك هي آخر الفيديوهات التي تظهر مجازر ضدّ أشخاصٍ قريبين من النظام. والوضع سوف يتدهور حتماً.

عجز الدبلوماسية فاقع. في مجلس الأمن، ومن اجتماعٍ إلى اجتماع، يراوح الوضع في مكانه. بعد مراقبي الجامعة العربية الذين أتوا ليعاينوا أعمال العنف أواخر كانون الأول/ ديسمبر 2011، وبعد نشر تقريرهم واتهامهم الصريح للنظام السوري، منحه المجتمع الدولي فرصةً جديدة. فأتى مراقبو الأمم المتحدة لمعاينة الأوضاع على الأرض، وتبيّنوا هم أيضاً المجزرة اليومية التي يتعرّض لها المدنيون. ثمّ اختفوا.

في مطلع شهر آب/ أغسطس، استقال وسيط الأمم المتحدة كوفي أنان، على الرغم من اعتياده على المفاوضات وعلى أوضاع الأزمات، من منصبه المتعلّق بسورية.

في الإذاعة، يصف صحافيٌّ آخر عمليات القصف على مدينة حلب وعلى دمشق. أسمع خلفه ذلك الصوت الذي أصبح مألوفاً، قذائف تنهال. أطفئ الراديو، أضغط على جهاز التحكّم بالتلفزيون. احتفال افتتاح الألعاب الأولمبية في لندن. المشهد مهيب. لحظة دخول الرياضيين، يستوقفني تفصيل: العلم السوري يرفرف في يد رجل.

أتى ثمانيةٌ وعشرون سورياً، منهم عشرة رياضيين، لتمثيل النظام السوري في تلك المنافسة الرياضية الدولية. صورةٌ غريبةٌ لهذا العلم الذي يرفرف في السماء الإنجليزية. الرياضة رغماً عنها رهينة السياسة الدولية. وفق المادة السادسة من الشرعة الأولمبية، «الألعاب الأولمبية منافساتٌ بين الرياضيين بالاختبارات الفردية أو عبر الفرق، وليست بين البلدان».

لكنّ هذا العلم الأحمر والأبيض والأسود، المزيّن بنجمتين خضراوين، يظهر كأنه لطخة. لا أستطيع أن أزيح عيني عن قطعة القماش الصغيرة هذه، في حين لا تزال تدوّي في داخلي أصوات القصف على حلب.

إيديث بوفييه، 1 أيلول/ سبتمبر 2012، باريس.

قائمة غير حصرية بالأشخاص الذين قُتلوا بين 22 شباط/ فبراير و2 آذار/ مارس 2012 في مدينة حمص.

معروفين أو غير معروفين، تلاقت طريق بعضهم مع طريقنا. بالنسبة إلي، هم ليسوا أرقاماً.

أحمد محمد الفاو، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

جاسم محمد الخالد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

خالد السيد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

خالد محمد الشيخ، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

عبد الرزاق الأحمد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

عبد الغفار حاميش، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

عبد الكريم الخالد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

محمد خالد جنيد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

محمد خير الدين المصري، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

محمد ضياء إسماعيل، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد عمر جنيد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

مصطفى الوعر، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

نعيم جانسيز، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

ياسر محمد حسين، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

ياسين بكّور، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 22 شباط/ فبراير 2012، قصف.

عبد الكريم حجو آغا، مدني، رجل، حمص، الحولة: برج قاعي، 23 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أنس جنيد، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: جورة الشياح، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أحمد الأبرش، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

أحمد عبد المولى، مدني، رجل، حمص، الغوطة قرابيص، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أكثم الشعبان، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

بلال كراز، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

بلال حقي، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

تامر مدوّر، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ثائر وصفي الفصيح، مدني، رجل، حمص، الغوطة قرابيص، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

حمزة عامر عز الدين، مدني، رجل، حمص، الغوطة قرابيص، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

حامد الخليف، مدني، رجل، حمص، دير بعلبة، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

زوجة الدكتور تمّام الدقّاق، مدنية، حمص، الغوطة قرابيص، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

سهير كيالي الرفاعي، مدنية، طفلة، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

شوقي توكّل، مدني، رجل، الغوطة، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

عبد الإله عبد العزيز شلب الشام، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب السباع، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عبد الرحمن محمد الفرا، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: الحميدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عبد الله العوض، مدني، رجل، حمص، القصير، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عبيدة الريحاوي، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عدنان سلامة، مدني، رجل، حمص، كرم الزيتون، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

غياث نجم، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

فادي كريم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

فؤاد الفرعي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

قتيبة الحوت، مدني، طفل، حمص، ـ ، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد الأبرش، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد التركاوي، مدني، رجل، حمص، الغوطة قرابيص، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

موسى الرفاعي، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ياسر الحسن، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

يامن تمام دقاق، مدني، بالغ، حمص، الغوطة قرابيص، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

محيي الدين مراد، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب السباع، 24 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أحمد هشام سويدان، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: جورة الشياح، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

مايا العابد، مدنية، طفلة، حمص، القصور، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

أنس الطرشة، مدني، رجل، حمص، الغوطة قرابيص، 24 شباط/ فبراير 2012، قصف.

نجار 1، مدني، طفل، حمص، تدمر، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

نجار 2، مدني، طفل، حمص، تدمر، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

نجار 3، مدني، رجل، حمص، تدمر، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

أبو بكر بقاعي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

أحمد خليل محيميد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

أيمن نمرة، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

تامر شيخ السوق، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ثائر غسان إبراهيم، مدني، طفل، حمص، الحولة، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

حسام ميخائيل المرة، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: الحميدية، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

حمود المحمد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

حيان شناط، مدني، رجل، حمص، تلبيسة، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

خالد الصفير، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

خالد علي محمد العوض، مدني، رجل، حمص، كرم الزيتون، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

رجب عبد الرحيم جنيد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

سليمان راجح، مدني، رجل، حمص، تلبيسة، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

طه الإخوان، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب تدمر، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عبد الإله الشامي، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عبد الإله عدنان عروب، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عبد الرحمن القاسم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

عبد الساتر موفق، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عبد الكريم محمد مزنري، مدني، طفل، حمص، تلبيسة، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

عبيدة فرحان شافية، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب هود، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عدنان الحسواني، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

عصام السباعي، مدني، رجل، حمص، ـ ، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عمار وحيد آغا، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عيدو الجاسم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

فاروق محمد النعيمي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

فيصل حمادة الفرعي، مدني، رجل، حمص، تلبيسة، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

قاسم أمين، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

لينا الإخوان، مدنية، طفلة، حمص، حمص القديمة: باب تدمر، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد الحليبي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

محمد خير عبد الكريم المزنازي، مدني، رجل، حمص، تلبيسة، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد عبد الغفار الدان، مدني، رجل، حمص، الغوطة قرابيص، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ـ، النجار، مدني، طفل، حمص، حمص القديمة: باب دريب، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

هايل الحسين، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

وسام هواري، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

أنس مجتبى الحاج يونس، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب دريب، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

حسن عبد الرحمن فرزات، مدني، رجل، حمص، الرستن، 25 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

طارق الأسود، مدني، رجل، حمص، الملعب، 25 شباط/ فبراير 2012، قصف.

أحمد محمد محيي الدين، مدني، رجل، حمص، ـ ، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أنس عبد العليم الطباع، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

برهان الصدّيق، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب تدمر، 26 شباط/ فبراير 2012، قصف.

خضر الصليبي، مدني، رجل، حمص، القريتين، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

رضا السعدي، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 26 شباط/ فبراير 2012، قصف.

عبد المعين حلو، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

فيصل كرمان، مدني، رجل، حمص، الرستن، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد أحمد عمّا، مدني، رجل، حمص، القصير، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد سعدو المظلوم، مدني، رجل، حمص، دير بعلبة: وادي عرب، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد سليمان أيوب، مدني، رجل، حمص، الرستن، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد علي طلاس، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 26 شباط/ فبراير 2012، قصف.

محمد ناصر قداحة، مدني، رجل، حمص، ـ ، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ضياء حسن البسطي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

رئيف فاروق اللبابيدي، غير مدني، رجل، حمص، بابا عمرو: الإنشاءات، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

سناء بشير سعد الدين، مدنية، امرأة، حمص، الرستن، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد زياد جاسم الجم، مدني، رجل، حمص، الوعر، 26 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ابتسام محاسن، مدنية، طفلة، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أحمد ربيع الخالد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، قصف.

أمجد فلفل، مدني، طفل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أمير خطاب، مدني، رجل، حمص، كرم الزيتون، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

خالد محمد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

راكان ناظم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

سعد دهسان، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

سمية النعسان، مدنية، امرأة، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

مجهول الهوية، مدني، طفل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عبد الرحمن خالد القاسم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عدنان سمهر، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

فؤاد عقيل، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد قرة علي، مدني، طفل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

مروة تحسين، مدنية، طفلة، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

نمر حسون، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

الوالد في عائلة درويش، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 27 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

الوالدة في عائلة درويش، مدنية، امرأة، حمص، الخالدية، 27 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

ابنة لعائلة دوريش 1، مدنية، امرأة، حمص، الخالدية، 27 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

ابنة لعائلة درويش 2، مدنية، امرأة، حمص، الخالدية، 27 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

ابنة لعائلة درويش 3، مدنية، امرأة، حمص، الخالدية، 27 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

ـ، درويش، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 27 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

خليل العبد، مدني، طفل، حمص، حي ربيعة، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

رمديد حويجة، مدني، رجل، حمص، الرستن، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

سليمان جاموس، غير مدني، رجل، حمص، تلكلخ، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ماهر سامي كنجو، مدني، رجل، حمص، حي ربيعة، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد وليد منلا، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: الصفصافة، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

مخلص عبد الستار الجندي، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 27 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أسعد الجمعان، مدني، رجل، حمص، تدمر، 27 شباط/ فبراير 2012، احتجاز ـ تعذيب.

أحمد دريد العبّاس، مدني، رجل، حمص، تلكلخ، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أحمد ملّوك، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أحمد الصيّاح، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

بهجت النجار، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب دريب، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

بهجت الزعبي، مدني، رجل، حمص، تلكلخ، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

خالد حسن، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

سعيد رمضان، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

حاتم النجار، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب دريب، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ابنة عائلة النجار 1، مدنية، طفلة، حمص، حمص القديمة: باب دريب، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ابنة عائلة النجار 2، مدنية، طفلة، حمص، حمص القديمة: باب دريب، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ابنة عائلة النجار 3، مدنية، طفلة، حمص، حمص القديمة: باب دريب، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

علاء الأورفي، مدني، طفل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عمر المصري، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: إبلين، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

كاعود أبو حسن، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

مثنى الخالد، مدني، طفل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محسن أبو علي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد المحمود، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد سعدون، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

مرزوقة الهلال، مدنية، طفلة، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

مهدية الكنّ، مدنية، طفلة، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

هلال الأورفي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

مجهول الهوية، مدني، رجل، حمص، الرستن، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

سليمان الصالح، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

صفوان رحيمة، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

طلحة إبراهيم شلّار، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب دريب، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

محمد علي تركاوي، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أحمد محمد عاشور، مدني، رجل، حمص، السخنة، 28 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

مرهف عبد المعين الصوفي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو: الإنشاءات، 29 شباط/ فبراير 2012، قصف.

ابن الدكتور محمد مندو 1، مدني، طفل، حمص، 29 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

ابن الدكتور محمد مندو 2، مدني، طفل، حمص، 29 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

ابن الدكتور محمد مندو 3، مدني، طفل، حمص، 29 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

زوجة الدكتور محمد مندو، مدنية، امرأة، حمص، 29 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

الدكتور محمد مندو، مدني، رجل، حمص، 29 شباط/ فبراير 2012، إعدام.

سبيع جميل الصوفي، مدني، رجل، حمص، الغوطة: قرابيص، 29 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

ضياء تركاوي، مدني، رجل، حمص، الخالدية، 29 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

عبد الحكيم محمود عمرو، مدني، رجل، حمص، القصير: جوسيه، 29 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

فراس الشاهرلي، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب دريب، 29 شباط/ فبراير 2012، إطلاق نار.

أحمد العقيدي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

برّي العقيدي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

رضوان بيطار، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عامر عمر صبوح، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عبد الباسط صبوح، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عبد الحليم صبوح، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عبد الرحمن جنيد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عبد الرحمن صبوح، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

أحمد العقيد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عبد السلام قجق، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عبد الكافي جنيد، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عبد المعين دعبول، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عبد الناصر صبوح، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

عز الدين العقيدي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

علاء العلي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

محمد جندل عبد المعين أرناؤوط، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

محمود زعبي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

محمود اللوز، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، قصف.

إبراهيم الإبراهيم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، إعدام.

أكرم سليمان، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، إعدام.

أكرم ضاهر الملحم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، إعدام.

برّي الشقحبي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، إعدام.

خالد أحمد المصيطف، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، إعدام.

عبد السلام الشقحبي، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، إعدام.

عبيدة نذير سالم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، إعدام.

محمود إبراهيم الإبراهيم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، إعدام.

مصطفى سليمان أكرم، مدني، رجل، حمص، بابا عمرو، الأول من آذار/ مارس 2012، إعدام.

رغداء الحايك، مدنية، طفلة، حمص، حمص القديمة: باب السباع، الأول من آذار/ مارس 2012، إطلاق نار.

زياد الحجار، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب السباع، الأول من آذار/ مارس 2012، إطلاق نار.

عبد اللطيف حاميش، مدني، رجل، حمص، الرفاعي، الأول من آذار/ مارس 2012، إطلاق نار.

محمد نور محمد فاضل الحايك، مدني، رجل، حمص، حمص القديمة: باب السباع، الأول من آذار/ مارس 2012، إطلاق نار.

عبد الجبار هليل، مدني، رجل، حمص، الدار الكبيرة، 2 آذار/ مارس 2012، إعدام.

رسائل شكر

أحتفظ بأسماء جميع السوريين في قلبي.

أهالي بابا عمرو، العاملون في المستوصف، جنود الجيش الحر، المركز الإعلامي وجميع الناشطين الصحافيين.

جميع السوريين في باريس الذين قدّموا لي النصح، ووجهوني، وسمحوا لي بالدخول إلى سورية مع تقليل المخاطر إلى حدّها الأدنى.

جميع المقاتلين كل يوم، على حواسبهم أو في الشارع، كي يتوقف سفك الدم السوري.

ويليام، الذي ما زلت أدين له بوعد.

بول، شجاعتك وحسّ الدعابة لديك ساعداني في الصمود.

خافيير.

ريمي، إيملي.

ماري وريشار وإيلّا فلاي.

والدي ووالدتي، بطليّ، ساعدتني شجاعتهما اليومية على النهوض ثانيةً.

أخي، يرفعني دعمه وثقته. لو تعلم عدد المعابد الصينية التي شيّدتها من أجلك...

جوليان

أجدادي وأعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي الذين دعموني، ولو من بعيد.

هوريغ وليون وأصدقائهما، لوجودهم كل يوم، لدعمهم الثمين وصداقتهم.

هالة قضماني، لنصائحها السديدة.

آلان مانغان، آلان بوتو، جان بيير بيرّان.

فيليب جيلييه وكريستين فوفيه ميسيا (ثقتكم تمسّ مشاعري).

ماغالي موريل.

أنجيليك مونييه كوهن، بوريس مابيّار، وكل فريق تمبو.

رضا ودلازاد وكل عائلة ديغاتي.

جوناثان ليتّيل.

كريستوف شميدت، دوني بييتّون، إيريك شوفالييه وجميع الذين بحثوا في فرنسا عن وسيلةٍ لإخراجنا.

سيد أحمد حمّوش وباتريك فاليّليان.

البروفيسور ريغال، البروفيسور بارتيليمي، فرانسواز كوستو، الدكتور كومبير وجميع المقيمين، جميع الممرضات والمساعدين الصحيّين في مشفى بيرسي.

رومان فور، معالجي الفيزيائي، وكل العاملين في إعادة التأهيل.

داميان لوساج.

سيباستيان وكاتي وهيرفيه ولوكا وألكس وليونيل وإليزابيت وكاثلين، وجميع رفاقي في إعادة التأهيل.

تيليكوميكس لعمليتهم في سورية، وكل السوريين الذين درّبوهم وحموهم بالتالي.

ناشرتي، صوفي شارفانيل، التي عرفت كيف تجد الكلمات لدفعي إلى الكتابة.

لوسيل غاسّو، لصبرها في مفاوضاتنا.

سارا، مساعدتي ومصوّرتي.

ماريان ولطيفة وأميلي، بطلاتي في فياكوبلاي. لور، الدم الجديد في الفريق. ساره وأديل، المفضلتان لديّ من آل كاساوي.

سوازيغ، منقذتي.

حافظ، معلّمي وقهوة صباحي.

نصري، حبّي الأزلي، وعائلته وأبراهام.

لويس، لنصائحه وآرائه الصائبة دائماً وصبره اللامتناهي.

ألكس، منصة تفاعلي ودعمه.

توماس د.، بن الصغير (مانون وكل عائلته) وبن الكبير (امرأتا حياته)، ماي لي وعائلة روندیل باكو، بريجيت (الاثنتان)، أنطوني، وكل من في الشبكة...

آنّا، أن كلير، ماريان الشقراء، بونوا الأب، ساندرين وسيلفان (جيراني إلى الأبد)، أميلي وفريديريك ت.، شادي، كورانتان، جيروم، يوهان، فلور، باستيان، فرانك، حامد، إنزو، موكيت، لوئيك، جوليان س.، كزافييه، منية، هيلين، ناتالي د. بيير، آن ب.، ستيفاني، جان فريد، جان مارك، فتحي، هيثم، شارلوت، إيمانويل، منير، ستيفان لاغارد، كارولين لاشوفسكي، صوفي جانان، فريد ليب، راف، غييوم مونييه، بوريس، سيبو، بيتشو، بيير فاليّه، ماتياس ت.، جان جاك لوارن، لوران ف.، ليسلي، كريم، كزافييه، آنا روزا، الأمين، سيسيل وصلاح...

علي وكل آل أيفردي، زاغروس، ستاندارت.

جميع من أحبّهم على مينيلمونتان.

طلاب مدرسة الصحافة في تولوز والإدارة.

الإدارة ورفاقي القدماء في مدرسة الصحافة في تولوز.

عائلة أوبير/ آسّو في كوملاري.

كيمادو، غراس، مامادو، حسّان، ناصر، سيابو، وصال، إيميلي (عصبتي من الشباب).

زيتون، آغاثا، رباط، محيو، كورتيل، فانسان وجانجان.

القدّيسة ريتا وتلك التي أقامت فيها قدّاساً...

جميع من كتبوا إليّ رسائل مغفلة ومنحوني دعمهم في الشهور المنصرمة.

أتمنّى أن يسامحني جميع من نسيت ذكرهم، فسوف يرد ذكرهم في رسائل الشكر في الكتاب القادم... وعد.

Edith Bouvier

Chambre avec vue sur la guerre

Flammarion

© *Flammarion, 1er édition* 2012.

ISBN: 978-2-0812-8677-1

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»، بمساعدة من جمعية «**مبادرة من أجل سورية جديدة**» ـ باريس، الكتب التالية:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.

دخلت الصحفية الفرنسية إيديت بوفييه إلى سورية في كانون الأول 2012. كانت رغبة واحدة تحركها: أن تشهد وتحكي الحكاية الحقيقية. أن تشهد كيف يكتب السوريون ملحمة الحرية بصدورهم وأيديهم، وأن تنقل إلى العالم شهادتها. كانت، ككل الصحفيين المؤمنين بجلال مهنتهم ترفض كسل الإعلام المخملي الذي يرى الوقائع من خلال الشاشات الباردة أو الخطابات الرسمية المدجّنة. لذلك ذهبت إلى حمص، عاصمة الثورة، وإلى قلب الأتون الثائر فيها، حي بابا عمرو تحديدا. لم تكن وحدها. كانوا ستة صحفيين أجانب، لكن يوم 22 شباط 2012 قُصف البيت الذي كانوا يتخذونه مركزا إعلاميا، فقُتل صحافيان وجُرحت هي جرحا بليغا استوجب إخراجها من سورية.

هذه الشهادة تسترجع رحلة الخروج المحفوفة بالموت تلك، لكنها تحكي بشكل أعمق عن السوريين عن "أولئك المجهولين الذين مدوّا لنا أيديهم وآوونا مخاطرين بحياتهم، وابتسموا، وشرحوا تاريخهم.... أولئك الرجال والنساء، الفقراء غالباً، الذين لا يقاتلون من أجل المال والجاه، بل من أجل الحرية....".

بيت المواطن
للنشر والتوزيع